معدن لكل الفصول

A Metal For All Seasons

1

إِحصل على الذَّهب بأي ثمن

لو أن الذَّهب كان أَكثر وفرة على الأَرض ـ كالملح مثلاً ـ فإِنَّه ربما لم يكن ليتمتّع بتلك القيمة والأَهميَّة رغم جماله وخصائصه الفيزيائية الفريدة. ولكننا نرى أن الذَّهب اكتُشف في كل القارات على وجه الأَرض. قد يبدو ذلك تناقضاً، لكنه ليس كذلك. فمع أن مكامن الذهب واسعة الانتشار، بشكل أَو بآخر، إِلاَّ أن أياً منها لم تكن لتهب الذهب الكامن فيها بسهولة، فالعثور على الذَّهب وإِنتاجه يتطلبان جهوداً كبيرة بالمقارنة مع مقدار المعدن الأصفر البرَّاق الذي يتبدى للعيان في نهاية العملية.

فمن أجل الحصول على الإِنتاج السنوي من الذَّهب في جنوب إِفريقيا، مثلاً، والبالغ خمسمائة طن تقريباً، يتطلَّب الأمر استخراج وطحن سبعين مليون طن من التراب ـ أي كمية تفوق كمية المادة التي تشكِّل هرم خوفو[1]. صحيح أن مناجم جنوب إِفريقيا هي الأسوأ من نوعها، ولكن جميعنا يعرف قصص الباحثين عن الذَّهب في أربعينات القرن التاسع عشر وهم يقومون يوماً بعد يوم بغسل التراب في مياه كاليفورنيا لينتهي بهم الأمر إِلى الحصول على القليل من قطع الذَّهب، وقد وصف ويل روجرز الوضع بعد عودته من زيارة منطقة

كلونديك بقوله: «هناك فرق كبير بين التنقيب عن الذَّهب والتنقيب عن السبانخ»[2].

ولم يؤدِّ هذا الخلل الكبير في معدل الجهد إِلى المردود إِلى ثني الناس عن السعي وراء الذَّهب في كافة أنحاء العالم ـ ولربما شكَّل ذلك أوضح دليل على المكانة الرفيعة والحيوية التي يتمتَّع بها الذَّهب منذ أقدم العصور، وعلى كونه مادة أساسية لا تقاوم. وقد تميّز السعي وراء الذَّهب بالجشع حتى في الأساطير، كما سنعرف من خلال هذا الفصل.

رغم أن الذَّهب لا يختلط بغيره من المعادن، إِلاَّ أن هناك عروقاً متفرقة منه تتوزَّع عبر الجبال حيث ملأ الغرانيت والكوارتز تلك التصدعات الموجودة في قشرة الأَرض ليتم ضغطهما معاً فيما بعد بفعل الحرارة الشديدة عبر ملايين السنين. وقد قامت العوامل الطبيعية بجرف هذه التصدعات وبعثرتها بمرور السنوات، لكن الذَّهب احتفظ بصفائه رغم تعرّضه لتأثير القوى المخربة في الطبيعة. وانساب الكثير منه عبر الجداول الجبلية، وكانت كثافة الذَّهب العالية ووزنه يؤدّيان إِلى فصله عن بقية المواد الموجودة في الماء. حيث كان يترسَّب في القاع بشكل شذرات أَو يتدفق معها على هيئة مسحوق ناعم كالتراب.

وبالمقارنة مع الحاجة إِليه، يبدو الذَّهب وكأَنَّه كان أَكثر وفرة في العصور القديمة، وبخاصة في مصر والشرق الأوسط، منه في عصر الرومان وما تلاه. فقد كانت كمية صغيرة من الذَّهب تكفي للعديد من الأغراض عندما كانت تستخدم للتزيين والزخرفة فقط لا لسك النقد أَو للادخار: كان المصريون يستخرجون من المناجم طناً واحداً فقط في السنة[3]. وكان معظم الذَّهب المتوفِّر موجوداً في حوزة الملوك ورجال الدين إِلى أن جاء الوقت الذي تطور

فيه النقد، وهو ما جعل الذَّهب ينتقل إلى أيدي عامة الناس لتزداد الحاجة إليه. وكان استخدامه شعائرياً إلى حد كبير، فقد كان وسيلة لعرض القوة والثروة والمكانة الرفيعة والقرب من الآلهة. أَمَّا الكمية المتبقية فكانت تستخدم للمجوهرات وللأشكال الأخرى من الزينة الشخصية.

عندما هبط موسى [عليه السلام] من جبل سيناء ليسلم الوصايا العشر لشعبه، وجد اليهود في حالة هياج وهم يعبدون عجلاً مصنوعاً من الذهب. وقد كان غضبه شديداً لرؤيتهم ينحنون أمام معبود يشبه آلهة أعدائه المصريين بحيث أنَّه حطم الألواح التي كانت تحوي كلمات الرب ـ الوصايا العشر ـ التي كان قد جاء بها لتوه من جبل سيناء. وتكشف لنا القصة أن اليهود رغم كونهم عبيداً، كانوا يحملون كميات وافرة من الذَّهب. لم يكن قد خطر لهم أن يستخدموا ذهبهم في شراء حريتهم في مصر، بما أن الذَّهب لم يكن يعتبر نقداً في ذلك الوقت، ما كانوا ليجدوا سوى قلائل ممن يقبلون به. وحتى لحظة صهر ذهبهم ليصنعوا منه العجل، كانوا يستخدمونه لتزيين آذانهم وأذرعهم وأعناقهم.

إن ذكر الذَّهب أكثر من أربعمائة مرة في الكتاب المقدّس يؤكد حقيقة وفرة الذَّهب في ذلك الوقت. فقد قال أيوب الصابر: «إن كنت قد جعلت الذَّهب عمدتي أو قلت للإبريز أنت متكلي. إن كنت قد فرحت... لأن يدي قد وجدت كثيراً... فهذا أيضاً إثم يعرض للقضاء، لأنني أكون قد جحدت الله من فوق»[4]. أَمَّا إبراهيم، مؤسِّس الأمة الحنيفية، فقد وُصف في سفر التكوين 13 بأَنَّه «كان غنياً جداً في المواشي والفضة والذهب». وقد زود الخادم الذي ذهب لاصطحاب رفقة بآنية مليئة بالذَّهب، بما في ذلك قرط للأنف.

عندما صعد موسى إلى جبل سيناء لتلقي كلمة الرب، كلفه الرب بأكثر من مجرد مهمة نقل الوصايا العشر والقواعد المرتبطة بها. فقد أصدر تعليمات دقيقة بشأن تشييد الحرم المقدس الذي يجب أن يعبده فيه اليهود، إضافة لتابوت العهد الذي سيوضع ضمن الحرم. بدأ الرب مباشرة بأن حدد «وتغشيه بذهب

نقي، من داخل ومن خارج تغشيه، وتضع عليه إكليلاً من ذهب حواليه». كانت تلك مجرد بداية: فقد أمر الرب أن يكسو الذهبُ الخالص حتى الأثاث والقطع المثبتة والعناصر الزخرفية كتماثيل الملائكة. وتضم التعليمات المذكورة بين الإصحاحين 25 ـ 28 من سفر الخروج، ما يقارب ثمانين مقطعاً تتعلق بالقياسات التفصيلية المضنية وبالتصاميم.

ويبدو أن اليهود بمجرد أن استقروا في أرض الميعاد، بدأوا بتجميع كميات كبيرة من الذهب الذي كانوا يحصلون عليه في معظم الأحيان من نهب القبائل التي كانوا يهزمونها في المعارك. فقد استولى موسى وقواته على ما يزيد عن ثلاثمائة باوند من الذهب من الميديانيين: «مجوهرات ذهبية وخلاخيل وأساور وخواتم وأقراط وأساور للأذرع»[5]. وكان الذهب يلمع على الجدران الداخلية لهيكل سليمان الكبير (الذي يشكل حائط المبكى الحالي في القدس جداره الغربي)، والذي كان يبلغ طوله 135 قدماً، وعرضه 35 قدماً وارتفاعه 50 قدماً، وكان مقسماً إلى ثلاث حجرات. وقد أغرم سليمان بإغراق ممتلكاته الخاصة بالذهب: كانت دروعه مصنوعة من الذهب، كما كان عرشه العاجي مطعماً بالذهب، وكان يرشف الشراب من آنية ذهبية[6]. وعندما جاءت ملكة سبأ لتزور سليمان، جلبت معها كمية من الذهب (كمن يحضر فحماً إلى مدينة نيو كاسل) قدرت بثلاثة أطنان ـ أي ما يساوي أكثر من 20 مليون دولار بالأسعار الحالية[7].

اختفى الحرم المقدس وتابوت العهد اللذين بناهما موسى بحسب المواصفات المفصلة التي وضعها الرب، كما طُمست آثار هيكل سليمان الضخم المكسو بالذهب. ولكن في سنة 532 ميلادية، وبعد أن عمل عشرة آلاف رجل لمدة ست سنوات واستخدموا ما يزيد على اثني عشر طناً متريا من الذهب لبناء كنيسة القديسة صوفيا في القسطنطينية، كان بإمكان الامبراطور البيزنطي جوستنيان ـ الذي أشرف على العملية بكاملها ـ أن يصرح قائلاً: «لقد

تفوقت عليك يا سليمان»[8] كان جوستنيان ضليعاً في أساليب استخدام الذهب، فقد ورث 320,000 باوناً من الذهب استخدمها بأكملها، ثم فرض ضرائب على رعاياه لدفع نفقات جيوش المرتزقة ولتمويل الأعمال العامة، وأخيراً، وهو الأهم، لإرضاء أعدائه وثنيهم عن غزو المناطق الخاضعة له. إن استخدام الذهب للدلالة على قوة الكنيسة قد تكرر في الزخارف والفسيفساء الذهبية البراقة في كل أنحاء إيطاليا وإسبانيا، وحتى في السهوب الموحشة في روسيا.

لم يكن سليمان، ولا حتى يهوه نفسه، أول من استخدم الذهب للإيحاء بالمهابة. فقد كان قدماء المصريين هم المثل الذي سارت على هداه سائر الأديان الأخرى فيما بعد. كان الأمر بسيطاً بالنسبة لليهود الذين كانوا يؤمنون بإله واحد بالمقارنة مع المصريين الذين كان لديهم ألفا إله يجب القيام بواجباتهم، وكان للعديد من هؤلاء علاقة ما بإله الشمس ذي القدرة الشاملة. ومن أجل إقناع الجميع بمدى قوة ومعرفة ألفي إله يتطلب الأمر الكثير من الذهب. وقد واجه المسيحيون بدورهم مشاكل مماثلة، فهم لديهم إله واحد فقط للعبادة، ولكن لديهم أيضاً عدة آلاف من القديسين يجب التوجه بالصلاة إليهم.

كان استخدام الذهب في مصر امتيازاً يقتصر على الملوك، ولم يكن متوافراً لأحد ما عدا الفراعنة، وقد يسَّرت لهم تلك القيود انتحال أدوار مشابهة للآلهة وإضفاء المصداقية على شخصيتهم المقدسة عن طريق التحلي بالمادة التي كانت تزين آلهتهم. وكانت صناعة المجوهرات الذهبية في مصر فناً رفيعاً، حيث أُغدقت بسخاء على الملوك، الأحياء منهم والأموات.

وهناك مثال مثير للإعجاب عن استخدام الذهب لإظهار القوة قدمته امرأة من الفراعنة، كانت امرأة فاتنة وصفها عالم الآثار المصرية جيمس بريستد بقوله: «أول سيدة عظيمة في العالم» كانت حتشبسوت ابنة تحتمس الأول الذي كان أول فرعون دفن في وادي الملوك في طيبة سنة 1482 ق.م تقريباً. بعد

استيلاء حتشبسوت على السلطة من ابن أخيها وابن زوجها حوالي سنة 1470ق.م. تربعت على العرش حتى وفاتها حوالى سنة 1458ق.م. وكانت تُعرف بثمانين لقباً تقريباً، بما في ذلك ابن الشمس وحورس الذهبي (إله النور المصري). ورغم أنها قد رفضت أن تضيف إلى ألقابها اللقب الملكي التقليدي «الثور القوي» إلا أنها كانت تُصوَّر في معظم الأعمال الفنية المعاصرة لها بصورة رجل[9].

كانت حتشبسوت امرأة مثيرة للإعجاب بكل المقاييس. فقد عملت على تعزيز حركة التجارة بين مصر وكل من فلسطين وسوريا وكريت، وكانت هذه الحركة قد ضعفت خلال السنوات المائة والخمسين السابقة عندما كانت مصر محتلة من قبل الغزاة الآسيويين المعروفين باسم الهكسوس. ولم يتوقف التنقيب عن الذهب طوال فترة حكمها، حيث أخذت أعمال التنقيب تتجه أبعد فأبعد نحو الجنوب. ويمكن القول إنها قد وصلت إلى زيمبابوي الحالية.

كان ولع حتشبسوت بالذَّهب كبيراً، فقد أحبت تشييد الأبنية لدرجة تجعل لويس الرابع عشر وقصره الفيرساي يشعران بالخزي أمامها. كما كانت تحب أن تطلي وجهها بمزيج من تبر الذَّهب والفضة. وعندما قرَّرت إنشاء نصب ضخم لآمون راع، إلة طيبة الرئيسي، كان تصميمها الأصلي يتضمن عمودين من الذَّهب بطول مائة قدم تمكن رؤيتهما فوق جدران أبنية الكرنك، التي تغطي مساحة أكبر من مساحة الفاتيكان. وبعد أن أقنعها مستشارها بأن تكون أكثر اقتصاداً، بنت العمودين من الغرانيت وغطَّت القمتين فقط بالذَّهب. ولكن حتى ذلك كان يتطلب كميات كبيرة منه. وعندما انتهى العمل، قالت: «إن ارتفاعهما يخترق السماء... عندما تشرق الشمس بينهما، يغمر النور الأرضيْن... أنتم يا من سترون هذين النصبين بعد سنوات طويلة ستقولون: لا نعرف كيف أمكن لهم أن يصنعوا جبلين كاملين من الذَّهب»[10].

كان أَكثر الذَّهب في زمن العصور التوراتية ومصر القديمة منذ أربعة آلاف سنة تقريباً قبل الميلاد، يأتي من الأراضي الوعرة الجرداء في جنوب مصر والنوبة، وكان المصريون يسمون الذهب nub. وقد استمرت النوبة في تزويد العالم الغربي بالذَّهب حتى القرن السادس عشر. واستناداً لأحد المصادر، فقد كان إِنتاج المناجم النوبية «يتجاوز إِلى حد كبير الكمية المستخرجة من كل مناجم العالم المعروف في العصور التي تلت، وحتى اكتشاف أمريكا»[11].

وكان المصريون قد طوَّروا تلك المناجم من خنادق قليلة الغور، وبمرور الوقت قاموا بحفر آبار عميقة معقدة في الهضاب. وكانت المعاناة البشرية في الداخل تزداد بازدياد عمق المنجم. ويقدِّم لنا ديودوروس، وهو رجل إِغريقي زار مصر خلال الفترة التي كان فيها يوليوس قيصر يحكم روما، يقدِّم أفضل وصف للفظائع التي كان يعانيها العمَّال في تلك المناجم. كان الهواء داخل سراديب المنجم نتناً، كما كانت الشموع النحيلة، والتي تكاد لا تضيء شيئاً في تلك العتمة الرهيبة، تستنفد الهواء باستمرار وكانت الحرارة لاهبة، وكثيراً ما كانت الأَرض تنهار إِضافة للمياه الجوفية التي كانت مصدر خطر دائم. أمَّا النَّار التي كانت تستخدم لشق الكوارتز في الصخر، فقد كانت تُطلق أبخرة الزرنيخ التي أدَّت إِلى حالات موت تعقب معاناة أوجاع فظيعة بين العديد من الأشخاص الذين كانوا يستنشقون تلك الأبخرة. وكان على العبيد أن يعملوا مستلقين على ظهورهم أَو جنبهم حتى الموت، هذا إِذا لم يُسحقوا تحت الصخور المتهاوية قبل أن يلفظوا أنفاسهم الأخيرة تحت وطأة الإِرهاق[12].

لا عجب إِذاً أن تكون العبودية واسعة الانتشار، وأن تكون الحروب مهمَّة، فقد كانت الانتصارات العسكرية تجلب أعداداً جديدة من العبيد للعمل في المناجم. ويقول ديودوروس إِن ملوك مصر لم يقتصروا على استعباد المجرمين الخطرين أَو أسرى الحرب، لكنهم استعبدوا حتى «أنسباءهم وأقاربهم» أيضاً، رجالاً ونساء وأطفالاً، تحت ضرب السياط ودون مأوى أَو رعاية مهما كان نوعها[13]. وبأسلوب يدل على الحذق، كان العبيد يعملون

تحت حراسة مرتزقة جرى استحضارهم من أُمم مختلفة. فنظراً لعدم وجود من يتكلم لغة العبيد من بين هؤلاء المرتزقة، لم تكن هناك ثمة فرصة أمام العبيد لرشوة الحرس أَو للتآمر معهم بغية الهروب[14].

كان استخدام العمال هو الأسلوب السائد في التعدين حتى القرن العشرين، ما عدا تلك العملية التي ابتكرها الرومان في إسبانيا التي كانت هضابها المليئة بالذَّهب تشكِّل عماد الاقتصاد الروماني. كان الرومان، في الأصل، يستخدمون العمال للحفر حتى عمق يصل إِلى 650 قدماً وذلك لاستخراج الذَّهب الخام من الريف الإِسباني، لكنهم ووفق طريقة جديدة تُدعى الضرب الهيدروليكي Hydraulicking، قاموا باستخدام دفق قوي من الماء لكسر الصخر وكشف التراب الحاوي على الذَّهب. والمياه كانت تأتي من خزانات ضخمة على ارتفاع قد يصل إِلى أربعمائة وحتى ثمانمائة قدم فوق الموقع. ورغم أن الطريقة كانت فعَّالة ومثمرة لدرجة بالغة الروعة، إِلاَّ أنَّها أدَّت إِلى جرف جبال بأكملها وتخريب المزارع وملء العديد من الأنهار والمرافىء بالطمي[15].

وكانت طريقة الضرب الهيدروليكي هذه تُستخدم أيضاً في بقية أنحاء أوروبا ولكن بأسلوب متفاوت، لكن أبرز عودة لاستخدامها كانت في كاليفورنيا سنة 1852، في ذروة فورة الذَّهب. وقد تم تقليد الأسلوب الروماني بدقة في منطقة ساكرامنتو، حيث كانت المياه تحت ضغط يصل إِلى ثلاثين ألف غالون في الدقيقة تندفع بعنف إِلى الجبال ومنحدرات الهضاب. الدمار الذي لحق بالبيئة كان هائلاً. فقد اختفت غابات ومزارع خلال وقت قصير، ووصل حطام الصخور إِلى خليج سان فرانسيسكو مخلفاً وراءه أرضاً تكسوها أكوام الصخور ومنحدرات الجبال الجرداء. ورغم ذلك، بقيت طريقة الضرب الهيدروليكي هي الأسلوب الرئيسي لاستخراج الذَّهب في كاليفورنيا حتى سنة 1884، حين استطاع المواطنون الغاضبون منعها بقوة القانون.

وفي وقتنا الحالي وفي مناجم الذَّهب الضخمة في جنوب أفريقيا، يصل عمق بئر المنجم إلى اثني عشر ألف قدم كما تصل درجة الحرارة إلى 130° ف. ويصف أحدهم الوضع قائلاً: لإنتاج أونصة واحدة من الذَّهب الصافي يتطلب الأمر ثمانية وثلاثين رجلاً وساعة، و1400 غالون من الماء وطاقة كهربائية تكفي لإدارة بيت ضخم لمدة عشرة أيام، ومن 282 وحتى 565 قدم مكعب من الهواء المضغوط، وكميات من المواد الكيميائية تتضمَّن السيانيد والأحماض والرصاص والبوراكس والجير. «إن القوَّة العاملة المستخدمة في مناجم جنوب إفريقيا تتجاوز أربعة آلاف رجل، 90 بالمائة من هؤلاء هم من السود»[16].

لقد صاغ ملك إسبانيا فرديناند عبارة خالدة سنة 1511، إذ قال: «إحصل على الذَّهب. إن أمكن، بشكل إنساني، ولكن بأي ثمن ـ إحصل على الذَّهب»[17].

ليس كل الذَّهب بحاجة لأن يُستخرج من المناجم. إذ إنَّه عندما ينجرف مع الجداول الجبلية، يستطيع المنقِّب الخوض في الجدول وغربلة شذرات الذَّهب الخام التي انفصلت عن منحدرات الجبال. وقديماً كان يتم جمع الذَّهب بهذه الطريقة في آسيا الصغرى، حيث ظهرت العملة الذهبية لأول مرة بشكل رسمي. وبعد 3500 سنة تقريباً، بدأت موجة فورة الذَّهب في كاليفورنيا في القرن التاسع عشر على ضفاف نهر ساكرامنتو، عندما اندفع الباحثون عن الذَّهب إلى النهر بمعداتهم البدائية (لغسل) الذَّهب من التراب والحصى في المياه المتدفقة.

كانوا يطبِّقون أسلوباً يعود تاريخه إلى الإغريق القدماء، الذين كانوا يستخدمون جلود الخراف الصوفية لغسل التراب والحصى لاستخراج الذهب

من الأنهار ـ وكان الصوف ذو الجعدات الكثَّة على جلد الخراف خير وسيلة لاحتجاز شذرات الذَّهب من المياه التي كانت تتدفق مندفعة على منحدرات الجبال. إن ذكر الجزّة والذَّهب معاً يستحضر إلى الذهن مباشرة جيسون والجزَّة الذَّهبية، وهي أسطورة تستحق منا استطراداً موجزاً نظراً لمغزاها الأخلاقي[18].

كان فرايكسوس، وهو ابن ملك بويوتيا في شرق اليونان، يتعرَّض لسوء المعاملة على يد زوجة أبيه، ولهذا دبرت والدته أمر هروبه مع شقيقته على ظهر كبش مجنح جزته من الذَّهب الخالص، وهو هدية سخية كانت تلقتها من هرمز (لقاء خدمات لم تُذكر بالتحديد). ولم يكن بالإمكان أن تسير تلك الرحلة دون مصاعب، لأن الجزَّة الذَّهبية لا بد وأنَّها كانت تثقل حتى على كبش مهدى من هرمز. ويبدو أن شقيقة فرايكسوس أصيبت بغثيان الطيران، ونظراً لعدم توفّر وسائل الراحة الموجودة في الطائرة الحديثة، شعرت بالدوار ووقعت عن الكبش لتسقط في البحر، وقد سميت البقعة التي سقطت فيها باسمها، هيليسبونت.

أَمَّا فرايكسوس فقد واصل الطيران. وبعد رحلة قطع خلالها ما يزيد على الألف ميل، وصل إلى كولتشيس على أقصى الشاطىء الشرقي للبحر الأسود. ولسعادته بالوصول سالماً على قيد الحياة، قدَّم الكبش كأضحية لزيوس وأهدى الجزة الذَّهبية لملك تلك الأرض، آيتيس. سُرّ آيتيس كثيراً لأن عرَّافاً كان قد أخبره أن بقاءه حياً يتوقف على امتلاكه لتلك الجزَّة. لذلك، قام بتثبيت الجزة الذَّهبية بالمسامير إلى شجرة في بستان مقدس ووضع تنيناً مفترساً ضخماً ليقوم بحراستها.

وفي تلك الأثناء، وفي شمال بلاد اليونان، قرَّر ملك يُدعى بيلياس أنه من الأفضل التخلص من ابن شقيقه الوسيم والمحبوب جيسون، الذي كان يحاول الدفاع عن مطالبة عائلته بحقها في العرش. وقال بيلياس لجيسون أن بإمكانه الجلوس على العرش إذا قام أولاً بإنجاز عمل «يليق بعمرك الفتيّ ولا أستطيع أنا إنجازه نظراً لسنّي... أعدْ جزة الكبش الذَّهبي... وعندما تعود

بتلك الغنيمة الرائعة، ستكون المملكة والصولجان ملك يديك»[19]. لم يكن بيلياس ليحلم بأن ينجح جيسون ويعود يوماً ما بغنيمته الرائعة، بل على العكس، كان مقتنعاً بأن جيسون سيهلك في الطريق، أَو على الأقل، بين أنياب التنين الذي يحرس الجزَّة.

استطاع جيسون الحصول على الجزَّة الذَّهبية بمساعدة بحارة سفينته آرغو، ولكن بعد سلسلة من المغامرات المضنية التي تقشعر لها الأبدان. ولولا مساعدة إِبنة آيتيس ميديا، التي كانت تتمتَّع بقوى سحرية، لكان الفشل حليفه، فقد وقعت ميديا صريعة سهم ايروس وأحبت جيسون بجنون واستخدمت كل ما لديها من عزم وتصميم للفوز بقلبه. واستطاعت إِغواءه لدرجة أَنَّه عرض عليها أن يصحبها معه عندما يعود إِلى اليونان بشرط مساعدته في الحصول على الجزَّة الذهبية. ورغم كل الحب الذي كانت تكنّه له، إِلاَّ أن ميديا لم تكن راغبة في الاستسلام لما يمكن أن يكون خديعة لإِغوائها. وقالت له: «أيها الغريب، أَقسمْ بآلهتك وفي حضرة أصدقائك بأنك لن تجللني بالعار عندما أكون وحيدة وغريبة في بلدك»[20]. وأقسم جيسون بأن يجعل منها «زوجته الشرعية» بمجرد وصوله إِلى اليونان. وبما أن قَسَماً كهذا كان يعتبر ضمانة يمكن الوثوق بها كالعقود المكتوبة في عصرنا الحالي، فقد وفت ميديا بما كان يترتب عليها بأن غنت للتنين حتى غلبه النعاس بينما كان جيسون يأخذ الجزَّة الذَّهبية من على الشجرة.

لم تنته القصة نهاية سعيدة، فلم يكن بإِمكان جيسون تغيير طبيعته الوصولية. فقد كان مصمّماً منذ البداية، على أن يصبح ملكاً لبلاده، وقد خاطر بحياته وبحياة أصدقائه بحثاً عن جلد الخروف المكسو بالذَّهب. واستغل ابنة ملك لينجب منها أطفالاً ووعدها بالزواج. وعندما عاد إِلى اليونان ووجد أَنَّه لا يستطيع ارتقاء العرش هرب مع ميديا إِلى كورينث. وشرع هناك في التقرّب من ابنة الملك كريون، لكنه لم يخبر ميديا عما ينويه إِلاَّ بعد أن وافق الملك على

تزويجه من ابنته. وعندما ذكرته ميديا، والأسى يعتصر فؤادها، بقسمه المقدَّس في كولشيس، برر جيسون فعلته بقوله أن وضع أولادهما سيكون أفضل لأن عروسه الجديدة كانت تتمتّع بصلات اجتماعية وسياسية في كورينث أفضل مما تتمتّع به ميديا. وكان العزاء الوحيد الذي قدَّمه لها هو بعض الذَّهب والطلب من أصدقائه أن يحسنوا وفادتها.

صمَّمت ميديا على الانتقام. وفي لفتة بارعة جديرة بالمناسبة، حاكت ثوباً بديعاً مصنوعاً من قماش ذهبي أشبعته سماً، وقدَّمته هدية للعروس المرتقبة. فرحت الشابة المسكينة بالثوب الرائع ووضعت القماش البرَّاق على جسدها، ثم جدلت الإكليل الذَّهبي على شعرها لتلاقي ميتة شنيعة. وأتمت ميديا انتقامها بأن قتلت أبناءها لتهرب بعد ذلك طائرة في عربة يجرها تنين حصلت عليها عن طريق السحر. أَمَّا جيسون، فقد ألقى بنفسه فوق سيفه ومات أمام عتبة داره.

لقد وعد ذهبُ جزَّة آيتيس جيسون بالقوة. وقد حصل جيسون عن طريق هذه القوة على أميرة وعدته بالعرش. لكن الذَّهب، في النهاية، كان هو الذي قضى على عروسه وعلى مستقبله.

2

أمنية ميداس
ومخلوقات الصدفة المحضة

رغم أن التيجان الذَّهبية التي يعتمرها الملوك في المناسبات الرسمية قد تُثقل رؤوسهم بأوزانها، إلا أَنَّه ما من ملك اختار الزنك أَو البلاستيك بدلاً عنها. أولع الحكام على مدى القرون بدمغ صورهم على العملات الذَّهبية التي كان يجري تداولها داخل ممالكهم وخارجها. وقد بدأ هذا التوتر بين الذَّهب كوسيلة للزينة والذَّهب كنقد مع بداية التاريخ واستمر حتى وقتنا الحالي. إن التألّق الذي لا يخبو للذهب، بالإضافة إلى ندرته، يوحيان بقيمة استثنائية جعلت مساره من العجل الذَّهبي إلى التمثال المكسو بالذَّهب، إلى الجزة الذَّهبية، وصولاً إلى استخدامه كنقد، أمراً محتوماً. إن تأثير هذه العملة يسير في اتجاهين: فالقدرة الشرائية الكبيرة للذهب تزيد من التألق الذي نراه لدى النظر إلى المجوهرات الذَّهبية أَو إلى القبة المكسوة بالذَّهب على مبنى مجلس النوَّاب في إحدى الولايات.

يتحدَّث هذا الفصل عن طبيعة المال وكيف برز النقد الذَّهبي إلى الوجود. وسنرى كيف أن علاقة الذَّهب بالقوة والسحر جعلته يرتبط بالمجال

الواسع للوظائف المالية، تلك الوظائف التي تنشأ لدى ازدهار التجارة والأعمال. إن المال يخدم الثقافات ويعكس قيمها الأساسية، وقد يفسِّر ذلك على أفضل وجه قدم استعمال الذَّهب كشكل من أشكال المال. ولا شك بأن الذَّهب قد لعب أهم دور له بشكل مال ضمن تلك الثقافات التي تولي الأعمال والمبادلات اعتباراً كبيراً.

إن القيمة وحدها لا تكفي لجعل المادة جديرة بالقيام بدور المال. فهناك الكثير من المواد التي تتمتّع بالقيمة لكنَّها لا تقوم بدور المال. بل إن أكثر أشكال المال فعالية نشأت عن مواد كانت غير ذات قيمة، كالورق والصور التي تظهر على شاشة الكمبيوتر.

قامت الماشية والعبيد، قديماً في بريطانيا، بدور المال. وكان يجري تحديد قيمتها بالقانون ـ رغم أن الكنيسة، لشدة رغبتها في القضاء على العبودية، كانت ترفض قبول العبيد ككفَّارة عن الآثام[1]. وفي القرون الوسطى شاع استخدام الفلفل. وفي بعض المناطق استمر تجميع الماشية كثروة لا كمصدر للغذاء حتى وقتنا الراهن، وقد أدَّى ذلك إلى تدهور بيئي خطير في بعض أجزاء إفريقيا، حيث انخفضت أعداد الخراف والماعز بما يزيد عن 66 مليون رأس بين سنتي 1955 ـ 1976[2].

ولكن تلك المعاملات كانت حالة نادرة. أما في وقتنا الحاضر، لم يستطع أي شيء ذي فائدة أن يقوم بوظيفة المال لفترة طويلة. فمثلاً، السجائر التي كانت تقبل كعملة في ألمانيا في الأيام التي تلت الحرب العالمية الثانية، تلاشت دخاناً في نهاية الأمر. وعلى النقيض من ذلك نرى أن الذَّهب كان دائماً عديم النفع في معظم الأغراض العملية التي تستدعي استخدام معدن، لأنَّه

شديد الليونة. كما أن الذَّهب الذي لا يتوفر منه سوى 125,000 طن، يعتبر شديد الندرة بحيث لا يمكن استخدامه في الكثير من الأمور.

إلاَّ أن الذَّهب يتمتَّع بمزايا واضحة عندما يكون مالاً بالمقارنة مع الأنواع الأخرى من المواد عديمة النفع التي استخدمها الناس لهذا الغرض. فعلى عكس الصَدَفة المسماة كوري، التي اعتُبرت ولعدة قرون الشكل الرئيسي للمال في بعض أجزاء من آسيا، نلاحظ أن الذَّهب متين ولا ينكسر بسهولة. فكل قطعة من الذَّهب، صغيرة كانت أم كبيرة، يمكن التعرّف عليها بسرعة وفي كل مكان على أنَّها تختزن قيمة عالية. وبالإضافة لما سبق فإن كل قطعة من الذَّهب تقدَّر قيمتها حسب وزنها ونقائها، وهي خاصيات لا تطبق بشكل ملائم على الماشية.

وإذا نظرنا من زاوية عدم النفع، فإننا نرى أن الصور التي تظهر على شاشة الكمبيوتر، والتي تختزن القدر الأعظم من المال في عالمنا المعاصر، هي أفضل شكل للنقود ـ فنحن لا نستخدمها لأي غرض آخر، ويمكن التعرّف عليها بسرعة على أنَّها مال، وهي تزن أقل من الذَّهب، بل ومن الورق، يمكن تحويلها بسهولة وتفكيكها بيسر إلى أي مقدار نختاره اعتباراً من بنس واحد وحتى تريليونات الدولارات أَو حتى أَكثر، ويمكن لها أن تدوم بقدر ما نرغب وهي تتمتَّع بنوع من السحر الذي يجبرنا على احترامها.

لكن الذَّهب يستمر كمعيار للقيمة. فمن القاعدة الذَّهبية وحتى ذهب الأولمبياد، ظل الذَّهب يوحي باحترام أَكثر مما توحي به أية مادة أخرى في التاريخ.

إلاَّ أنَّه يجب علينا التروّي قليلاً قبل أن يملأنا الإعجاب بتطور عملتنا المعاصرة، وقبل أن نسخر من العملات المستخدمة في مجتمعات نفترض أنَّها أكثر بدائية من مجتمعنا. لنأخذ مثلاً النظام المالي في جزيرة ياب الصغيرة في جزر كارولين، كما وصفه، وبشكل أخَّاذ، عالم أجناس بشرية أميركي اسمه ويليام هنري فيرنيس الثالث، الذي أمضى عدة شهور في ياب سنة 1903[3].

يقول فيرنيس: «في بلد ينمو فيه الطعام والشراب والثياب الجاهزة على الأشجار حيث يمكن الحصول عليها عن طريق جمعها، يصعب تصور رجل يغرق في الديون لتأمين تكاليف معيشته». ورغم ذلك يرغب الناس بالحصول على رمز ملموس للجهد الذي بذلوه، رمز يمكن جمعه بشكل ثروة.

كانت وسيلة المبادلات، أو بالأحرى مخزون القيمة، في جزيرة ياب في ذلك الوقت تدعى الفي fei. كان الفي يتألَّف من دواليب حجرية سميكة تتراوح أقطارها ما بين قطر صحن الفنجان وحتى قطر حجر رحى يبلغ اثني عشر قدماً. كانت الأحجار التي يصنع منها الفي تأتي من مقالع كلسية موجودة في جزيرة بابيل ثواب، إحدى جزر بيلاو الواقعة على بُعد أربعمائة ميل، وكانت قد جُلبت إلى ياب منذ وقت طويل، قطعة فقطعة، على متن زوارق خفيفة وأطواف خشبية، أحضرها بعض أهل البلاد المغامرين، وصفهم فيرنيس بقوله: «كان بإمكانهم الإقناع كأي كاتب سجل المراهنات ذلق اللسان».

كانت قطع الفي الأصغر حجماً والتي يمكن حملها والتنقل بها تقوم بدور وسيلة المبادلات كما كان يجري تداولها لدفع قيمة السمك أو الماشية. أمَّا القطع الأكبر من الفي فكان لها شأن آخر. كان السكان يقومون بإحداث ثقوب في مركز تلك القطع لتسهيل تحريكها من مكان لآخر، ولكن الغالبية العظمى من تلك الأحجار الضخمة كانت ثقيلة الوزن بحيث كانت تبقى دائماً في مكانها دون حراك. وفي المناسبات النادرة التي كانت تجري فيها صفقة كبيرة، كانت

العملية تتم عن طريق إقرار بسيط بتغير الملكية بينما تقبع «القطعة النقدية» في المكان الذي كانت فيه بالأصل.

كانت العائلة الأكثر ثراء ضمن تلك الجماعة تمتلك فيلاً ضخماً لا يستطيع أحد رؤيته ولم يقدّر لأحد أن يراه. فحسب رواية تلك العائلة، كان الفي الخاص بها يرقد في البحر. فقبل عدة أجيال، وبينما كان أحد أجداد العائلة يقطر الفي على طوف خشبي مربوط إلى قاربه، هبَّت عاصفة هوجاء. وبخلاف بطل قصة راسكين، قرَّر ذلك الرجل أن الحياة تأتي في المرتبة الأولى قبل المال، قطع الحبل الذي كان يربط الطوف وأخذ يرقب الحجر الضخم يغوص تحت الأمواج. نجا الرجل ليقص ما حدث معه وليصف للجميع الحجم الاستثنائي للحجر الذي فقده ونوعيته. لم يساور أحد الشك في صحة ما رواه الرجل. ويصف فيرنس الوضع قائلاً: «لا تزال القوَّة الشرائية لذلك الحجر سارية المفعول وكأنَّه يبدو واضحاً للعيان مستنداً إلى جدار مالكه».

ويمضي فيرنس ليخبرنا عما حدث عندما اشترت حكومة ألمانيا جزيرة ياب من إسبانيا سنة 1898 وأرادت تحويل الممرَّات الصخرية المرجانية في الجزيرة إلى طُرق تناسب وسائل النقل المعاصرة. لم يكن سكان الجزيرة راغبين في إضاعة وقتهم في عمل من هذا النوع، رغم الأوامر المتكرِّرة من الألمان بالشروع في العمل. قرَّر الألمان أخيراً فرض غرامة لا ترفع إلاَّ بعد انتهاء المهمَّة. قام المسؤول الألماني بجولة في الجزيرة، ووضع على قطع الفي الثمينة علامة بشكل صليب أسود تثبت حق الحكومة بتلك الأحجار. واستناداً لما قاله فيرنيس: «كان ذلك بمثابة السحر فقد انكب الناس، الذين لحقت بهم الفاقة بهذا الشكل المأساوي، على العمل وقاموا بإصلاح الطُّرق... حتى أصبحت كممرّات الحدائق». بعد ذلك قامت الحكومة بإزالة العلامات، «وسرعان ما دُفعت الغرامة، واسترجع مالكو الفي السعداء ملكية رأس مالهم

لينعموا بالثراء». لو حدث ذلك في زمن آخر ومكان آخر، لأطلقنا على تلك الأحداث المتتالية تعبير فرض الضرائب والإنفاق الحكومي.

تذكّرني هذه القصة بتجربة شخصية حدثت في بدء حياتي المهنية سنة 1940 عندما ذهبت لأعمل في دائرة الأبحاث في بنك الاحتياطي الفيدرالي في نيويورك الواقع في قلب منطقة النشاط المالي للمدينة. وذات يوم دعاني رئيسي في العمل للهبوط إلى أقبية البنك الفائقة النظافة لرؤية الذَّهب المخزون فيها، كانت الأقبية على عمق خمسة طوابق تحت الأرض ـ أي أسفل الطبقة الصخرية، وذلك لثني اللصوص عن محاولة حفر أنفاق عبر الجدران الخارجية. دلفنا إلى الممر المؤدي إلى القبو عبر باب أسطواني ثقيل من الفولاذ المقاوم للصدأ والمحكم ضد تسرّب الهواء والماء، كان قفل الباب يُفتح أوتوماتيكياً في التاسعة صباحاً ويُغلق أوتوماتيكياً في الخامسة بعد الظهر. وفي الداخل، كانت هناك علبة طعام تُملأ يومياً بالشطائر الطازجة من أجل أي موظف منكود الحظ قد يُحتجز في الداخل عندما تغلق الأقفال الأوتوماتيكية آخر النهار. كان هناك ميزان للذهب، وكان حساساً بحيث أن حبة بازلاء كانت تجعله يتأرجح. فيما يتعلّق بالذَّهب حتى الغبار لا يخلو من القيمة.

كان الذَّهب موضوعاً في خُزن كبيرة، بعرض عشرة أقدام وارتفاع عشرة أقدام وعمق ثمانية عشر قدماً تقريباً. كانت الخُزن مليئة حتى السقف بأكوام عالية من كتل الذَّهب يعادل حجم الواحدة حجم ثلاثة ألواح كبيرة من الحلوى. كان وزن الكتلة ثلاثين باوناً ـ أي أربعمائة أونصة ترويسية ـ وكانت تساوي 14,000 دولار في تلك الأيام التي كان فيها سعر الذَّهب الرسمي 35 دولاراً للأونصة. وبحسب تلك الأَسعار، كانت قيمة الذَّهب المخزون هناك تعادل 2 بليون دولار، أي أن مجموع المال اللازم لشراء ما يعادل كامل إنتاج الولايات المتحدة من البضائع والخدمات خلال أربعة أيام في ذلك الوقت، كان مكدساً داخل مكان ضيق يقع على عمق خمسة طوابق تحت شوارع مدينة نيويورك التي

تضج بالحركة. كانت رؤية ما يزيد على مائة ألف سبيكة ذهبية، مكدَّسة فوق بعضها حتى السقف تتوهَّج بضوء المصابيح الكهربائية، منظراً لا يُنسى ويبعث على القشعريرة.

لم يكن ذلك الذَّهب ملكاً للولايات المتحدة الأمريكية، بل كان ملكاً لفرنسا وبريطانيا وسويسرا وعدة دول أخرى أيضاً. فمنذ مدة طويلة، اعتادت تلك الدول أن تخزن ممتلكاتها الرسمية من الذَّهب في بنك الاحتياطي الفيدرالي في نيويورك بهدف الحماية ولأن ذلك كان يلائمها. كانت كل سبيكة مودعة بهذا الأسلوب موسومة بختم مالكها أَو بعلامة مشابهة للتعريف بها. كانت هذه العملية تُعرف باسم وسم الذَّهب Gold earmarking وهو تعبير قد يعود أصله إِلى طريقة تحديد ملكية الحيوانات الداجنة. كان الوسم يسمح لكل دولة بتفادي كل دواعي الحرص والكلفة اللازمة لنقل الذَّهب في البر أَو عبر البحار لدى اضطرارها لنقل الذَّهب إِلى دولة أخرى. ففي حال تحتم على بريطانيا مثلاً دفع ذهب لفرنسا، لن يتطلب الأمر أَكثر من أن يقوم الحارس في مصرف الاحتياطي الفيدرالي بإِحضار عربة صغيرة ذات عجلات إِلى خزانة بريطانيا لينقل الذَّهب عليها إِلى خزانة فرنسا، ثم يغيِّر الوسم ويدوّن التغيير في سجلات مسك الدفاتر.

هذه التحركات التي لا تتجاوز بضعة أقدام بين خزانة وأُخرى، كثيراً ما تعكس تغييراً كبيراً في الثروة بين دولة وأخرى، تغييراً ذا تشعبات كبيرة تؤثِّر على الرفاه الاقتصادي. ورغم ذلك، فإِن مواطني كل دولة من تلك الدول لم يروا مطلقاً الذَّهب الذي تملكه حكومتهم(*). وفي حال غرق الذَّهب في نهر

(*) الوضع نفسه ينطبق على الأمريكيين، فأثناء قيامي بالأبحاث اللازمة لهذا الكتاب، حاولت الحصول على إذن بزيارة احتياطي الذهب الرسمي للولايات المتحدة في فورت نوكس، كنتاكي، لكنني أعلمت بأن المنشأة هي قاعدة عسكرية لا يسمح =

هدسون واستمر مسك الدفاتر على حاله، فإن النتائج الاقتصادية والمالية في كل دولة سيكون لها ذات التأثير البعيد تماماً كما لو أن الذَّهب قد تمّ نقله من خزانة لأخرى.

إن ذلك الإجراء يشبه إلى حد كبير ما كان يحدث على جزيرة ياب، حيث كانت ملكية الموجودات الثابتة تتغيَّر، وحيث حدثت تلك الفعاليات الاقتصادية الهائجة التي نتجت عن قيام الألمان بوضع علامة الصليب الأسود على الفي. وكما سنرى لاحقاً، فإن الشبه بين ما يدعى بالاستعمالات البدائية والاستعمالات المعاصرة للمال لم يتوقف عند شواطىء ياب وأقبية الاحتياطي الفيدرالي.

كانت قطع الفي في ياب هي مخزونات الثروة. والمخزون مستقر في المكان، لكن المال يتحرَّك، ينتقل من جيب لآخر مخزون الثروة هو كتلة، والمال هو مقياس الثروة.

إن ديمومة الذَّهب وكثافته وبريقه جعلت من الطبيعي أن يتم اختياره كمخزن للثروة، وذلك قبل وقت طويل من التفكير باستخدامه كنقد. وقد كان الذَّهب قديماً، مثل أي شيء قام بدور مخزون الثروة، كان نوعاً من الولع، أَو تعبيراً صارخاً عن القوَّة، أَو وسيلة لإثارة حسد الأعداء أَو الأَشخاص الأدنى مكانة، أَو أداة تملق لنيل الرضا ـ كما حدث عندما أغرقت ملكة سبأ الملك سليمان بالذَّهب.

= بدخول أي زائر إليها. تذكر وزارة الخزينة الأمريكية في تقاريرها بأننا نملك 11 بليون دولار ذهباً، ولكن إذا لم يستطع أحد الوصول إليه ورؤيته، فكيف نعرف بأنه موجود فعلاً. . . .

أمَّا الذَّهب المتوزع بشكل نقد، فإنَّه يتحوَّل إلى شيء مختلف، فالأَشخاص الذين يسعون لإنفاق النقود أَو إقراضها، يتوجب عليهم التمتع بالهدوء وتوخي الحذر والدقة، وامتلاك رؤية استراتيجية. وقبل أن يستخدم الذَّهب كنقد، بدل استخدامه كمخزون للثروة، كان على الناس أن يكونوا منتجين بشكل يكفي لأن يكون لديهم ما يقايضون به، وكان من الضروري أن يصبح السفر أمراً عادياً، كما كان يتعين تحديد نظام مقاييس يفي بذلك الغرض.

وباختصار، فإن النقد يظهر إلى الوجود حين يمارس النَّاس الأعمال. وفي جزيرة ياب لم تكن تجري صفقات عمل كثيرة، فقد كانت الحياة الاقتصادية هناك مشاعية بسيطة لا تجارية. نحن نحتاج إلى النقود عندما نريد استئجار شخص للعمل أَو تقديم النقود لشخص آخر لقاء شيء لا نملكه. نستخدم النقود عندما نريد شيئاً، نريده اليوم لا غداً. وعندها نستدين من شخص مستعد للانتظار قليلاً قبل أن ينفق نقوده. تنتقل النقود من الشاري إلى البائع، من الدائن إلى المدين، ومن المدين إلى الدائن. ونادراً ما يبقى المال في مكانه دون أن يتحرَّك لمدة طويلة. كما أن هناك على الدوام شخصاً آخر معنياً بالأمر.

عندما كان الذَّهب لا يمثِّل سوى مخزون للثروة، لم تكن المدفوعات بين طرف وآخر كثيرة الشيوع. كانت العملية بطيئة، كما كانت مضيعة للوقت. لم تكن هناك سبيكتان أَو خاتمان من الذَّهب في العصور القديمة يتمتعان بنفس الحجم أَو النقاء، تماماً كما هو شأن الماشية وقطع الأحجار في ياب. وكانت النتيجة أن كل صفقة كانت تتضمَّن اختباراً لنقاء الذَّهب إضافة لوضعه في الميزان من أجل تحديد وزنه بدقَّة.

كانت القطع النقدية ابتكاراً فذاً تمّ التوصّل إليه لتجنّب تلك العملية المملة، أي القيام بوزن الذَّهب والتحقّق من نقائه، لكن القطع النقدية لم تظهر إلاَّ حوالى سنة 700 ق. م، أي بعد ألفي سنة أَو أَكثر من استخدام الذَّهب في التعاملات المالية. ورغم أن القطع النقدية مكّنت الناس من تخطي عملية الوزن والانصراف مباشرة إلى العمل، إلاَّ أن تلك القطع لم تكن لتستطيع لعب ذلك الدور إذا لم تكن حقيقية ـ كان عليها أن تحمل بدقة نفس القيمة التي تمثّلها النقوش المكتوبة عليها وذلك كي تكون صالحة لذلك الغرض.

ومنذ البداية، كان من الضروري إيجاد طريقة مقبولة لدى الجميع لقياس نقاء الذَّهب وتحديد وزنه، وذلك قبل أن يصبح بالإمكان استخدام الذَّهب كنقد. لهذا فقد أصبح للذَّهب نظامه الخاص للقياس من أجل تحقيق الأهداف المطلوبة، رغم أن هناك أنواعاً معدّلة عن ذلك النظام تستخدم حالياً لقياس المعادن الثمينة الأخرى والأحجار النفيسة.

يحدَّد نقاء قطعة الذَّهب حسب عدد القراريط فيها. فمثلاً، الذَّهب من عيار 24 قيراطاً يعني ذهباً خالصاً مائة في المائة. ومن حيث الأساس، كان القيراط ـ وهي كلمة مشتقة من Keration باليونانية، وQirat بالعربية، وCarato بالإيطالية ـ مقياساً للوزن لا للنقاء، وذلك لسبب قد يبعث على الضحك. فالقيراط هو ثمر شجرة الخروب، وهو شجر من الفصيلة البقلية، وتزن البذرة الواحدة لهذه الثمرة خُمْس الغرام.

أَمَّا اليوم فقد استعيض عن القيراط بالقمحة grain كمقياس تقليدي للوزن. فحبات الشعير أَو القمح الواقعة في منتصف السنبلة تتمتع بذات الخاصيات الاستثنائية للقيراط ـ أي وزن قياسي بغض النظر عن حجم السنبلة. وتزن الأونصة الترويسية، والكلمة مشتقة من اسم المدينة الفرنسية Troy حيث استخدم ذلك المقياس للمرة الأولى، تزن 480 قمحة، واثنتا عشرة أونصة ترويسية تساوي باوناً واحداً، وهو يعادل باوند أفوار دوبوا

avoirdupois واحد الذي يساوي بدوره ست عشرة أونصة. وهكذا نرى أن الأونصات الترويسية أثقل من الأونصات التي نستخدمها في العادة. والعُرف المتبع حالياً هو التعبير عن وزن الذَّهب بالقمحات، والتعبير عن سعره بالأونصات الترويسية.

بدأ المصريون بطرح سبائك الذَّهب كنقد اعتباراً من سنة 4000 ق. م، حيث كان اسم الفرعون مينا يُدمغ على كل سبيكة، وحتى أنَّهم وضعوا نسبة محدّدة بين الذَّهب والفضة. وخلال معظم مراحل التاريخ، كانت قيمة الفضة تُقدَّر بما لا يزيد عن 5 ـ 8 بالمائة من قيمة الذَّهب ـ بنسب تتراوح ما بين 12 ـ 20 جزءاً من الفضة مقابل جزء واحد من الذَّهب ـ ولكن المصريين كانوا يضعون الفضة بنسبة تعادل عشرة بالمائة من الذَّهب بالنظر إِلى أنَّهم كانوا يفتقرون إِلى مخزون محلي من الفضة[4]. وقد يعود السبب إِلى أن الحسابات الرياضية كانت أسهل حسب تلك النسبة، لكننا لا نملك أي دليل على ذلك. وعلى أية حال، كانت تلك الخطوة بداية تعايش معقد وشائن وعنيف في بعض الأحيان، بين الذَّهب والفضة في أسواق النقد، وهي معركة كانت تلقي بظلالها على معظم مراحل تاريخ الذَّهب كنقد.

إِن تلك العملية المربكة أَي وزن الذَّهب والتحقق من نقائه لدى كل صفقة تبدو أَكثر إِزعاجاً مما كانت عليه في الواقع. فقد كانت تلك الحضارات القديمة تشبه جزيرة ياب أَكثر مما تشبه مجتمعاً صناعياً كمجتمعنا الحالي. فعندما تكون معظم الممتلكات عائدة للملك، وعندما تكون الفعالية الاقتصادية زراعية بشكل رئيسي، وعندما يكون الانتقال من مكان لآخر صعباً بحيث تعيش معظم المجتمعات في حالة من الاكتفاء الذاتي، تكون الصفقات التجارية الواسعة النطاق إِما نادرة أَو ذات أَهميَّة لا تُذكر.

ولدى تزايد الحاجة للنقود، ظهرت بسرعة فكرة استحداث ابتكار لجعل

النقود تؤدي وظيفتها بشكل أكثر كفاءة وسهولة. كان الآشوريون والبابليون أكثر نشاطاً في مجال التجارة من المصريين، ومن ثم قاموا بتطوير سبائك ذهبية أكثر دقة وانتظاماً. وكانوا يدمغون السبائك الثقيلة، التي يقرب وزنها من ثلاثين بوندا بنقوش تمثّل أسوداً، أمّا السبائك الأصغر التي تزن نصف ذلك الوزن، فكانوا يدمغونها بنقوش تمثّل البط. كانت نقوش الأسود والبط تساعد في الدلالة على القيمة، ولكن النّاس ظلّوا، وحتى سنة 600 ق. م تقريباً، يرغبون في وزن كل قطعة ذهب بدل قبول القيمة الإسمية لتلك النقوش. كما قامت شعوب ما بين النهرين بتجزئة نقدها الذهبي إلى فئات أصغر كانت تُعرف بالتالنت والمينا والشيكل، وسرعان ما أصبحت القطع من هذه الفئات شائعة في آسيا الصغرى والمدن والمستوطنات اليونانية المنتشرة في حوض البحر الأبيض المتوسط. وقد استمر بقاء الشيكل حتى اليوم في إسرائيل.

ولا شك بأن القيام بوزن المعادن الثمينة لدى كل صفقة، كان عملية مزعجة لكل الأطراف المعنية، ولكن تلك الترتيبات القديمة كانت تتمتّع بميزة كبيرة تلاشت بمجرد ظهور النقد. فعندما كانت النقود عبارة عن قطع معدنية مختلف الأوزان، لم تكن لها جنسية محددة، فحتى السبائك المصرية جرى تداولها على أساس وزنها، لا لأنها كانت تحمل اسم ملك فرعوني. في الإصحاح الثامن والثلاثين من سفر التكوين نقرأ بأن إخوة يوسف باعوه إلى غرباء من بلاد أخرى بمبلغ ثلاثين شيكلاً من الفضة، دون أية تساؤلات بشأن معدلات صرف الفضة أو قبولها في بلاد غريبة. وهكذا نرى أنّه في الوقت الذي كان فيه أجدادنا القدماء يسيرون شؤونهم بواسطة شكل واحد من النقد كان يقبل آنذاك في كل مكان، يحلم الخبراء المعاصرون ـ بعد أن ذاقوا طعم الخطيئة

الأولى للنقد الوطني ـ بعملة تسمو فوق الانتماء الوطني دون أن تكون لديهم أدنى فكرة عن كيفية تحقيق ذلك(*).

لقد تطور توالي الأحداث المملّة، التي نقلتنا من سبائك الذَّهب البدائية وحتى النظام النقدي المتكامل، من سلسلة من الأحداث الرومانسية المثيرة التي وقعت في الجزء الشرقي من آسيا الصغرى، أي تركيا اليوم. وتبدأ هذه القصة، وهي عبارة عن أسطورة في بعض أجزائها، في فريجيا Phrygia، وهي مملكة حملت عاصمتها الاسم نفسه وتقع على حافة جرف جبلي صغير يدعى باكتولوس. كان أول ملك لفريجيا، حوالى سنة 750 ق. م هو غورديوس، وكان رجلاً فقيراً لا يملك سوى ثورين. خلف غورديوس على العرش ابنه ميداس، بادئاً بذلك تقليداً غريباً في سلالة ملوك فريجيا الذين كانوا يسمون أنفسهم غورديوس وميداس على التوالي.

كان الملك ميداس الأول رجلاً فقيراً كأبيه، ولكن القصَّة تخبرنا بأنَّه كان رجلاً طيباً يحب إكرام المحيطين به رغم فقره. وقد تبين ذات مرة أن أحد الغرباء الذين استضافهم ميداس في منزله هو الأب الروحي لباخوس. تأثّر باخوس بحسن وفادة ميداس لوالده الروحي بحيث إنَّه أبدى استعداده لتحقيق أية رغبة يختارها الملك.

كان ذلك العرض المغري هو ما أوقع ميداس في المتاعب. إن أمنية ميداس في أن يتحوّل كل ما يلمسه إلى ذهب، تعطى عادة كمثال يوضح العواقب الوخيمة المترتبة على الإفراط في الجشع. فكما يقول المثل السائر: المال ليس كل شيء. ولكن علينا التروي قليلاً هنا قبل المضي بالافتراض أن المال كان هوساً لدى ميداس الذي ورث عن والده غورديوس ثورين لا أكثر،

(*) أدين بهذه الفكرة لمخطوط طريف ومليء بالأفكار، لم يجر طبعه، بقلم أندرو ميدوز، القيّم على قطع النقد اليونانية في المتحف البريطاني.

إذاً لا بد وأنّه كان رجلاً فقيراً، وخاصة بالنسبة لملك. وحيث إنَّه كان رجلاً طيباً فلماذا نفترض هنا أنَّه كان جشعاً؟ . . . إذ أن أمنيته قد تعكس رغبة ملحّة للتخلّص بسرعة من وضع الفقر الكئيب، أي اختياراً اتخذ دونما إدراك للعواقب.

لم يطل الأمر بميداس قبل أن يكتشف الخطأ الذي اقترفه. فعندما انقلب الطعام إلى ذهب وهو يهم بالأكل، ولدى تحوّل ابنته المحبوبة إلى تمثال ذهبي عندما عانقها، توسّل إلى باخوس أن يبطل مفعول الأمنية اللعينة. ولا شك بأن باخوس كان لا يزال يكن الاحترام لميداس، حيث استجاب فوراً بأن نصحه بالاستحمام في نهر باكتولوس. وتمضي الأسطورة لتقول بأن ميداس حوّل بذلك لمسته الذهبية إلى نهر باكتولوس، مما يفسِّر كيف أصبح ذلك النهر مصدراً غنياً للذهب بالنسبة للفريجيين وجيرانهم الليديين. وهكذا حصل ميداس في النهاية على الأفضل في كلا العَالميْن الممكنين ـ فالذهب في نهر باكتولوس جعل منه رجلاً غنياً، لكنه أصبح قادراً من جديد على أن يأكل ويلمس من يحبهم دون أن يحوِّل كل شيء وكل إنسان إلى ذهب خالص. إن الموقع الحقيقي لنهر باكتولوس غير معروف حالياً، لكن علماء الجغرافيا يعتقدون بأنَّه كان جدولاً يحمل الذَّهب مع الطمي من منحدرات جبل تمولوس في الأناضول.

وعندما احتل الرومان المنطقة، أي بعد خمسمائة سنة تقريباً، كان الجبل قد تآكل بفعل المياه المتدفقة، ولم يعد يعطي أي ذهب.

لم ينعم ميداس بالسعادة بقية حياته. فقد غزا السيميريون فريجيا، وهم قبيلة بدوية قوية جاءت من جنوب روسيا، وأطاحوا بميداس الذي انتحر بتناول السم هرباً من الجموع الهمجية التي كانت تطرق أبوابه. ولم تغب ذكرى ميداس، فقد بقيت عربته مقيدة إلى عمود بواسطة عقدة صعبة الحل في معبد غورديوم الرئيسي لمدة ثلاثمائة سنة. وقد تنبأ أحد العرافين بأن من يستطيع حل تلك العقدة سيصبح ملك آسيا، ولم تكن تلك العقدة سوى عقدة غوردون التي

قطعها الإسكندر المقدوني الشاب بسيفه سنة 334 ق. م وهو في طريقة لفتح البلاد الواقعة ما بين مصر والهند[5].

إن القسم الأعظم من المعلومات التاريخية الموثوقة المتعلقة بهذه المنطقة من آسيا الصغرى، وذلك مقارنة مع مزيج الحقائق والخرافات، وصلنا عن طريق هيرودوتس، وهو مؤرِّخ إغريقي عاش قبل خمسمائة سنة تقريباً من مولد المسيح. وقد حوى كتاب هيرودوتس «التاريخ» أول سرد نثري مطوّل في الحضارة الغربية، ووضع قانوناً صارماً اتبعه المؤرخون الذين جاؤوا من بعده. ومن خلال تلك الروايات، يبدو هيرودوتس على الدوام إنساناً دقيق الملاحظة، حكيماً يثير المتعة في النفس، شديد الاهتمام بالإشاعات ونقاط الضعف المميزة للشخصيات التي اختار أن يؤرخ لها.

يبدأ تاريخ هيرودوتس قبل حوالى سبعمائة سنة من ميلاد المسيح في ليديا، وهي منطقة شمال غرب فريجيا، كانت تمتد على القسم الأعظم من وسط آسيا الصغرى اعتباراً من بحر إيجة وصولاً إلى مئتي ميل تقريباً نحو الداخل[6]. كانت العاصمة ساردِيس تتربع ولحسن الحظ فوق مخزون كبير من الذَّهب المشوب بالطمي، وقد حُمل معظمه مع الجداول المتدفقة من الجبال لتصب في نهر باكتولوس ـ ويُفترض أن يعود الفضل هنا لميداس. كانت ليديا تقوم أيضاً باستخراج معدن يدعى الكتروم، ويسمى غالباً «بالذَّهب الأبيض»؛ ثلثاه من الذَّهب وثلثه من الفضة. والكلمة مشتقة من كلمة اليونانية elector التي تعني «ذا البريق» (الشمس في اليونانية تدعى Helio، كما في heliotrop) وهي الجذر الذي نشتق منه كلمة electric [كهربائي] المعاصرة. ونظراً لضخامة الثروة التي كان ينعم بها الليديون، فقد كانوا كثيراً ما ينغمسون في طقوس ماجنة

راقصة على شرف الملكة سيبيل، وهي ملكة الجبال وراعية الخامات النفيسة والمعادن[7].

واستناداً إلى أقوال هيرودوتس، فإن ملوك ليديا كانوا يرجعون بسلسلة نسبهم إلى هرقل، وقد تواصل حكمهم اثنا عشر جيلاً، أو 550 عاماً، كان ملكهم في ذلك الوقت يدعى غاندولز وكان مولعاً بزوجته الجميلة إضافة إلى ميله للتباهي. وفي أحد الأيام اختبأ مع حارسه غايجز وذلك ليتمكّن هذا الأخير من مراقبة السيدة وهي تخلع ملابسها ليظهر جسمها البديع. ودون أن يدري الرجلان، لاحظت الملكة ما حدث. وفي اليوم التالي، استدعت غايجز وأخبرته بأن أحد الشخصين يجب أن يموت، إما الشخص الذي خطط لهذا الانتهاك للخصوصية أو الشخص الذي شاهدها عارية بشكل غير شرعي. وتركت لغايجز أن يختار بين أن يسبغ الشرعية على ما حدث بأن يقتل ملكه ثم يتزوجها ويسيّر شؤون المملكة، أو أن تقتله هي على الفور. وقد كان خياراً من النوع الذي يوصف حالياً بأنّه لا يحتاج إلى ذكاء[8]. وهكذا بدأت سلالة حاكمة جديدة ذات اسم يصعب نطقه بسهولة وهو ميرمناداي.

ورغم أن الليديين شعروا بالغضب الشديد لمصرع ملكهم، إلاّ أن غايجز أقنعهم بالانتظار حتى يسمعوا قول عرافة دلفي بهذا الشأن. جاء قرار العرافة لصالح غايجز، وقد لا يكون الأمر محض صدفة نظراً للهدايا الذهبية والفضية التي أغدقها عليها بسخاء فيما بعد، وتضمنت ستة أوعية من الذّهب زنتها حوالى 1800 باوناً (ما يزيد على ستة ملايين دولار بالأسعار الحالية). ورغم ذلك فقد تنبأت العرافة بأن سلالة غايجز ستنتهي في الجيل الخامس، عندما يثأر أحفاد غراندولز أخيراً من سلالة ميرمناداي. ولم يلق غايجز والليديين بالاً ـ في ذلك الحين ـ إلى النبوءة.

حكم أول ثلاثة ملوك تحدروا من غايجز ـ وهم أراديس وسادياتس

وألياتس ـ ما مجموعه 118 سنةً، انفرد الياتس وحده بسبع وخمسين عاماً منها(*). وقد قضى معظم هؤلاء الملوك وقتهم في شن الحروب على جيرانهم في الجنوب والغرب سعياً وراء بسط نفوذهم على كامل آسيا الوسطى الغربية وصولاً إلى بحر إيجة، رغم أن أرديس (660 ـ 637 ق. م)، شأنه شأن ميداس، كان منهمكاً على الدوام بصد الغزاة السيميريين. وبخلاف معظم بناة الإمبراطوريات عبر التاريخ، كان الميرمناداي يحجمون في أغلب الحالات عن تخريب بيوت ومعابد الشعوب التي يهزمونها، كما كانت هذه الشعوب تتمتع بحكم ذاتي يدين بالولاء للميرمناداي. كان الملوك الليديون لا يريدون سوى إتاوات مالية ومؤن مضمونة من الغذاء والمواد الأخرى، فقد كانوا يعتقدون أن وضعهم ضمن إمبراطورية مسالمة هو أفضل منه بين شعوب تتوق للانتقام منهم.

وفي سنة 568 ق. م، اعتلى كرويسوس، ابن الياتس، العرش، وهو الحفيد الثالث لغايجز، وكان في الخامسة والثلاثين من العمر[9]. كان كرويسوس هذا رجلاً يتمنى معظم الناس أن يكونوا بمثل ثرائه، وهذا أمر لا بأس فيه، لكنه كان أيضاً يمثل الجيل الخامس من سلالة ميرمناداي، وهذا فأل سيء. وبغض النظر عن الكلام الذي يحتمل أكثر من تأويل والذي درجت عرافة دلفي على قوله في العادة، فقد ثبتت صحة توقع العرافة لغايجز بأن الجيل الخامس سيكون هو الجيل الأخير. ورغم ذلك فقد أكمل كرويسوس خلال فترة حكمه معظم الفتوحات التي كان أسلافه قد بدؤوها. ونجح في احتلال غرب تركيا بأكمله، بما في ذلك فريجيا، بل وعقد تحالفاً مع أهل إسبارطة في شبه جزيرة بيليبونسوس[10].

(*) للحصول على وصف أخاذ للهضاب الضخمة التي كانت مدفناً لألياتس، ويمكن أن تكون لغايجز أيضاً، انظر تاسيل Tassel، 1998.

ويذكر هيرودوتس بعض القصص المسلية حول كرويسوس. والقصة التي توضح الوضع أكثر من غيرها تتحدَّث عن زيارة قام بها صولون، وكان قد انتهى من كتابة مجموعة من القوانين لأهالي أثينا الذين وعدوه باحترامها لمدة عشر سنين. رحل صولون ليقضي هذه السنوات العشر متجولاً للسياحة في البلاد. وعندما وصل إلى ساردِيس، كان كرويسوس يتحرَّق شوقاً ليريه خزينته بما تحويه من ثروة ذهبية. وبعد أن أراه إيَّاها استدار إليه وسأله إن كان حتى تلك اللحظة قد رأى شخصاً خلال أسفاره البعيدة يمكن أن يعتبره «أوفر الناس حظاً». ذكر صولون بطلاً عظيماً من أبطال الحروب في أثينا واثنين من الرياضيين الحائزين على جوائز كثيرة. فقال كرويسوس مصعوقاً: «بالنسبة لك إذاً لا يعني الرخاء الذي نعيش فيه شيئاً، حتى إنك لا تضعنا على قدم المساواة مع مواطنين عاديين».

رد صولون بالإيجاب، ثم قال: «عندما تسألني عن شؤون البشر فإنك إنما تسأل شخصاً يدرك مدى غيرة الملك واستعداده لاستثارة الغضب. . . . يا عزيزي كرويسوس، إن البشر هم مخلوقات الصدفة المحضة». واعترف صولون أنَّه بإمكان الرجال الأثرياء إشباع رغباتهم وبأن لديهم من الموارد ما يستطيعون تحمل المحن به، لكنه أشار إلى أن الرجل المحظوظ لا يضطر للتفكير بالمحن: «فهو لا يعاني من أي أذى جسدي، وهو لا يمرض. . . . وله أبناء طيبون، وهو بالإضافة إلى ذلك يتمتع بوسامة الشكل»[11].

يخبرنا هيرودوتس أن الليديين «كانوا أول شعب ممن نعرف قام بسك النقد واستخدام القطع الذَّهبية والفضية، كما كانوا أول من عمل بتجارة التجزئة»[12]. وقد كان هناك سوق في ساردِيس يضم مجموعة من الحوانيت الصغيرة التي تعرض بضائع متنوعة من اللحوم والحبوب إلى المجوهرات

والآلات الموسيقيَّة. وكان هيرودوتس يستخدم تعبير Kapeloi، ومعناه حرفياً «التاجر» أو «البائع» ويعني في اللغة العامية اليونانية «الرجل ذو القبعة الكبيرة»، وفي اللغة المعاصرة يمكن أن يُفهم بمعنى «البائع المتجول»(*). كان الليديون لا يدّخرون وسعاً في تحويل كل ما يمكنهم تحويله إلى سلعة رائجة بحيث أنَّهم، كما يقول هيرودوتس: «كانوا يتبعون نفس عادات الإغريق، عدا الإتجار بأجساد الفتيات الصغيرات»[13]. وعندما أخذت النساء بجمع القطع النقدية، صار بإمكانهن ادخار المبالغ اللازمة للدوطات مما وفر لهن حرية، لم تكن معروفة قبلاً، في اختيار الأزواج.

لم تكن التجديدات التي أدخلها الليديون على تطور المال والتجارة مجرد مصادفة. فبالإضافة للموقع الذي كانت تشغله ساردیس، عاصمة الليديين، على ضفتي نهر باكتولوس، الذي كان ينساب حاملاً الذَّهب المترسب مع الطمي، كانت المدينة تتربع على الطريق العام الكبير الممتد من الشرق إلى الغرب واصلاً بحر إيجة بنهر الفرات والأراضي الآسيوية التي تليه، أي مسافة تبلغ تقريباً ألفاً وسبعمائة ميل[14]. كان من الطبيعي أَن تتطور التجارة والنشاط التجاري وكانت النتيجة أن برزت الحاجة إلى أوزان ومقاييس، والأهم من ذلك كله، الحاجة إلى وجود شكل ملائم من المال لتسيير الأعمال. وقد أدَّى المال بدوره إلى بروز الحاجة لوجود الصائغين والصرَّافين، ثم إلى المصرفيين في نهاية الأمر. تطورت ساردیس لتصبح مركزاً حضرياً رئيسياً يقطنه عدد كبير من العائلات الثرية التي كانت تتمتّع بأعلى درجات الرفاه.

وأحد الابتكارات العبقرية لليديين كان استعمال الحجر الأسود الذي كان متوفراً في بلادهم، وهو شبيه بحجر اليشب، وذلك لاختبار نقاء الكتل الذَّهبية

(*) هل يمكن اعتبار ذلك معادلاً لوصف نابوليون المفعم بالإزدراء للإنكليز بأنهم أُمَّة من أصحاب الحوانيت؟.

التي كانوا يتلقونها كمدفوعات في الصفقات التجارية. وقد أصبح هذا الحجر يُعرف باسم مِحَكّ الذَّهب، لأن الصائغين كانوا يحكّون به المصنوعات الذَّهبية ومن ثم يقارنون الخدش بمجموعة تتألَّف من 24 إبرة تضم نسباً مختلفة من الذَّهب والفضة، ومن الذَّهب والنحاس ومن المعادن الثلاثة. كانت الإبرة الرابعة والعشرون مصنوعة من الذَّهب الخالص، تماماً كما يعتبر الأربع والعشرين قيراطاً مقياس الذَّهب الخالص(*). وقد أدَّى ذلك إلى تطور نظام ناجح للنقد، لكننا لا نستطيع أن نقدِّر تماماً إنجاز الليديين، وإنجاز كرويسوس على وجه الخصوص، ما لم نعد في الزَّمن قليلاً إلى الوراء حوالى 150 سنةً.

في بداية القرن السابع ق. م كانت النقود الليدية تتألف من كتل بشكل حبة الفاصولياء، تدعى دامبس dumps وكانت ثقيلة لا يمكن تداولها بسهولة كما أنَّها لم تكن منتظمة من حيث الحجم أَو الوزن ولا تحمل ختماً يبين قيمتها(15).

وقد قام غايجز أول من حكم عائلة الميرمناداي، بإصلاح ثوري في ليديا عندما حظر الإصدارات الخاصة للنقد المعدني (وكان يُصنع بشكل رئيسي من الإلكتروم) وأسَّس احتكار الدولة لإصدار الدامبس. وقد استمر احتكار الدولة رسمياً إصدار النقد عبر التاريخ. فنقرأ مثلاً، في الفقرة الأولى، المقطع الثامن من دستور الولايات المتحدة: «للكونغرس الحق بسك قطع النقد، وتنظيم قيمته وقيمة النقد الأجنبي». وقد سيطرت مفاهيم التحكم بإصدار النقود ـ لاحظ إشارة الولايات المتحدة إلى قطع النقد ـ ما دامت قطعاً نقدية صلبة، لكن أَهميَّة تلك المفاهيم بدأت بالتناقص شيئاً فشيئاً مع دخول العصر الحديث(16). فقد أدَّى تطور وسائط ائتمان قابلة للتداول في أواخر العصور الوسطى وزيادة

(*) بعد قرن من الزمان، علق فيلسوف إغريقي يدعى شيلون قائلاً «يختبرالذهب بالمِحَك ويُختبر الرجال بالذهب». (كريمر، 1944 ص 178).

استخدام التزامات البنوك التجارية كنقد ـ أي ما يعادل الحساب الجاري في العصر الحديث ـ أدَّى إلى تجاوز احتكار الدولة إصدار النقد وتناقص أَهميَّة الذَّهب كوسيلة للدفع في الصفقات اليومية. وتغير الدور المُسنَد إلى الذَّهب تدريجياً ليتحوَّل إلى ما يشبه وسيلة لضبط النظام المالي وإلى دعم يقصد منه إرساء حدود حول إصدار كل أنواع النقد.

عندما اعتلى أرديس غايجز العرش سنة 660 ق. م، كان هو أيضاً مهتماً بإيجاد نظام مالي أَكثر كفاءة. فقد بدأ بدمغ كتل الإلكتروم بعلامات تضمن وزنها وقيمتها، وكانت هناك كتل مختلفة للشعوب المختلفة: فقد كان لليديا مجموعة خاصة بها، وللمدن البابلية إلى الشرق مجموعة مختلفة، ولمدن الساحل الأيوني إلى الغرب مجموعة أخرى[17]. ومع مرور الوقت، أصبحت الدامبس أَكثر انتظاماً في حجمها، ومرَّت خمسون سنةً تقريباً قبل أن تصبح الكتل والدامبس قطعاً نقدية يمكن تمييزها: مستديرة ومنتظمة وذات دمغة واضحة. ونقش على كل منها رأس أسد ـ وهو شعار السلالة التي بدأها غايجز. وانتشر هذا الابتكار بسرعة باتجاه الغرب إلى اليونان، وسرعان ما أصبح النقد هناك جزءاً لا يتجزأ من نظام تجارة أخذت تتطور بسرعة حول حوض البحر الأبيض المتوسط. وإذا كان الليديون هم أول من ابتكر قطع النقد واستعملها، فقد كان الإغريق هم أول من جعل من سك النقد شكلاً من أشكال الفن، وفيما يتعلَّق بالإغريق، كان الجمال هدفاً يسعون إليه لدى تصميم النقود مثلما كان هدفاً في كل شيء آخر يضفون عليه لمستهم السِّحريَّة.

قد لا تعدو هذه القصة أن تكون سرداً تقريبياً لما جرى فعلاً، لأنَّه ما من حدث في ذلك الزمن البعيد يمكن له أن يكون بمنأى عن الجدل. فهناك بعض الخبراء المعاصرين ممن يعتقدون أن سك النقد بشكل متطور كان قد بدأ في

ليديا قبل سنة 700 ق. م، وقد يكون قبل خمسين سنةً من ذلك التاريخ، رغم أن هيرودوتس قد حدَّد سنة 687 ق. م كتاريخ تقريبي في تقديره، ولكن في سنة 1950، كانت مجموعة من علماء الآثار تعمل في مدينة أفسوس الأيونية الكبيرة، عندما عثرت على مجموعة من قطع النقد الليدية مدفونة تحت أنقاض معبد أرتميس، الذي كان قد بُني سنة 600 ق. م. وقد كشف العلماء عن أكثر من ثلاثة آلاف قطعة تضمَّنت كتلاً دون أختام وأخرى مختومة، ومجموعة من القطع النقدية ضُرب عليها رأس الأسد، بالإضافة إلى مجموعة كبيرة أخرى من المجوهرات والتماثيل الصغيرة المصنوعة من الذَّهب والفضة. وقد ثبت بعد الفحص الدقيق أن أول قطع نقدية حقيقية تعود لسنة 635 ق. م، الأمر الذي يؤكد بدوره أن هيرودوتس كان مصيباً منذ البداية، ولم يكن من الواجب التشكيك بأقواله[18]. وهذا التاريخ يُرجع، بشكل تقريبي، بدء سك النقد إلى نهاية فترة حكم آرديس، ابن غايجز، أو إلى بداية فترة حكم ابنه، سادياتس.

أمَّا كرويسوس فقد أوصل الأمور إلى ذروتها. ومع أننا سنرى لاحقاً أنَّه شكَّل كارثة كمخطِّط عسكري، وبالتالي حقَّق نبوءة العرافة بشأن الحاكم الخامس من أسرة ميرمناداي، إلاَّ أنَّه كان رائداً مجدداً في قضايا المال وفي تقييمه للقوة الاقتصادية والعسكرية الكامنتين في المعادن النفيسة. فهو لم يكن يهزل مع صولون: كان على قناعة من أنَّه لا يمكن فصل المال عن السعادة.

كان والد كرويسوس أول شخص في تلك الأسرة يصدر قطعاً نقدية ذهبية، تطورت فيما بعد لتصبح مصدراً مربحاً في مجال الصادرات في ليديا، كما كانت تستخدم للدفع لقاء الكثير من الواردات، وهكذا استفاد مستوى الحياة العادي في ليديا من المزايا المترتبة على الاتجار بشيء لا نفع منه لقاء شيء مفيد. وبما أن كرويسوس أدرك قيمة قطع النقد الذَّهبية تلك في رخاء البلاد، فقد سحب من التداول جميع القطع النقدية المصنوعة من الإلكتروم وصهرها، ثم سك قطعاً نقدية حسب الأسلوب الجديد الذي يعتمد الذَّهب والفضة

الخالصين. وفي سنة 1964 استطاع علماء الآثار العثور على الأواني المقاومة للنار التي كان رجال كرويسوس يقومون فيها بتنقية الذَّهب من الشوائب وفصل الفضة عن الإلكتروم عن طريق تحمية المعادن بمزيج من الرصاص والملح ـ وهي طريقة لم تكتشف في الحفريات في أي مكان[19].

كان الختم على أحد وجهي قطع النقد التي أصدرها كرويسوس يمثِّل المنظر الأمامي لأسد وثور، كناية عن سلطة مدينة ساردِيس. أَمَّا الوجه الآخر فكان يحمل ثقوباً أَو أجزاء غائرة بشكل مربع أَو مستطيل لإظهار قيمة القطعة ـ وهي إشارة خاصة بتنقية العملات، تشير إلى أن القطع قد تم «دمغها». والأمر الأهم هو في كون كرويسوس قد جعل فئات قطعه النقدية وأوزانها تنطبق قدر الإمكان على أوزان القطع القديمة وفئاتها. كانت الفئة الرئيسية المعروفة من قِبل الجميع في تلك المنطقة من العالم، تدعى الدينار المديني stater، وقد قسمت إلى فئات أصغر بقيمة الثلث والسدس والجزء من الاثني عشر. وقد جرى سك القطع بعناية فائقة وذلك للحفاظ على انتظام حجمها ووزنها[20]. وكانت النتيجة هي تقبُّل تلك القطع النقدية فوراً في جميع أرجاء المملكة. كما أدَّى تقسيم الدينار إلى أجزاء بقيمة 1/ 12 إلى ظهور الأونصة الترويسية المؤلّفة من 24 قيراطاً من الذَّهب الخالص، وعاد هذا التقسيم إلى الظهور مجدداً في الشلن الإنكليزي الذي كان يتألَّف من اثني عشر بنساً، وذلك حتى تمّ التحوّل إلى النظام العشري في وقت ليس بالبعيد نسبياً.

وخلال تنفيذ كرويسوس لعملية إصلاحاته، بدأ نظاماً جديداً وهو القطع النقدية المؤلّفة من معدنين، وقد ظلّ هذا النظام سارياً في معظم العملات خلال معظم مراحل التاريخ اللاحق. كانت القطع الفضية ضرورية لتقوم بدور الفئات الصغيرة التي لا تستدعي استخدام الذَّهب الذي استُخدم معظمه لتمويل التجارة الخارجية. وكما كان شأن المصريين، قام كرويسوس بتحديد نسبة الذَّهب إلى الفضة على أساس 10 : 1 لأنها كانت نسبة ملائمة، رغم عدم إصداره أمراً قانونياً

بهذا الشأن[21]. كان لهذا النظام المعتمد على معدنين جوانبه المفيدة، ولكن، وكما رأينا، فإن الأنظمة المالية التي تعتمد على معدنين نادراً ما تكون ثابتة، لأن تغير الكميات المتوفرة من المعدنين بمرور الزمن، كان يؤدي إلى تقلّب معدلات قيمهما النسبية.

وبالرغم من كل ما سبق، كان كرويسوس لدى انتهائه من إجراء إصلاحه، قد أرسى دعائم أول عملة إمبراطورية في تاريخ العالم. فقد تم قبول ـ بل وطلبُ ـ قطعه النقدية البديعة الذَّهبية منها والفضية، بسرعة فائقة في جميع أنحاء آسيا الصغرى، كما كان يجري تداولها في اليونان على الساحل الغربي من بحر إيجة. وقد لعبت هذه النقود التي شاع تداولها في كل مكان، دوراً هاماً وحاسماً في رفع معدل الرخاء والتطور الاقتصادي في كامل المنطقة: فقد شجعت الحركة التجارية سواء في داخل الإمبراطورية الليدية أم مع الشعوب القاطنة في الشرق والغرب والجنوب، مما أدَّى بدوره إلى تشجيع الانتقال الحر للشعوب والأفكار[22]. ويمكن مقارنة إنجاز كرويسوس بعملية وضع عملة اليورو في أوروبا الغربية في عصرنا الحالي. وفي حال نجاح هذه الخطوة الثورية بخلق عملة موحدة لمجتمعات كانت لها دوماً عملاتها الخاصة، يكون اليورو قد أنجز ما حقَّقه كرويسوس تماماً: زيادة حركة التجارة داخل أوروبا ومع بقية أنحاء العالم مع إمكانية تحرّك أكبر لدى الشعوب ومعدل متين للنمو الاقتصادي.

عندما حانت نهاية كرويسوس، كان قد أتى بابتكار عظيم بقيت أصداؤه تتردّد عبر التاريخ حتى وقتنا الحاضر. ولم يكن ذلك مجرد وضع شكل معقول وشامل للنقد كان مقبولاً في كل مكان، رغم أن ذلك كان أمراً بالغ الأَهميَّة بحد ذاته. لقد كان هناك الكثير من المواد الأخرى التي كان باستطاعته استخدامها كقاعدة لنظامه المالي ـ كالنحاس أَو الأصداف أَو حبات الخرز مثلاً. لكن التركيز على الذَّهب والفضة جعل من هذين المعدنين المعيار الأساسي للثروة

والمال. وبمرور الوقت ثبت أن تلك الخاصية كانت تتمتَّع بقدر أكبر من الاحترام الذي كان ينظر به إلى الذَّهب والفضة بوصفهما مواد للعبادة الدينية أو أشياء جمالية.

بعد مرور خمس عشرة سنةً على حكم كرويسوس، بدأ يشعر بالقلق إزاء تنامي قوة الفرس الذين كان ملكهم قورش قد توجه بقواته إلى الأجزاء الشرقية من آسيا الصغرى على طول شواطىء البحر الأسود. وقد وعى كرويسوس تماماً الآمال التي كانت تراود قورش في اكتساب قوة اقتصادية كبيرة ومناطق لها قيمتها وذلك عن طريق إخضاع الليديين.

قرَّر كرويسوس أن يبادر بالهجوم لشل قوة الفرس قبل أن تتحوَّل إلى قوة لا تقهر. وفي مثل هذه الظروف، فإن معظم القادة عبر التاريخ كانوا يجلسون مع ضباطهم الكبار ومستشاريهم للقيام بوضع استراتيجية في مواجهة العدو القادم. أمَّا كرويسوس، فلم يفعل ذلك. ورغم عقلانيته وعبقريته فيما يتعلَّق بالمال والذَّهب، إلاَّ أنَّه لدى وضع تلك الاستراتيجية العسكرية، لجأ إلى استشارة العرافين ـ فقد بعث بعدَّة رسل إلى عرافة دلفي، وإلى عرافين إغريق آخرين، وحتى إنَّه بعث رسولاً إلى عرّاف في ليبيا. وكان أسلوبه في اختبار دقة تنبؤات العرافين أن طلب من رسله أن يعدوا مائة يوم بعد انطلاقة رحلتهم، ثم يزوروا العراف ويسألوه عما كان يفعله كرويسوس في ذلك اليوم. واختار هو أن يفعل شيئاً كان واثقاً من أنَّه لن يخطر ببال أحد. فقد قطّع لحم سلحفاة ولحم حمل وقام بسلقهما معاً في قدر من البرونز.

عندما عاد جميع الرسل بإجابات العرافين العديدة، دهش كرويسوس لأن أحد العرافين استطاع فعلاً أن يخمّن الحقيقة: وقد كان عرافة دلفي. كان كرويسوس على الدوام ميالاً إلى تلك العرافة، فهي التي أسبغت الشرعية على

حكم جده الأكبر غايجز. لقد تنبأت عرافة دلفي بأن كرويسوس كان يأكل: «سلحفاة ذات درع قوية تغلي في وعاء من البرونز مع لحم الحملان»[23].

وسرعان ما أغدق كرويسوس الهدايا على العرافة، وتضمَّنت تلك الهدايا 117 كتلة من الذَّهب الخالص، تزن الواحدة منها 150 باوناً، عدا الأسد المصنوع من الذَّهب الخالص والذي بلغ وزنه ستمائة باوند، بالإضافة إلى وعاء ذهبي ضخم لمزج الخمر مع الماء زنته 522 باوناً وبلغت سعته خمسة آلاف غالون. كما أمر كرويسوس جميع الليديين بتقديم الذبائح للعرافة التي قامت بدورها بإتمام الصفقة مع كرويسوس بأسلوب عصري تماماً. فقد حصل كرويسوس على «حقوق الاستشارة الأولى دون أجر، وحقوق الحصول على مقاعد الصف الأول في مهرجان الألعاب البيثيادية بالإضافة للحق الدائم لأي ليدي يرغب بذلك في أن يصبح من مواطني دلفي»[24]. تلك كانت كلمات هيرودوتس بحرفيتها.

وكانت نصيحة العرافة لكرويسوس أَنَّه في حال قام بشن حرب على قورش فإنَّه «سيقضي على إمبراطورية عظيمة». وانطلق كرويسوس وهو مفعم بالسعادة والثقة، ليحارب الفرس، رغم أنهم كانوا يفوقونه عدداً. كان الاشتباك الأول عنيفاً ولكنه انتهى إلى نتيجة متعادلة. كان اعتقاد كرويسوس أن من الأفضل له الانسحاب إلى ساردیس والانتظار حتى يتمكن من جمع حلفائه قبل أن يعاود الكرة على قورش للمرة الثانية. لكن قورش أدرك نوايا كرويسوس، فأسرع باتجاه ساردیس وأجبر كرويسوس على مواجهته في السهل الكبير الواقع على تخوم المدينة. وعندما لاحظ قورش أن كرويسوس قام بوضع فرسانه الأقوياء في الصفوف الأولى، نقل هو فرسانه إلى ظهور الجمال التي كانت تستخدم عادة لحمل المؤن والمعدات. وبما أن الخيول تخاف من الجمال ولا تستطيع أن تتحمّل منظرها أَو رائحتها، فقد دبَّت الفوضى في صفوف الخيالة الليديين لدى الهجوم المفاجيء للجمال، واضطر الجيش الليدي للانسحاب

بكامله إلى داخل المدينة التي حوصرت لمدة أربعة عشر يوماً قبل أن يتمكّن الفرس من اقتحامها وإعلان انتصارهم. لقد صدقت نبوءة عرافة دلفي مرة أخرى: فقد تم القضاء على إمبراطورية عظيمة، لكنها كانت إمبراطورية كرويسوس لا إمبراطورية الفرس.

عزم قورش على الاحتفال بنصره بإحراق كرويسوس مربوطاً إلى وتد كتقدمة إلى رموز الفرس. وفي حين كانت ألسنة اللهب تتصاعد، سمع الجنود كرويسوس يصرخ مردداً كلمة صولون ثلاث مرّات. وعندما سئل عما يعنيه، رد كرويسوس بالقول بأن صولون كان «رجلاً، أهب ثروة في سبيل أن أراه يتحدث مع كل طغاة الأرض». تأثّر قورش بما قاله كرويسوس حول زيارة صولون حتى إنَّه أمر بإخماد النار وحل وثاق كرويسوس. وعندما جلسا معاً كصديقين، أخبر قورش كرويسوس أن الجموع التي يريانها عن بُعد كانت «تنهب مدينته حاملة معها ثروته» فأجاب كرويسوس الذي كان لا يزال يحتفظ بفطنته رغم كل ما جرى له، «إنهم لا ينهبون مدينتي ولا ثروتي، فلم أعد أملك أياً منهما. إن ما ينهبونه ويحملونه معهم هو ملكك أنت»[25].

وبهذه الكلمات اللاذعة اختفى كرويسوس عن مسرح الأحداث.

إن أكثر الأجزاء إثارة في قصة كرويسوس هو ذلك الخليط الغريب من الحظ والمهارة. فقد كان كرويسوس محظوظاً لكونه يحكم بلاداً تقع على ضفتي نهر باكتولوس، النهر الذي باركه ميداس بكميات من الذَّهب تبدو وكأن لا نهاية لها. وقد نبهه صولون قائلاً: «إن البشر هم مخلوقات الصدفة المحضة». وكان هو مؤمناً بالخرافات لدرجة العجز وذلك لدى قيامه بدور القائد العسكري العام ذي الأهميَّة الحاسمة. لكنه كان حاكماً فذاً ومجدداً لا ينسى كلّ ما يتعلق بالمال، وهو من أطلق الذَّهب في مسيرته ليقوم بدور المال.

قد لا يكون هو الذي جنى تلك الموجودات التي قام بتوزيعها، ولكن لا شك بأَنَّه استخدمها لصالحه بأفضل شكل ممكن.

هناك ملاحظة لاذعة معروفة تتعلَّق بالأشخاص المحظوظين مثل الليديين: لقد ولدوا عند نقطة الإنطلاق الثالثة وهم بذلك يعتقدون أنَّهم قد أحرزوا هدفاً ثلاثياً. وقد عبَّر ج. كينيث غالبريث عن الفكرة ذاتها بشكل أكثر بلاغة: «إن الأَشخاص الذين يمتلكون المال، كالأَشخاص الذين كانوا في السباق يتمتعون بنبل المحتد وبلقب كبير، يعتقدون اعتقاداً جازماً بأن الاحترام والإعجاب، اللذين يبعثهما المال في النفس، يعودان في الحقيقة إلى حكمتهم ومزاياهم الشخصية»[26]. وتتضمن دعابة غالبريث الفظة هذه، الكثير من الحقيقة، لكن كرويسوس والليديين قد يمثِّلون الاستثناء الذي يقدم البرهان على قاعدته. فقد كانت التجديدات السياسية والمالية التي أدخلها الليديون غير عادية في ذلك العصر. وإذا ما جرى تقييمها من منظور السنوات الألفين والخمسمائة التي مرَّت على موت كرويسوس، فإننا نرى بأنَّها كانت إنجازات استثنائية. وقد كانت حنكة الليديين ومزاياهم الشخصية هي التي أضفت الاحترام والإعجاب على نقدهم، لا العكس. والأهم من ذلك، هو إثباتهم بأنه لا ضرورة لأن تكون شخصاً سيئاً لمجرد كونك غنياً.

لقد قامت أُمم في الماضي بإخضاع الشعوب المجاورة لها، ولكن ذلك لم يجر مطلقاً بطريقة الليديين المعتدلة. كما قامت أُمم أخرى بتطوير أنظمة مالية ولكن تلك الأنظمة لم تكن لتتمتّع بتلك الهيكلية الشاملة أَو بالقبول كالنقد الليدي. فاليونانيون والفرس والرومان، وكل شعوب أوروبا والعالم الجديد، ساروا جميعاً على خطى الليديين سادة الإمبراطورية، لكن غالبيتهم كانت تسير بخطوات أكثر تثاقلاً. ومع أن الشمس لم تكن لتغيب عن الإمبراطورية العالمية للملكة فيكتوريا في أواخر القرن التاسع عشر، إلاَّ أن النموذج الليدي هو الذي حدد نوع، بل وحتى شكل، العلاقات السياسية والاقتصادية بين المركز

والمستعمرات، بما في ذلك الموجودات المالية للمستعمرات التي كان يجري تجميعها في ودائع المصارف الإنكليزية ليتم تقسيمها إلى فئات وتداولها بالجنيه الإسترليني.

وعلى الرغم من ذلك، لم يكن ليقدر لليديين أن يصلوا إلى تلك المكانة لولا لمسة ميداس. وكما يحب الاقتصاديون أن يردِّدوا، فإن الذَّهب كان شرطاً ضرورياً، وإن لم يكن كافياً بحد ذاته، لهيمنتهم. كانت أصول الليديين وسيطرتهم ـ وآرائهم المتعلقة برسالتهم الدنيوية ـ تعود بجذورها إلى الثمار الذَّهبية لنهر باكتولوس وخامات الإلكتروم التي كانت توضع عبر الجبال المحيطة بهم. إن الأُمم الأخرى، في أزمان أَخرى، كانت تنطلق لإخضاع غيرها لتصبح غنية، أما الليديون، فقد كان السبب في إنشاء إمبراطوريتهم يعود وإلى حد كبير لكونهم أغنياء ـ أغنياء مثل كرويسوس.

3

حوض استحمام داريوس وصوت الإوز

أدَّت هزيمة الليديين على يد الفرس إلى تسريع عملية تحول الذَّهب من وسيلة للزينة إلى لعب دور مركزي بشكل نقد. ورغم الابتكارات الرائدة التي أضافها الليديون إلى مجال سك النقد إلاَّ أنهم كانوا يعتقدون أن ما يهم فعلاً هو الذَّهب الذي كان بحوزتهم لا مالهم. فعندما جاء صولون لزيارة كرويسوس، لم يقل هذا الأخير: «انظر كم أملك من النقود» بل جعل صولون يرى «كَنزهُ». كما أنه لم يستفد من دينارات البديعة بأن يقدمها كتعويض للعرافين الذين لم يكن ليكف عن استشارتهم، بل أرسل إليهم هدايا كانت تضم قطعاً رائعة الجمال صنعت من الذَّهب. ولكن الخدمات التي قدّمها العرَّافون لقاء ذلك، كحقوق الاستشارة الأولى المجانية ومقاعد في الصف الأول في مهرجان الألعاب البيثادية، لا يمكن الحصول عليها عادة في عصرنا الحالي دون مقابل مالي.

وسرعان ما تغيرت وجهة النظر تلك، فقد مهّد نظام كرويسوس المالي ذو التصميم العبقري لقيام تحولات اجتماعية عميقة، رغم أنَّه لم يدر بخلد كرويسوس على الإطلاق أنَّه بذلك إنما كان يطلق جنياً من القمقم. لقد كان

ذلك الصفاء المتألق والليونة والكثافة، أي الخواص التي جعلت من الذَّهب المعدن الأكثر ملاءمة لمواضيع العبادة، إضافة لكونه لا يصلح لأي شيء آخر عدا الزينة، وهي بالضبط ما جعله مادة ملائمة بشكل لا يصدق لسك القطع النقدية.

وكانت النتيجة أن تطور شكل غريب من ردود الفعل على دور الذَّهب في المجتمع، فالذَّهب لم يكن ليقدّر له أن يتبوأ مكانة السيادة المطلقة في الأنظمة المالية لولا خواصه الفيزيائية الفريدة، لكن وبمرور الزمن، أصبح الطلب عليه لا يعرف الارتواء نظراً لاستخدامه كنقد. إن الطلب على الذَّهب بهدف تزيين المواضع الدينية والأجساد، لا بد وأن يتوقف عند حد معين، أما الطلب على الذَّهب بشكل نقد فهو لا يعرف حدّاً. مما أدَّى عبر التاريخ إلى كل أنواع الخراب والدمار، فقد دفع بالرجال إلى المخاطرة وارتكاب أكثر الأعمال وحشية بحثاً عن مصادر جديدة للذهب، أو إلى نهب ممتلكات الغير.

وقد أدَّى تحويل الذَّهب إلى نقد إلى جعله أكثر شعبية بمعنى ما. فبفضل عملية سك النقد، لم يعد امتلاك الذَّهب واستخدامه، بعد إمبراطورية ليديا، امتيازاً مقصوراً على الملوك. لقد أصبح فعلياً في أيدي عامة المواطنين، رغم اقتصار ذلك على الأثرياء منهم، الذين يستطيعون لمسه وتحسسه وتجميعه في منازلهم وشراء الأشياء ودفع ديونهم بواسطته ـ في الوقت الذي لا يزالون فيه يضعون الذَّهب في آذانهم وأنوفهم ويطوّقون به أعناقهم ومعاصمهم وأصابعهم. ولن يمضي وقت طويل حتى يبدؤوا بدفع ضرائبهم بواسطته. لقد تداخلت فكرتا القوة والثروة لتصبحا فكرة واحدة.

يقدم الإغريق مثالاً عن كيفية اندماج الذَّهب كوسيلة للزينة والذَّهب كنقد، فطبقاً للتقليد القائل بأن الذَّهب يضفي الرهبة على الأشياء الجامدة، قام

فيدياس بكساء التمثال الضخم الذي صنعه لأثينا في هيكل بارثينون بعباءة من الذهب، رغم أن الذَّهب كان أكثر ندرة من الفضة في بلاد اليونان، كانت العباءة في الواقع، هي الكنز الرسمي لدولة ـ المدينة أثينا، وكان معروضاً على مرأى من الجميع، بعكس مخزون الذَّهب في الولايات المتحدة المحفوظ في أعماق فورت نوكس ـ وذلك حتى اندلعت الحرب ضد إسبارطة حيث اضطر الأثينيون لنزع الكنز الذَّهبي عن أصنامهم وتحويله إلى نقد بغية تمويل عملياتهم العسكرية[1].

وبالرغم من أن قطع النقد الإغريقية كانت تصنع من الفضة، إلاَّ أن استخدام قطع النقد المصنوعة بالطريقة الليدية انتشر في أماكن أخرى وشكّل في النهاية نموذجاً لنظام نقدي شاع استخدامه في كل أنحاء الإمبراطورية الرومانية. وقبل عصر روما بوقت طويل، قام قورش (558 ـ 529 ق. م) الذي هزم كرويسوس في ساردِيس، كما قام خليفته داريوس (521 ـ 485 ق. م) بالتبني الفوري لنظام النقد العالمي الذي وضعه كرويسوس ليجري العمل به في جميع أنحاء الإمبراطورية الفارسية الكبيرة، بل إن داريوس تجاوز كرويسوس ودنانيره. فعوضاً عن الرمز المحلي طبع داريوس رسمه على قطعه النقدية ودعاها باسم داريك، لأن حاكماً يسمي نفسه ملك الملوك لا يمكنه أن يفعل أقل من ذلك.

انتشرت نقود داريوس ـ ورسمه ـ في طول البلاد وعرضها. فقد تم العثور على قطعه النقدية في المنطقة ما بين بحر البلطيق وإفريقيا مروراً بآسيا الوسطى. وبالإضافة لاستخدام الحكومة الفارسية لذهبها في سك النقد الذي موّل التجارة عبر تلك الأراضي الشاسعة، كانت تلك الحكومة أيضاً أول حكومة في التاريخ تقوم بجباية الضرائب على شكل نقد عوضاً عن السلع[2]. لقد تغيّر العالم ولم يعد كما كان. فمن حيث الواقع، شكّلت أنواع النقد التي كانت الحكومات عبر التاريخ مستعدة للقبول بها كمدفوعات للضرائب، شكّلت عاملاً

كان له تأثير رئيسي في تحديد أشكال النقد التي أصبحت الأكثر قبولاً في المجتمع ككل. وهناك حالات نرى فيها نقوداً وضيعة القيمة وذات قوة شرائية متدنية، تتمتع بقبول تام إلى حد ما، وذلك عندما سمحت الحكومات لرعاياها باستخدامها لدفع الضرائب المترتبة عليهم.

قلَّد الفرس النظام النقدي بنجاح كبير، لكنهم عرفوا أيضاً كيف يستخدمون الذَّهب كوسيلة لإظهار القوة. فعندما قام الإسكندر الأكبر مثلاً، بتدمير إمبراطورية الفرس لدى هزيمته لملك الملوك في إيسوس سنة 331 ق.م، دخل خيمة داريوس الضخمة المنصوبة في ميدان القتال، وتفحص العربة الذَّهبية والعرش الذَّهبي وحوض الاستحمام الذَّهبي، وكانت قطعاً متقنة الصنع ذات جمال أخَّاذ ـ كما أنَّها كانت كل ما يحمله داريوس معه عند سفره، ثم علَّق قائلاً: «هذا هو إذاً مغزى أن يكون المرء ملكاً»[3].

ورغم الأثر الكبير الذي تركه في نفسه حوض الاستحمام الذهبي الخاص بداريوس، إلاَّ أن الإسكندر لم يكن ليجهل على الإطلاق استخدام الذَّهب كنقد بالإضافة لاستخدامه كوسيلة للزينة. ففي الفترة التي تلت سنة 360 ق. م، اكتشف فيليب الثاني ملك مقدونيا ـ والد الإسكندر ـ مصادر غنية للذهب والفضة في مقدونيا وتراقيا ـ شمال البلقان جهة بلغاريا الحالية ـ وأسرع بسك القطع النقدية من كلا المعدنين بحيث يلبي جميع احتياجاته في ذلك الوقت ولتمويل مخططاته للفتوحات العسكرية المستقبلية[4].

كان وضع أُسس ثروة نقدية ضخمة هو أحد إنجازات ذلك الرجل الشديد الذكاء في سعيه لتحويل ريف مقدونيا المنعزل إلى أعظم قوة في عصره. ولو كان فيليب حياً في أيامنا هذه، لسعى الجميع دونما تردد لأخذ مشورته كخبير

في الشؤون الاقتصادية والسياسية المتعلّقة بتطور الأُمم. فقد كان يتمتع بحس أصيل لترتيب الأولويات ومعرفة بكيفية وضع أفكاره موضع التنفيذ بأكثر الطرق فعالية وكفاءة وبكيفية استخدام القوة لتحقيق الفائدة الكبرى.

عندما اعتلى فيليب عرش مقدونيا سنة 359 ق. م وله من العمر ثلاث وعشرون سنةً، كان سكان مملكته الجبلية القلائل ينتمون إلى قبائل متعددة تكاد لا تحصل على قوتها إلاّ بشق النَّفس وتقضي جل وقتها في قتال بعضها بعضاً. وفي نهاية فترة حكمه، كان قد وطّد مكانة مقدونيا كقوة كبيرة، ومكانته هو كشخصية مهيمنة في جميع أرجاء بلاد اليونان، رغم أن العديد من الأثينيين اعتبروه شخصاً ريفياً يتملكه الغرور والتباهي.

وقد بدأ فيليب من حيث كان يجب عليه أن يبدأ: بالزراعة. فعن طريق مشاريع الري وإنشاء الأقنية وشبكات التصريف في الأراضي والتحكم بالفيضانات، استطاع أن يحوّل سهول الرواسب الغرينية في مملكته إلى منطقة لإنتاج الحبوب. وقد ساعدته وفرة الكميات المتنامية من الغذاء على إرساء قواعد السلم بين أبناء رعيته ذوي الطباع الخشنة، كما جذبت تلك المشاريع أعداداً متزايدة من سكان جنوب اليونان، مما أدّى إلى بناء مدن جديدة وتأمين مصدر لا ينضب من القوة البشرية لجيوشه. وبالإضافة لتوفير الغذاء لتلك الأعداد المتزايدة من السكان، أدت إصلاحات فيليب الزراعية إلى تعزيز القوة العسكرية في مقدونيا بشكل لا يستهان به وذلك عن طريق تأمين العلف والمراعي للجياد والماشية. وكالدبابات الألمانية، كانت وفرة الجياد لدى فيليب تؤمّن لجيشه إمكانية تحرّك تثير الخوف. كما أمدّت لحوم الماشية رجاله بالقوة والتحمّل في مواجهة أعدائهم، وهي نقطة لفتت انتباه نابليون بعد ذلك بعدة قرون، وأدَّت حملاته المحلية في المناطق المحيطة بمقدونيا إلى زيادة ذلك المصدر الاقتصادي فائق الأهمية ـ ألا وهو العبيد ـ عبيد للعمل في المنجم

وعبيد للعمل في الحقول، وآخرون للحفاظ على الاقتصاد في حالة من النشاط الدائب(*).

وبالاضافة إلى ما سبق، قام فيليب بالتحضيرات الكاملة لخلافته، فقد استدعى أرسطو من أثينا ليكون المدرِّس الخاص لإبنه الإسكندر منذ أن كان في الثالثة عشرة من عمره وحتى بلوغه السادسة عشرة، ويعادل ذلك في وقتنا الراهن إرسال شاب مراهق إلى هارڤارد للدراسة قبل التخرّج ومن ثم إرساله إلى كامبردج أو إلى أوكسفورد للدراسة بعد التخرّج. وعندما اغتيل فيليب سنة 336 ق. م، بعد حكم استمر 23 عاماً، ذكّر الإسكندر شعبه قائلاً: «عندما استلم أبي شؤون الحكم، كنتم بدواً رحّلاً فقراء، تكتسون جلود الخراف وترعون بضعة من الأغنام في الجبال... ولقد جعل منكم سكان مدن ووطد النظام والقانون والأعراف في حياتكم».

حدَّد فيليب قيمة نقده الذَّهبي بعشرة أضعاف قيمة النقد الفضي، وكانت طريقة مربحة للحساب تختلف عن الحساب المضني للنسبة لدى الفرس والبالغة 13,5 : 1؛ كما يظهر هذا الاختيار أيضاً الزيادة النسبية في كميات الذَّهب المتوفرة من المناجم المكتشَفَة حديثاً. وقد قام فيليب بتزيين أحد وجهي أغلى العملات قيمة برسم عربة لتمجيد فوزه في سباق العربات في الألعاب الأولمبية سنة 356 ق. م، كما زيَّن الوجه الآخر برأس زيوس، وقد تساءل الكثيرون عما إذا كان ذلك رأس زيوس أم رأس فيليب نفسه.

ودفعته غريزته المالية الحادة الذكاء إلى سك قطع نقدية أكثر مما كان يحتاجه في ذلك الوقت في صفقاته ولدفع رواتب الجيش. وقام بتخزين الفائض

(*) كانت للعبيد أهمية فعلية. حيث بلغ عدد سكان أثينا في ذروة مجدها ما يقارب خمسمائة ألف نسمة ـ 350,000 منهم كانوا من العبيد.

كإحتياطي من أجل تمويل الحملات العسكرية الكبيرة ضد الفرس، تلك الحملات التي كانت ما تزال في طور التخطيط حين اغتياله.

وبعد مقتل فيليب واعتلاء الإسكندر عرش والده، أبقى على دُور السك المقدونية التي كان فيليب قد أنشأها، أبقاها قائمة على عملها لإنتاج القطع النقدية بوفرة، بالإضافة إلى ما كانت تنتجه دُور السك في اليونان وآسيا الصغرى وسوريا ومصر وبلاد ما بين الرافدين. لم تكن هناك ثمة مشكلة في تزويد تلك الدُّور بالذَّهب والفضة، إذ إنَّه بالإضافة إلى مخزون فيليب وما كانت المناجم تنتجه في مقدونيا وتراقيا حينذاك، استولى الإسكندر على كنوز ضخمة خلال حملته المظفَّرة في الشرق. كما اتبع الإسكندر سياسة والده في جعل الذَّهب المعيار المالي الرئيسي، وبالنظر إلى كونه رجلاً عملياً، وهو الذي قطع عقدة غوردون، فقد حافظ على نسبة 10 : 1، وقام بضبط الكميات الواردة من كل معدن من الاحتياطيات الضخمة لديه وذلك لتسهيل تطبيق تلك النسبة البسيطة في أركان إمبراطوريته الشاسعة.

وعلى الرغم من امتلاك الإسكندر لكميات كبيرة من الذَّهب بحيث كان باستطاعته أن يضرب كميات وفيرة من النقد، إلاَّ أَن الطلب على قطع النقد ازداد إلى حد كبير. أراد الإسكندر التأكُّد من قبول نقده في أي مكان يؤدي فيه رجاله خدمتهم. كان أكثر جنوده من المرتزقة، وكان هو يدفع لهم بسخاء كي يغنيهم عن النهب. وقد قام بوفاء الكثير من ديونهم المدنية، وقدَّم هدايا زفاف نقدية لبعض الجنود كما وزَّع مكافآت صرف من الخدمة لدى عودة الجنود ثانية إلى ديارهم. وبما أنَّه كان يعتبر نفسه حاملاً لرسالة الثقافة الإغريقية أكثر منه فاتحاً، فقد أحضر الإسكندر معه علماء ومهندسين ومستكشفين، وكان لا بد من دفع النقود لهؤلاء أيضاً. وبالإضافة لما سبق، قام بتوسيع حكمه المدني ليشمل المناطق التي فتحها، وذلك بأن أَسَّس أكثر من سبعين مدينة جديدة وفقاً لمسار قوس كبير يمتد ما بين مصر والهند، مما أدَّى أيضاً إلى ازدياد الطلب

على النقد المقبول. وأخيراً، كانت رؤياه تتضمَّن إيجاد حركة تجارية مزدهرة بين المناطق العديدة في إمبراطوريته ذات الطبيعة المتنوعة، وهو هدف تلزمه عملة عامة مشتركة. كان الإسكندر على ثقة من أن التجارة ستؤمِّن للجميع مستوى أعلى من العيش.

لقد أدرك كل من فيليب والإسكندر قيمة النقد الذَّهبي في الدعاية وفي العلاقات العامَّة. ففي حين حملت عملة فيليب Philippeioi ختماً يمثِّل رأس زيوس، تنازل الإسكندر قليلاً ووضع هرقل، وهو ملك كان دون زيوس مكانة، إلاَّ أنه كان يمثِّل القوة البدنية القصوى، ومثل زيوس الذي كانت عملة فيليب تحمل رسمه، كان هرقل الذي حملت رسمه قطع النقد الجديدة، يشبه الإسكندر نفسه إلى حد كبير. لم يغيِّر الإسكندر اسم العملة الذَّهبية التي وضعها والده، فقد بقيت تُدعى Philippeioi. أما من جاؤوا بعده، فقد احتفظوا بتصميم الإسكندر لكنهم غيَّروا اسم العملة من Philippeioi إلى Alexanders.

ظل النظام النقدي للإسكندر سائداً لفترة تزيد على 150 سنةً، من الهند شرقاً وحتى معظم المناطق اليونانية والمصرية في الغرب، إلى أن قام القائد الروماني كينستيوس فلامينوس بإيقاع الهزيمة بفيليب الخامس في سينو سوفالاي سنة 197 ق. م منهياً بذلك السيطرة المقدونية. لقد فهم فلامينوس الدروس المالية جيداً: كانت الخطوة الأولى التي اتخذها للاحتفال بذكرى انتصاره هي تحويل جزء من الإتاوة التي دفعها فيليب إلى قطع نقدية ذهبية جديدة تحمل رسمه ـ كانت تلك هي المرة الأولى التي تظهر فيها صورة شخص على قيد الحياة فوق عملة رومانية.

كان الرومان يستخدمون النقود المعدنية منذ وقت طويل. وخلال القرن الرابع ق. م درجوا على الاحتفاظ بثرواتهم في معبد جوبيتر. والهدف من هذا

الخيار تمثّل في توفير الحماية، إلاّ أنه كان خياراً يحمل مزيجاً مثيراً من الثروة الدنيوية والدِّين السماوي. وتروي الأسطورة بأنَّه في سنة 390 ق. م، نبّه صوت الإوز الذي كان يُربَّى حول المعبد، نبّه الرومان إلى هجوم مباغت يشنه الغاليون، الذين كانوا يغزون إيطاليا في ذلك الحين. كان الرومان شديدي الامتنان لهذا الإنذار بالخطر الوشيك بحيث أنَّهم بنوا نصباً لملكة الإنذار لديهم واسمها مونيتا، وقد أصبحت كلمة مونيتا بدورها مصدراً لكلمتي Money (نقود) وMint (دار السك)[5].

لم يكن ذلك هو كل ما ورثناه عن الرومان فيما يتعلَّق بالنقود. فقد قدَّم لنا الرومان فئة الباوند النقدية -Libra- وإلى هذا يعود السبب في أن رمز الباوند (الجنيه الإسترليني) هو £. كما أن كلمة Denariurs اللاتينية كانت ترمز إلى البنس ثم تم اختصارها اصطلاحياً إلى الحرف d عند الإنكليز. وأخيراً هناك فئة الصوليدوس Solidus وتعني الكلمة أن القطعة مصنوعة من الذَّهب الخالص أو الفضة الخالصة وكانت تساوي جزءاً من عشرين من الباوند الفضي وكان يعادل اثني عشر Denari. لقد وُضع النقد الإنكليزي على أساس هذه النسب. كان الباوند يساوي عشرين شلناً وكان الشلن يساوي اثني عشر بنساً ـ وقد استمر هذا النظام قائماً منذ العصر النورماندي وحتى ثمانينات القرن العشرين حين أذعنت بريطانيا أخيراً وتبنَّت الفئات النقدية العشرية التي كانت قد استُعملت في كل مكان منذ وقت طويل(*).

رغم وجود احتمال بأن الرومان بدؤوا باستعمال كلمة مونيتا سنة 390

(*) سدَّد الإنكليز ضربة إلى التحويل إلى النظام العشري عام 1847، حين طرحوا عملة بقيمة 2 شلن دعيت بالفلورين، وبذلك كان الفلورين يساوي عُشْر الباوند. واستمر تداول هذه العملة إلى جانب العملة القريبة إليها، وإن كانت أكبر قليلا، وهي نصف الكراون، المساوية لشلنين وستة بنسات. لم تكن في ذلك الوقت والأوقات التي تلته قطع نقدية بقيمة كراون.

ق.م، فإن مخزونهم من الذَّهب في ذلك الوقت كان ضئيلاً. ويذكر بلايني الأكبر كمية الذَّهب التي وُجدت في الخزينة الرومانية وكانت أقل من نصف كمية الذَّهب التي أغدقها فيدياس بسخاء قبل خمسين سنةً على التمثال الذي صنعه لأثينا في هيكل بارثينون، وأقل من سُبْع كمية الذهب التي أرسلها كرويسوس إلى عرافة دلفي قبل مائة وخمسين سنةً. ورغم حصول الرومان على واردات إضافية من الذهب لدى اتساع فتوحاتهم، وحتى عندما جعلهم انتصارهم على قرطاجة في الحروب البونية يسيطرون على احتياطات الذَّهب الكبيرة على سفوح الجبال الإسبانية، إلاَّ أنَّهم ظلّوا يعتبرون الذَّهب مادة احتياطية لا مادة قابلة للإنفاق[6].

ازدادت حاجة الرومان إلى الذَّهب بسرعة بعد سنة 150 ق. م تقريباً عندما أخذت إمبراطوريتهم تتَّسع بسرعة متزايدة، مما كان يعني في الوقت نفسه تزايد الاحتياجات العسكرية. ويقول غيبون في مؤلّفه «تاريخ انحدار وسقوط الإمبراطورية الرومانية» The History of the Decline and Fall of The Roman Empire: «كان النسر الذَّهبي اللامع في مقدمة الفيلق، موضعاً للإخلاص والتفاني العميق من قِبلهم، وكان التخلي عن ذلك الرمز المقدّس في ساعة الخطر لا يُعتبر جحوداً بقدر ما يُعتبر أمراً شائناً ومخزياً»[7]. ثم يضيف غيبون: «قام الإمبراطور دوميتيان الذي حكم ما بين سنتي 81 ـ 96، برفع الرواتب السنوية لجنود الفيالق إلى اثنتي عشرة قطعة من الذَّهب، وكانت تعادل في ذلك الوقت عشرة من جنيهاتنا الحالية»[8]. كانت عشرة جنيهات في عصر غيبون تعادل 53 دولاراً أمريكياً تقريباً، أو ما يقارب 2500 دولاراً أمريكياً حسب القوة الشرائية في سنة 1999 ـ ولكن لم يكن هناك الكثير مما يمكن شراؤه في زمن الرومان، كما أن الجنود كانوا يتلقون، إضافة لتعويضاتهم، المأوى والغذاء

والرعاية الطبية. ومن هنا، فإن مبلغ 2500 دولاراً أمريكياً يعتبر مرتباً سنوياً سخياً.

ومن حيث الواقع، استعمل الرومان النقود المسكوكة على نطاق أوسع بكثير ممن سبقوهم. فقد تعيّن دفع رواتب ألوف الجنود المنتشرين في أنحاء الإمبراطورية، لدرجة أن بعض القادة الرومانيين قاموا بسك نقدهم الذَّهبي الخاص لتوزيعه على جنودهم.

وبالإضافة إلى ما سبق، فإن الخبز والمدرجات لم تكن لتتوفر بالمجان، لكن توطيد أركان السلم الداخلي بين الساسة الرومانيين، كان أمراً أساسياً، إذ كان الأباطرة يأملون في البقاء في السلطة. وكان يجري توزيع الإعانات نقداً عند الضرورة، ولكن حتى الدفعات العينية الأكثر تكراراً، alimenta، أَو حصص الخبز، كان معظمها مستوراداً من خارج إيطاليا وقد توجب تسديد ثمنها نقداً.

وقد رافق الحاجة المتكررة والمتنامية للقطع النقدية، طلبٌ متزايد على نقد يعوض النقد الضائع، لأنَّ كثيراً من القطع النقدية كانت تختفي بكل بساطة، لأن بعضها كان يهترىء بحيث لا يعود بالإمكان استخدامه كنقد، والبعض الآخر يغرق مع حطام السفن، وجزء منها كان يتعرض للنهب على يد البرابرة. كما ذهب قسم لا بأس به من الذَّهب إلى الشرق ثمناً لتوابل الهند ولأقمشة حريرية كانت تأتي عبر طريق غير مباشر ومنشؤها الصين، وبمجرد وصول المعدن إلى الهند، كان يبقى هناك دون أن يعود إلى أقنية التجارة[9]. وفي الوقت نفسه أخذت الخامات ذات النوعية الممتازة بالتناقص باستمرار، لهذا فقد استدعى الأمر زيادة التعدين بوتيرة أسرع من وتيرة الحاجة للمعدن من أجل سكّ النقد.

كان الطلب على الذَّهب بلا حدود. بعد أَن فتح يوليوس قيصر بلاد الغال، استورد الرومان ما يزيد على مائة ألف عبد من تلك المنطقة للعمل في

مناجم إيطاليا، هذا بالإضافة إلى العبيد الذين كان يجري استخدامهم للعمل وإفناء حياتهم القصيرة كعمَّال تعدين في بلاد الغال نفسها. وقد تعرَّفنا سابقاً على الكيفية التي كان الرومان يستخدمون العبيد فيها لاستثمار الثروات المعدنية في إسبانيا، وكانوا على درجة من القسوة والازدراء للطبيعة تحاكي السجل المروع الذي خلفه المصريون.

كان أثرياء الرومان يباهون بعضهم بعضاً بإغداق الذَّهب بسخاء على تزيين أنفسهم وعلى نسائهم وبيوتهم، لكنهم كانوا يقيسون ثروتهم بأكداس النَّقد الذَّهبي. وفي عصر الجمهورية الرومانية، والإمبراطورية التي تلتها، اعتُبر النَّقد الذَّهبي وسيلة أساسية لتسهيل الوصول إلى القوة السياسية. ففي روما، وعلى عكس جميع الملكيات التي حكمت الأمم منذ بدء التاريخ، كان الذَّهب الذي بحوزة المرء، لا مكانة والده، هو الذي يحدِّد مدى تأثيره في قضايا الدولة. كما أن مدى هذا التأثير، كان يحدِّد بدوره مقدار الرشاوى والمكاسب غير المشروعة التي تعرض على الشخص من قِبَل آخرين يسعون أيضاً إلى القوة والثروة.

عندما عاد يوليوس قيصر مثلاً من خدمته في إسبانيا كمسؤول إقليمي عن الإدارة المالية، كان قد جمع ذهباً إسبانياً يكفي لشراء اهتمام الناس به كقائد، ولكن ذلك الذَّهب لم يكن كافياً لإيصاله إلى حيث يرغب. ومن ثم قام بضم مصالحه إلى اثنين من المواطنين الرومانيين الأثرياء، أحدهما كان رجلاً فاحش الثراء يدعى كراسوس، والآخر قائداً عسكرياً يدعى بومبي.

بدأ كراسوس بتجميع ثروته بأن نظم فرقة إطفاء كانت لا تقوم بإخماد الحرائق إلاَّ عندما يتم الدفع سلفاً. وفي الحالات التي لا يتمكن المالك فيها من الدفع، ويدمر الحريق المبنى، كان كراسوس يشتري الركام المحترق بمبلغ يعادل جزءاً لا يُذكر من قيمته عندما كان بناءً قائماً. وبذلك أصبح كراسوس مالكاً لعدد كبير من المنازل التي قام بإصلاحها وتأجيرها بمبالغ كبيرة[10]. كما أنه كان يقرض المال بالربى مما جعله يضم إلى مكاسبه كنوزاً من الفضة

والممتلكات الزراعية وأعداداً كبيرة من العبيد، بل إنَّه علَّم عبيده القراءة ودرَّبهم ليصبحوا جباة إيجارات ومدوني حسابات وطبَّاخين[11]. وقد مكَّنه ذلك الإيراد الضخم، الذي تراكم لديه نتيجة كل تلك الثروة، من رشوة المسؤولين بحيث إنَّه استطاع شراء المزيد من الممتلكات المصادَرة بأسعار بخسة.

ورغم أَن نهاية بومبي كانت الإطاحة برأسه، ويبدو أَن ذلك كان، على الأغلب، نتيجة مكيدة دبَّرها يوليوس قيصر، إلاَّ أَن كراسوس واجه نهاية أفظع فقد كان شديد الرغبة في أَن يبدو أكثر من مجرد رجل ثري، وقادراً ـ مثل بومبي ويوليوس قيصر ـ على قيادة الجند بنجاح في المعارك. ولهذا، قام بافتعال حرب مع البارثيين في بلاد ما بين الرافدين وانطلق بحملة ضمَّنت 44,000 جندي تحت إمرته، معظمهم من المشاة، وفي معركة كارهاي سنة 53 ق. م، هاجم البارثيون الرومان بعشرة آلاف جندي من الخيَّالة الرماة وبفيلق يتألَّف من ألف جمل عربي، مما عجَّل في انتصارهم. حاول كراسوس التفاوض بشأن الاستسلام لكن البارثيين انقضوا على قواته بضراوة بحيث أنَّه لم ينجُ من الأربعين ألفاً إلاَّ عشرة آلاف جندي. أما في ما يتعلَّق بكراسوس فقد ادَّخر له البارثيون نهاية خاصة عبَّرت خير تعبير عن ازدرائهم للحضارة الرومانية التي كان يمثِّلها والتي استبد بها هوس النقود. فقد أجهزوا عليه بأَن صبُّوا الذَّهب المصهور في حلقه[12].

حتى هذه المرحلة من قصتنا، كانت موارد الذَّهب تعتبر أمراً مفروغاً منه، أَو يمكن القول بأَن كشف موارد جديدة كان إلى حد ما متسقاً مع تزايد الطلب على الذهب. فاليهود الذين فرّوا من العبودية، والمصريون والليديون والفرس وفيليب والإسكندر، كانوا جميعاً على ما يبدو، يملكون من الذهب ما يكفي ليحقِّقوا أي شيء قد يخطر ببالهم، من صناعة مواضيع العبادة والتجمل، إلى

سك قطع بديعة من النَّقد كوسيلة مبادلات ومخازن للثروة. وإذا نظرنا للأمر من وجهة نظر معاصرة، رأينا أنَّهم كانوا محظوظين بامتلاكهم آلات لسكّ النَّقد لا تَعرف الكلل وهبتهم الطبيعة إياها، كان إنتاجها الذي اتفق له أَن يكون برَّاقاً وكثيفاً ومطواعاً لصنع الأشياء الجميلة، مقبولاً في كل مكان دونما أي تردّد.

أما الآن، فقد تغيّر كل شيء. فبالنظر إلى امتداد أطراف الإمبراطورية من البحر الأبيض المتوسط إلى البحر الأسود، ومن حدود اسكتلندا إلى مناطق أقصى جنوب مصر، وجد الرومان أَن مواردهم من الذَّهب اللازمة لسكّ النَّقد أخذت بالتناقص باستمرار بالقياس إلى احتياجاتهم رغم إنتاج التعدين الذي بلغ خمسة أطنان في السنة[13]. فبالإضافة لأوجه الإنفاق الحكومي الذي توجب تمويله، كان الأباطرة ينفقون المال على أنفسهم بإسراف أثار حسد مواطنيهم. إلاَّ أَن الطبيعة وضعت حداً لا يمكن تجاوزه من موارد الذَّهب والفضة: فالمرء لا يستطيع خلق معدن من لا شيء. وقد تعلّم الكيميائيون هذا الدرس فيما بعد مراراً وتكراراً.

إن المجتمع الذي يستعمل المعدن كنقد سيجد نفسه على الدوام مقيداً بالموارد المتوفرة من ذلك المعدن. وإن توزع المكامن المعدنية بشكل عشوائي يجعل من دول مثل ليديا دولاً غنية نتيجة حظها الحسن بينما يجعل دولاً أخرى تتوق بجشع إلى الذَّهب نتيجة سوء حظها. ويعلمنا التاريخ أَن المزايا الطبيعية ليست صيغة آلية للنجاح، ولكن أَن تهب الطبيعة إمكانية البداية الموفقة فهذا لم يحدث أَن سبَّب الأذى لأحد قبل الآن.

وعندما تكون موارد الأمة من المعدن غير كافية للوفاء باحتياجاتها من النَّقد، وعندما لا تعود قطع النَّقد المعدنية في حالات كثيرة هي الشكل الوحيد المقبول من النَّقد لوجود نقد ورقي بديل، تكون هناك ثلاثة مخارج. المخرج الأول هو العيش بواردات مالية غير كافية، مما يجعل الطلب على البضائع بأسعارها السائدة يتراجع باضطراد عن معدل توفر البضائع المعروضة للبيع، كما

تستمر الضغوط المؤدية إلى خفض مستوى الأسعار لفترة طويلة. وكثيراً ما جرت تلك العملية المؤلمة بشكل حل خاسر أدَّى إلى نتائج سياسية واجتماعية أليمة. ويعتبر الركود الكبير الذي وقع في ثلاثينيات القرن العشرين مثلاً واضحاً، وإن لم يكن المثل الوحيد، لتلك السياسة التي سنتعرَّف عليها لاحقاً.

والطريقة الثانية للتغلب على نقص المعادن التي يسك منها النَّقد هي جلب الذَّهب من مناطق أخرى إما عن طريق النهب أو عن طريق التجارة. وقد كان هذان الحلاَّن هما الباعث وراء مغامرات كبيرة وسياسات اقتصادية معقَّدة، لم تكن نتائجها دائماً سعيدة. أما الطريقة الثالثة، فهي الأبسط رغم أنَّها قد لا تكون ناجحة على المدى الطويل، وتقوم على استخدام نفس الكمية من المعدن لسكّ كمية أكبر من النَّقد.

ويعرف هذا الحل بخفض قيمة النَّقد debase، ويعني حرفياً خفض كمية العنصر المعدني الأساسي الذي تضرب منه قطع النَّقد، أو مزج المعدن الثمين بمعدن أقل قيمة، وترك القيمة الاسمية على حالها. وبمرور السنين أصبح تعبير خفض القيمة يعني أي مسعى لا مسؤول، أو طائش على أقل تقدير، لخلق نقد جديد من لا شيء ـ وهي عملية أصبحت الحكومات مع الزمن فائقة البراعة فيها. وفي الصفحات التالية سينصبّ الاهتمام على تلك الأساليب الثلاثة.

إن الابتكار المالي المعروف بخفض قيمة النَّقد ذو تاريخ طويل. فقد قام ديونيسيوس حاكم سيراقوزة (405 ـ 367)، مثلاً، باقتراض مبالغ طائلة من مواطنيه ووجد نفسه في مأزق صعب لدى محاولة التفكير بكيفية الوفاء بديونه. أمر بأن تحضر إليه كل القطع النّقديَّة المتوفرة في المدينة تحت طائلة الموت. ثم قام بتغيير الختم الموجود على تلك القطع بحيث أصبحت قطعة النَّقد التي قيمتها دراخما واحدة تساوي 2 دراخما، مما سهَّل عليه دفع ديونه[14]. صحيح أن أسلوب ديونيسيوس كان شديد التطرّف والقسوة، لكن جوهر العملية التي

قام بها ـ مثل كثير من الأمور التي تخص الإِغريق ـ أصبح تقليداً كلاسيكياً متبعاً.

تعلم أباطرة الرومان أَن يجعلوا من خفض قيمة النَّقد إِجراءاً عادياً يتكرَّر باستمرار. وقد يقول قائل بأَن الرومان لم يكن لديهم الخيار بالنظر للقوى المحرِّكة داخل مجتمعهم وإِمبراطوريتهم. فبالرغم من أَنَّهم نجحوا في تطوير واردات وفيرة من الذَّهب في سائر أرجاء إِمبراطوريتهم ـ بل إِنَّهم قاموا، في الواقع، بالتوسع في بعض الاتجاهات بعينها وكان هدفهم الرئيسي هو الحصول على مصادر جديدة من الذَّهب ـ برغم هذا النجاح، إِلاَّ أَن متطلباتهم المالية وظمأهم الذي لا يرتوي للتحلي بالذَّهب، كل ذلك كان يتزايد بسرعة جعلت من أي كمية من الذَّهب تتوفَّر لديهم غير كافية للوفاء باحتياجاتهم. والأهم من ذلك، أَنَّهم لم يكتسبوا الحصافة اللازمة التي تجعلهم يختارون بين الإِنفاق الحكومي وأمور الترف الحياتية.

لقد سنَّ الرومان أسلوباً في تخفيض قيمة النَّقد سار عليه الحكَّام فيما بعد عبر التاريخ في أشكال متنوعة ومختلفة، وإِن كان القليل منهم قد استطاعوا مجاراتهم في ذلك المجال. كانت الطريقة المعتادة في التخفيض هي سكّ النَّقد بحجم أصغر وبمحتوى معدني أقل، لكن دون المساس بقيمته الإِسمية، مما يجعل الكمية المتوفرة من المعدن تنتج عدداً أكبر من القطع النّقديَّة. وقد لقيت عملية التخفيض نجاحاً ملموساً، في الحالات التي كان يجري فيها خداع العامة بفكرة أَن النَّقد الجديد الذي تم إِصداره لا يترافق مع أية ظروف غير مؤاتية، لكنك لا تستطيع خداع كل الناس كل الوقت. فكثيراً ما أدَّى التخفيض إِلى قيام الناس بَصهر القطع النّقديَّة القديمة وإِحضار المعدن بشكله الخام إِلى دار سكّ النَّقد ليعودوا بقطع نقدية تحمل قيمة إِسمية وبعدد أكبر من عدد القطع التي كانوا قد صهروها. وكانت الدولة هي المستفيد من ذلك الدفق المتزايد من المعادن الثمينة الذي جاء نتيجة تلك العملية. ونظراً للطبيعة البدائية التي اتَّسم بها النظام

الضرائبي في تلك الأيام، فقد كانت عملية التخفيض تشكِّل أحد المصادر المهمّة للعائدات الحكومية.

كان نيرون هو أول إمبراطور يسلك سبيل التخفيض ـ وهو تطور ينبغي ألا يثير فينا الدهشة. لكن أسلوب نيرون في ذلك اتسم بالخسة رغم ولعه الأهوج بالرفاهية. ولقد أدَّى الإنفاق المبالغ فيه من قِبل من خلفوه على ملذاتهم الخاصَّة، بالإضافة لكلفة الجيوش والموظفين الإداريين في جميع أنحاء أوروبا المترامية الأطراف، أدَّى إلى الوصول بالموارد المالية للحكومة إلى شفير الهاوية. وبما أَن النقود الورقية والاعتمادات المصرفية لم تكن قد ابتكرت بعد، فإن التخفيض كان هو الطريقة الوحيدة المتاحة لخلق قدرة شرائية كافية لإرضاء المتطلبات المتنامية باستمرار.

وعندما أصبح غالينوس إمبراطوراً سنة 260 بعد الميلاد، كانت قطع النَّقد الفضية تحوي نسبة من المعدن أقل بستين بالمائة مما كانت عليه أيام كان أغسطس إمبراطوراً. ضرب غالينوس بدواعي الحذر عرض الحائط، ورغم أنَّه لم يحكم إلاَّ لمدة ثماني سنوات، إلاَّ أنه تدبّر أمر إنقاص محتوى الفضة في القطع النّقديَّة إلى ما لا يزيد على أربعة بالمائة. وكانت النتيجة حتمية: تضخماً ملحوظاً في الأَسعار. وقد قدّر أحد الخبراء أَن الأَسعار كانت ترتفع سنوياً بمعدّل يكاد لا يُذكر وهو 0,4 بالمائة خلال السنوات المائتين والعشرين التي انقضت بين فترة حكم أغسطس وبين استلام غالينوس الحكم كإمبراطور، ولكن خلال السنوات الأربع والثلاثين التي تلت بدء تلاعب غالينوس بالنَّقد وحتى أصبح ديوكليتيان إمبراطوراً، ارتفعت الأَسعار بنسبة تزيد على تسعة بالمائة سنوياً ـ مما يعني أنَّه في سنة 304 بعد الميلاد ارتفعت الأَسعار إلى ثلاثين ضعفاً عما كانت عليه في سنة 260 بعد الميلاد[15]. ولم يكن النَّقد الروماني عندها في حالة دمار مالي فقط، بل كان في حالة دمار مادي أيضاً. فقد تقلّص محتوى

النحاس في قطع النَّقد وأصبحت رقيقة وسهلة الكسر لدرجة لم يكن يمكن معها دمغ الختم إلاَّ على وجه واحد فقط.

ومع أَن قطع النَّقد الرومانية ذات الفئات الصغيرة أصبحت عديمة الفائدة من حيث الأساس، إلاَّ أَن القطع الذَّهبية حافظت على وضع أفضل. فقد خفض الرومان المحتوى الذهبي وحجم القطع بمرور الوقت، بحيث أمكن سكّ عدد أكبر منها وبنفس كمية الذَّهب، لكنهم لم يستسلموا لإِغراء مزج الذَّهب بالخلائط، وهي الطريقة التي أدَّت لتدهور قوة قطع النَّقد الرومانية النحاسية بل وبعض القطع الفضية، وحوَّلتها إِلى مجرد قطع غريبة نادرة.

بعد استلام ديوكليتيان السلطة سنة 284 بعد الميلاد، أمضى قرابة عشرين سنةً في محاولة إِصلاح النَّقد وضبط التضخم في ظل أَسعار متقلِّبة تبعث على الارتباك وذلك عن طريق تنظيم الإِنتاج. كان ديوكليتيان مدركاً لمقدرة الذَّهب على أَن يزج بالأمة في المتاعب. واستناداً لما قاله غيبون فقد أمر ديوكليتيان في سنة 296 بعد الميلاد بإِجراء تحقيق دقيق «بشأن الكتب القديمة التي تعالج فن صنع الذَّهب والفضة الرائع [أي الخيمياء وهو فن تحويل المعادن الخسيسة إِلى ذهب] وإِحراقها دون هوادة، نظراً لشعورنا الشديد بالقلق من أَن تؤدي الثروة التي يتمتع بها المصريون إِلى تشجيع [الرومانيين] على التمرّد على الإِمبراطورية»[16](*). شعر ديوكليتيان بالإِرهاق تحت وطأة أعباء كونه إِمبراطوراً، بالإِضافة لأمور أخرى، وفي سنة 305 تخلَّى طوعاً عن منصبه وانتقل للإِقامة في قصر جميل على الشاطىء الدلماسي حيث قضى البقية الباقية من حياته سعيداً إِلى حدّ ما.

(*) يشير غيبون إلى أن الخيمياء كانت معروفة منذ أيام الإمبراطورية المصرية. ويضيف بأن قرار ديوكليتيان هو «أول حدث موثّق في تاريخ الخيمياء». (المجلد الأول، ص 411).

خلف قسطنطين ديوكليتيان، وحكم من سنة 306 حتى سنة 337، حيث شرع مباشرة بتحسين إمكانية قبول العملة البيزنطية وإعادة الاحترام لها، وذلك بأن أصدر نقداً ذهبياً سمي بالصوليدوس الذّهبي solidus، والذي أصبح يُعرف فيما بعد بالبيزانط bezant. ولدى صدور القطع الأولى من البيزنط كانت تزن 4,55 غراماً ـ أي أنّها كانت أثقل من أيّة قطعة ذهبية أُخرى وُجدت آنذاك ـ وكانت ذهباً خالصاً بنسبة 98 بالمائة. وقياساً إلى السعر الحالي لأونصة الذّهب والبالغ 300 دولار أمريكي، يمكننا القول أن البيزنط بالأسعار الحالية للنقد يعادل 42,66 دولاراً أمريكياً، إلاّ أن القدرة الشرائية للذهب في عصر قسطنطين كانت أكبر منها في أيامنا الحالية. لا يخفى إذاً أن البيزنط كان يتمتع بقيمة كبيرة في تلك الأيام. واستمر سكّ البيزنط، دونما تغيير في وزنه أو نقائه لمدة سبعمائة سنة، أي بعد زمن طويل من سقوط روما بأيدي البرابرة. لهذا، فإن البيزنط يستحق أن يسجل في كتاب غينيس للأرقام القياسية، إذ أنّه لم يحدث في التاريخ أن حافظت عملة ما على طول بقائها لنفس المدّة[17].

لم يكن توفير الذّهب لسكّ النّقد يعتبر مشكلة بالنسبة لقسطنطين. فقد جلبت له فتوحاته في الشرق إتاوات هائلة. وقد استفاد جزئياً مما تعلّمه من ديوكليتيان حول السياسة المالية للحكومة، وأضاف عليها من عنده بأن فرض ضرائب جديدة لا تُدفع إلاّ ذهباً أو فضّة، واستفاد من هذه العائدات لتغذية دور السكّ من أجل تحويلها إلى قطع نقدية جديدة.

ولكن المورد الأغنى من الذّهب جاء نتيجة اعتناق قسطنطين للدين المسيحي، فقد جعله دين الدولة الرسمي سنة 313. وشرع، تحت إلهام رؤيا الصليب اللامع وعبارة: «سأنتصر تحت هذا الرمز»، بتجريد جميع المعابد الوثنية في أنحاء الإمبراطورية من الذّهب ومن بقية الكنوز التي تراكمت فيها بمرور القرون[18]. وقد تربّع جزء من هذا الذّهب على رأسه طوال الوقت تقريباً؛ فقد كان يضع على الدوام تاجه الذهبي المرصّع بالجواهر[19]. وبعد ما

يقارب الألف ومائتي سنة على عصر قسطنطين، وفي ثورة دينية أخرى، قام ملك إنكلترا هنري الثامن ـ الذي اشتهر أيضاً بتخفيضه لقيمة النَّقد ـ بحل جزء من مشكلاته المالية بأَن نهب الكنائس والأديرة الكاثوليكية تحت إسم القضاء على الدين «الوثني». كما قلَّد هنري قسطنطين بطرق أخرى أيضاً. فقد كان يحب إظهار قوته عن طريق ارتداء الذهب، فتاجه كان ذهبياً، وكان يضع سلاسل ذهبية حول عنقه، كما حيكت ثيابه من الذَّهب.

وبهذا، اكتملت الدائرة. فمن جديد، التقى دور الذَّهب كأداة للزينة الدينية، وكنقد. وعلى عكس العلاقة المبهمة بين هذين الدورين في عصر كرويسوس، فإن النَّقد بدا الآن على أنَّه الرابح، ليس على الذَّهب بشكل زينة فقط، بل على الذَّهب بحد ذاته. واعتباراً من تلك اللحظة، لم يعد امتلاك الذهب أمراً يتعلَّق بالحق أَو بالامتياز أَو بالمركز في السلم الاجتماعي. فقد أصبح بالإمكان كسبه عن طريق العمل أَو النهب أَو اكتشافه من جديد في الأنهر والجبال. ومهما يكن المصدر، فإن زيادة المخزون كانت تبعث على الشعور بالإثارة لأن الذَّهب هو الطريق السريع نحو المال ـ وبالتالي نحو القوَّة.

4

الرمـز والإِيمــان

إذا نحن تقدمنا في الزمن قليلاً مروراً بسقوط الإِمبراطورية الرومانية وصولاً إِلى مرحلة بزوغ إِمبراطوريات جديدة في الشرق، لرأينا بأَن الذَّهب قد اكتسب أَهميَّة أكبر من أهميته في الماضي سواء كأداة للزينة أم كنقد. فمراكز القوة تبرز وتختفي والنُّظم المالية تنمو وتتلاشى وتتكشف مصادر جديدة للذهب، لكن التركيز على الذَّهب يبقى ثابتاً لا يتغيَّر ليربط عصراً ما بالعصر الذي يليه. فلا شيء سوى الذَّهب يعود بالمنفعة على أمة تسعى لاكتساب القوة.

في سنة 200 بعد الميلاد، عندما بلغت الإِمبراطورية الرومانية عمراً يناهز عمر الولايات المتحدة الأمريكية سنة 2000 بعد الميلاد، بدأت عاصمة الإِمبراطورية تفقد سلطانها على الأقاليم البعيدة، لكن قطع النَّقد الرومانية كانت ما تزال قيد التداول في كل مكان. وكان النَّقد الروماني، كالدولار الأمريكي، قد فقد قوته الشرائية، وفي بعض المناطق، فقد الاحترام الذي تمتع به في

السابق، ومع ذلك، كان هو النَّقد الوحيد المتداول في جميع أنحاء الإمبراطورية.

وعندما استسلمت الأقاليم الأوروبية التي كانت خاضعة لروما، إلى غزوات البرابرة وتعرّضت لأعمال النهب، اختفت منها العملة التي كانت شائعة التداول. ولم يتوقف تداول العملة نتيجة أي مرسوم أو اتفاق بين الحكّام الجُدد الذين كثر عددهم داخل حدود الإمبراطورية القديمة. فقد توارت العملة الرومانية عن الأنظار لأن قطع النَّقد ذاتها قد اختفت.

لم تكن هناك حاجة كبيرة للنقد في ظل الدمار والأهوال التي ألقت بظلالها على السنوات الأولى من عصور الظلام. فقد تلاشت تقريباً حركة التجارة والسفر عبر أوروبا. وحلَّ الخراب بالحياة في المدن نظراً لتجمّع الناس حول أقرب ما يمكنهم بلوغه من مصادر الغذاء، كما أن البرابرة أنفسهم كانوا قد أتوا من مجتمعات ريفية ولم يكونوا معتادين على الحياة في المدن. أما الطُّرق الرومانية الرائعة فقد تحولت إلى أخاديد، وتدهورت مهارات البناء بالآجر. ولم تكن هناك ثمة حاجة للنقود لدفع رواتب الجنود نظراً لأن الجيوش التي كانت تُشرف عليها الحكومة، تمَّت الاستعاضة عنها بزُمَرٍ من الهمج الرحّل الذين عاشوا على مشارف الأقاليم.

ولكن القطع النّقديَّة مصنوعة من مادة صلبة. فهي لا تتلاشى في الهواء، على عكس الدولارات التي تظهر على شاشة الكمبيوتر. ولقد حافظت القطع النّقديَّة الرومانية على وجودها وكأن شيئاً لم يحدث، رغم ندرة تداولها كنقد. فإلى أين ذهبت إذاً؟...

لقد قام النَّاس بتخزين القطع النّقديَّة والقطع الذَّهبية الأخرى وذلك في مواجهة الشعور المخيف بالقلق والوحشة في تلك الأيام. ولقد اكتشف علماء الآثار كميات ضخمة من الكنوز المطمورة منذ عصور الظلام في كل أنحاء أوروبا، حتى في إسكندنافيا في أقصى الشمال. وقد استمر تخزين الذَّهب في

أوقات القلق والخوف عبر معظم مراحل التاريخ التي تلت تلك الأيام، واتخذ نفس الشكل البدائي أحياناً، واتخذ أشكالاً أكثر تطوراً في أحيان أخرى. فمن حيث المبدأ، ليس هناك فرق كبير بين طمر الذَّهب في فسحة المنزل الخلفية خلال عصور الظلام، وبين الجهود اليائسة التي سنراها لاحقاً، والهادفة لإيجاد احتياطي من الذَّهب ومن ثم الحفاظ عليه في بنك إنجلترا خلال سنتي 1930 و1931.

وحيث أَن الذَّهب عنصر خامل كيميائياً، فهو يصمد أمام مرور الزمن وأمام التلف الذي تحدثه الطبيعة وأمام تقلّبات الطقس وألاعيب البشر. فعندما سقطت روما، كانت كل أونصة تقريباً من الذَّهب تمَّ تعدينها أَو استخراجها من الجداول الجبلية منذ فجر التاريخ، كانت لا تزال موجودة في مكان ما، وقد اتخذت شكلاً معيناً وصمّمت لتستخدم بشكل محدد، عدا الذَّهب الذي فقد في الأنواء البحرية(*). وحتى هذا الذَّهب المفقود، ظل يلمع في مدفنه تحت المياه بانتظار من يريد استرجاعه يوماً ما. ولقد مرّت كميات كثيرة من الذَّهب المتوفِّر في العالم بالعديد من التحولات على مرّ القرون، لكن تلك الكميات كانت لا تزال هناك ـ حول أصابع اليدين وأصابع القدمين أَو حول الأعناق أَو مخبأة بالمخازن، أَو على شكل نقد أَو في القصور أَو في دور العبادة أَو في السفن الضخمة الغارقة في البحر. فعلى سبيل المثال، عندما دفن تشيلدريك، مؤسِّس السلالة الميروفية في بلاد الغال، سنة 481، وضع في قبره الكثير من قطع الذَّهب بما في ذلك ثلاثمائة نحلة ذهبية زينت رداءه الرسمي[1]. وفي واقع الأمر إنّ قطع النَّقد الرومانية والمجوهرات ومواضع العبادة في أماكن كثيرة، لا بدَّ وأنها تحوي أَجزاء من الذَّهب تعود إلى مصادر قديمة، كالهدية السخية التي

(*) إن الذهب معدن لين ومطواع بحيث أن بعضاً منه قد يختفي، وبخاصة عندما يكون على شكل قطع نقدية وذلك لسبب بسيط، وهو الحك المتواصل أثناء انتقاله من يدٍ إلى أخرى.

قدّمتها ملكة سبأ إلى سليمان، والعمود الضخم الذي أقامته حتشبسوت وحوض استحمام داريوس وحتى العجل الذهبي على سفوح جبل سيناء. وفي وقتنا الحالي إنَّ أغلب السبائك الذَّهبية والكثير من المجوهرات وعدد لا يُحصى من القطع التزيينة تعود إلى المنبع ذاته.

إن الأحداث التي تلت سقوط روما، كانت متنوعة من حيث الزمان والمكان بحيث يصعب جمع تفاصيلها بإحكام. فالعصور التي دُعيت بعصور الظلام لم تخل من بعض خيوط النور التي انسابت إليها في بعض الأحيان، بالإضافة إلى أنَّه على رغم الاختلاف الكبير بين تاريخ الإمبراطورية الرومانية الشرقية في القسطنطينية وبين ما حدث في أوروبا، فإن التفاعل بين الشرق والغرب قد استمر بحيث أن أي مسعى لتمييز أحد التاريخين عن الآخر بشكل قاطع، ربما أدَّى إلى التشويش أكثر منه إلى التوضيح.

وقد كان الاهتمام الشديد بالذَّهب هو أحد القوى الرئيسة التي أدَّت إلى ربط المنطقتين بعضهما ببعض. فقد لعب الذهب، بوصفه نقداً ووسيلة للزينة، دوراً مركزياً في بيزنطة. وفي أوروبا، بدأت الممالك الوليدة التي لم يكن قادتها قد سمعوا باسم كرويسوس أو كراسوس، بضرب نقدها الذَّهبي بأسرع ما يمكن، كما ازدهر فن صناعة المجوهرات حتى ضمن أكثر الظروف السياسية بدائية، وهكذا، فإن الزواج التقليدي بين وسائل الزينة الذَّهبية وبين الدين ـ رغم أنَّه لم يخل من المشاكل شأنه شأن الكثير من الزيجات ـ إلاَّ أنه لم يصل إلى مرحلة الطلاق.

سنلقي أولاً نظرة على بيزنطة، ويعود السبب جزئياً إلى أن تاريخها ليس معروفاً بنفس الدرجة كتاريخ أوروبا. والسبب الأهم، هو أن الذَّهب الذي

شكَّل عاملاً مهمَّاً في الإمبراطورية البيزنطية قبل وقت طويل من بداية الاهتمام الشديد به في الغرب.

استمر حكم الأباطرة البيزنطيين من القسطنطينية لمدة تزيد على ألف سنة. ويمكن القول، عموماً، بأنَّهم شكَّلوا مجموعة من الأشخاص الفاسدين والمتآمرين القساة. وتُعتبر قصة آيرين المرعبة نموذجاً لذلك العصر. ففي سنة 780، أصبحت آيرين وصية على ابنها قسطنطين السادس، الذي كان في العاشرة من عمره، واعتبرت هي أن مقدار السلطة الذي منحته لها الوصاية لم يكن كافياً ولا دائماً، لذا تآمرت على قسطنطين الصغير سنة 792، ثم دبَّرت أمر اعتقاله وسمل عينيه لتتأكَّد من أنَّه قد أصبح عاجزاً تماماً. حكمت آيرين مدة عشر سنوات لا كإمبراطورة بل كإمبراطور. وفي سنة 802 جاء دورها، فقد تم خلعها عن العرش على يد وزير ماليتها نيسوفوروس، ونفيت إلى ليسبوس[2]. اعتلى نيسوفوروس العرش مدة تسع سنين قبل أن يُقتل في كمين في شعب جبلي أثناء حملته ضد البلغار. وقد أمر كروم، قائد البلغار، بأن تُكسى جمجمة نيسوفوروس بالفضة من الداخل ليستخدمها ككأس للشراب[3].

إنَّ الإمبراطور الذي أفضله أكثر من غيره ضمن سلسلة الأباطرة هو بازيل الثاني (ويعرف أيضاً باسم بازيل بلغاروكتونوس، أو «ذابح البلغار»)، وقد حكم في الفترة ما بين سنتي 976 ـ 1025. كان بازيل مثالاً يُحتذى لشخصية الوغد في الأفلام الأولى لهوليوود. فقد وُصف بأنَّه «حقير وقاسٍ وسريع الغضب»، ذو شاربين كثّين يحب أن يفتلهما بأصابعه في لحظات الغضب الشديد أو في المقابلات الرسمية[4]. كان بازيل هذا قاتلاً بقدر ما كان مظهره يوحي بذلك، فبعد أحد الانتصارات الكبيرة التي حقَّقها على البلغار، أمر بسمل أعين كل جنود العدو الذين نجوا من الهجوم الضاري الذي قام به، ومن بين كل مائة رجل أعفى واحداً فقط ليتمكَّن هؤلاء المبصرون من قيادة الناجين التعساء

العائدين إلى قيصرهم. لم يحتمل القيصر منظر جنوده المشوهين لدى وصولهم، فأُصيب بسكتة قلبية لهول الصدمة ومات على الفور[5].

قد يكون الأباطرة البيزنطيون جلّلوا فترات حكمهم بالعار من الناحيتين الأخلاقية والسياسية، لكن سلامة بيزنط قسطنطين الذهبي ونقاءه وشهرته وإمكانية قبوله، كان الشغل الشاغل بالنسبة لهم جميعاً. وما يميِّز كل تاريخ الإمبراطورية البيزنطية هو هوس التركيز على الذَّهب، ليس بشكل نقد فحسب، ولكن كإعلان عن ثروة لا تُضاهى. كان الذَّهب هو الوسيلة الرئيسيَّة التي استخدمها الأباطرة، بالإضافة إلى القسوة والبطش، لضم أنحاء مناطق نفوذهم المبعثرة والمتباينة بعضها إلى بعض. وقد قام البيزنط الذهبي بتمويل واردات الإمبراطورية وجيوشها وتحالفاتها مع الأُمم الأخرى.

كان الجهد الذي بذله جستنيان للتفوّق على سليمان، وذلك في بناء كنيسة القدِّيسة صوفيا وتزيينها بمخزون من الذَّهب، كان قد ورثه، بلغ ما يقارب الثلاثمائة ألف باوند، كان ذلك مثالاً آخر على الإفراط في استخدام المعروضات الذَّهبية في استعراض صارخ للقوة، وقد كانت القصور المليئة بالمتاهات والتي اقتناها الأَباطرة على ضفاف البوسفور، مكسوة بزخارف غنية بالذَّهب وبالجواهر الثمينة، إذ أن أسلوبهم لم يكن يتّسم بالبساطة. لكن الإمبراطور ثيوفيلوس أحرز قصب السبق في مضمار التباهي والتفاخر، فقد أمر بصنع شجرة ذهبية لتظلِّل عرشه الذهبي. وكان يحف بالشجرة وبالعرش طيور وأسود وحيوانات خرافية نصفها نسر ونصفها الآخر أسد، وكلها مصنوعة من الذَّهب، ولدى وصول زائر، كانت الأسود تلوح بذيولها وتزأر، بينما تصدح الطيور بالترحيب[6].

وقد جرى استخدام الذَّهب بطُرق متنوعة وواسعة بحيث استُدعي صاغة القسطنطينية المهرة للعمل في جميع أنحاء أوروبا، وبخاصة في إِيطاليا. وكانوا هم الفنَّانين الرئيسيين في عصور الظلام، خلال تلك القرون التي لم تكن فيها فنون الرسم والنحت والعمارة قد أصبحت بعد هي الأشكال السائدة للفن، فقد عملوا في الفسيفساء التي تغطي مداخل سانت مارك في البندقية، وفي الفسيفساء التي تأخذ الألباب في كنيسة سان ڤيتال في رافينا جنوب البندقية، ووصلوا حتى مونريال خارج باليرمو، وعندما رأى الصاغة الأوروبيون تلك الأعمال الجميلة الدقيقة التي نفَّذها نظراؤهم البيزنطيون، غدا الأسلوب البيزنطي هو الأسلوب الشائع في مستهل العصور الوسطى. وكان شفيع الصياغ، القديس إِيلوي (641 ـ 660) المعروف أيضاً باسم (القديس إِيليجيوس)، راهباً وقيّماً على دار السكّ، أتى من بلاد الغال في القرن السابع وتعلم مهاراته في القسطنطينية[7]. ويشهد ظهوره المتكرر في اللوحات خلال القرن الخامس عشر على مقدار أهميته وشهرته. أما الصاغة الإِنكليز، فقد كان لهم شفيعهم الخاص، القديس دانستان، وهو راهب بنيدكتي وفنَّان ماهر، كان رئيس أساقفة كانتربري منذ سنة 960 وحتى سنة 988. ويبدو أنَّه كان رجلاً فذّاً: ففي مطرزة ذهبية تعود لسنة 1470، نراه في مشغله يلوي أنف الشيطان[8].

لم يعدُ الذَّهب المعروض للعيان كونه واجهة فحسب، فخلف الكواليس كان الأَباطرة يكنزون كمياتٍ من القطع النّقديَّة والسبائك. فقد كان لدى بازيل بلغاروكتونوس ما يربو على مائتي ألف باوند من الذَّهب، خزّن معظمها في غرف تحت الأَرض. وفي سنة 530 تقريباً، امتلك الإِمبراطور أناستاسيوس ما يقارب الثلاثمائة ألف باوند. أما الإِمبراطورة تيودورا، التي حكمت بعد آيرين بأربعين سنةً تقريباً، فقد كانت تمتلك لدى وفاتها مائة ألف باوند. ولا شك بأن تلك المبالغ كانت مبالغ ضخمة بالقياس لعصرها، لكنها تشكِّل تبايناً مثيراً مع

عصرنا الحالي الذي تحسب فيه مخزونات الذَّهب بألوف الأطنان لا بألوف الباوندات.

لقد شكَّل الذَّهب غطاء آمناً. فكثيراً ما كان الحكام البيزنطيون يذهبون للحرب، وعندها كان يتعين دفع مرتبات الجنود ذهباً، لكن الأَباطرة لم يصلوا قط لمرحلة توقف فيها تهديد الأعداء. فقد كانت الإمبراطورية مهدَّدة باستمرار من الغرب من قِبل البلغار والقبائل الجرمانية، وبعد القرن السابع، تهددها من الشرق والجنوب الجيوش الإسلامية التي كانت تهاجم كل كافر يقع تحت أنظارها. وبما أن البيزنطيين لم يكن بإمكانهم أن يقاتلوا على جميع الجبهات في نفس الوقت، فقد كانوا يدفعون إتاوات ذهبية لا تنقطع لإبقاء أعدائهم في وضع حرج، وذلك بأن يدفعوا مباشرة للمعتدين المحتملين اتقاء شرهم، أَو بأن يقدموا الرشاوى للحلفاء الأوروبيين ليؤمنوا لهم الحماية. ويدعى ذلك في وقتنا الراهن: الأمان الذي يستنفد الموارد.

كان ذلك الأسلوب مهماً بشكل خاص فيما يتعلَّق باللومبارديين، الذين ربطتهم بالأَباطرة البيزنطيين علاقة طويلة ولكنها غير مستقرّة. وقد جاء اللومارديون الذين عُرفوا أصلاً باسم لانغوباردز Langobards (ذوي اللحى الطويلة)، من أراضي هنغاريا الحالية. وخلال الفترة ما بين 568 ـ 569 قاموا، بمساعدة الساكسون والسلاف، بغزو إيطاليا بجيش مؤلَّف من مائة ألف رجل يقودهم ملكهم ألبوين ـ وهذا هو سبب تسمية شمال إيطاليا باسم لومبارديا(*). وقد لاقى ألبوين المسكين نهاية غير سارَّة. فخلال احتفال صاخب، رغب في تقليد فظائع كروم قائد البلغار بأن حاول إقناع زوجته روزاموند أن تشرب من

(*) ربما يود القراء الميالون للأسماء ذات الإيقاع النابض بالحيوية، أن يعرفوا بأن اسم سَلَف ألبوين Alboin كان واتشهو Wachho.

جمجمة أبيها، وهو ملك قبيلة معادية كان ألبوين قد قتله. لم ترق الفكرة لروزاموند التي قتلته على الفور[9].

شكّل الغزو اللومباردي الواسع لشمال إيطاليا تهديداً للممتلكات البيزنطية الثمينة في البندقية وفي رافينا. فبدون الذَّهب، يضيع كل شيء. قام الأباطرة أول الأمر برشوة بعض الجماعات من اللومبارديين لتحارب جماعات لومباردية أخرى. ثم قاموا ببذل الذَّهب لكسب الفرنكيين إلى صفّهم وهم قبيلة جرمانية أخرى استقرَّت في بلاد الغال، أو فرنسا الحالية. واستمرّ الذَّهب في التنقّل من أيدي البيزنطيين إلى الفرنكيين، ومن أيدي البيزنطيين إلى اللومبارديين ليعود فينتقل بين اللومبارديين والفرنكيين، إذ كان كل فريق يستخدم الذَّهب لرشوة الآخرين أو لاتقاء شرّهم.

ودامت الحروب بين اللومبارديين أنفسهم مستعرة حتى منتصف القرن الثامن حيث توصَّلوا في النهاية إلى توحيد كلمتهم. كانت الملكية التي أسَّسها اللومباردیون راسخة ومبعثاً للتهديد بحيث لم يكن البيزنطيون وحدهم هم من قرَّروا أن من الواجب القيام بتصرّف حاسم ونهائي ـ وحتى البابا أخذ جانب البيزنطيين هذه المرة. ففي سنتي 754 و756 ضم الاثنان جهودهما لدعم غزو شامل للومبارديا قام به الفرنكيون، وكان العامل المحرِّك لهذا الغزو رشوة بلغت خمسين ألف صوليدوس ذهبي[10].

بعد أن هزم الفرنكيون اللومبارديين وصدّوهم، شرعوا بجباية الإتاوات من كل من حلفائهم وأعدائهم المهزومين ـ ووصلوا في إحدى المراحل إلى أن يقوموا بجباية إتاوات سنوية وصلت إلى إثني عشر ألف صوليدوس[11]. إنَّ تراكم كل ذلك الذَّهب في ما سيصبح فرنسا يوماً ما يفسِّر كون الملوك الميروفيين هم الذين بدؤوا بالعودة لسكّ النَّقد الذَّهبي في أوروبا بعد سقوط روما. وخلال الفترة ما بين 773 ـ 774، قام الملك شارلمان، ملك الفرنكيين الميروفي، بإخضاع مملكة لومبارديا وألحقها بإمبراطوريته. وفي المقابل، قام

البابا بتتويجه إمبراطوراً على الإمبراطورية الرومانية المقدّسة وذلك في سنة 800. ولعدة قرون تلت بقي الفرنسيون يتوقون لأن تصبح لومبارديا جزءاً من مملكتهم الطبيعيَّة، حتى جاء فرانسيس الأَول الذي طالب بها وأعادها لفرنسا سنة 1515، لكنه لم ينل من البابا في تلك المناسبة إلاَّ وجبة احتفالية باذخة ـ ولم يطل به الأمر حتى خسر لومبارديا مرة أخرى أمام إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدّسة في ذلك الوقت.

من أين أتى كل ذلك الذَّهب؟ . . . إنَّ مكانة البيزنطيين المتفوقة في عالم العصور الوسطى لم تكن لتعتمد على مصادر محلية من الذَّهب، كما أن موارد الذَّهب من نهر باكتولوس، التي بدت لكرويسوس كبئر لا قرار له، كانت قد نضبت منذ وقت طويل، ولم يكن هناك ما يشير إلى وجود مصادر مهمَّة أخرى في الأراضي البيزنطية. ورغم أن جزءاً من الذَّهب كان يأتي من خلف الحدود الشرقية أي من مناطق بعيدة مثل روسيا، إلاَّ أن أغنى مصدر للذهب المعدّن كان في مناجم النوبة القديمة جنوب مصر وفي السودان.

ولسوء الحظ، لم يطل الأمر بالنوبة كمورد للبيزنطيين، فقد قام العرب المسلمون بإخضاع تلك المناطق في القرن السابع، وأقاموا علاقات دائمة مع النوبيين، وهكذا، وبضربة صاعقة، قطعوا مصدراً كان يبدو وكأنَّه لن ينضب، مصدراً نَعِمَ البيزنطيون بثماره طويلاً.

كانت تلك صدمة مروعة. وقد وصف أحد المؤرخين واسمه روبرت سابا تينو لوبيز، وهو عالم بارز في تاريخ النَّقد، وصف ما حدث بالقول: «لقد غدت الإمبراطورية التي كانت مثار دهشة العالم لوفرة ثرواتها وفيض نقدها الذَّهبي، أصبحت عرضة للتهديد الدائم بنضوب مخزونها من المعادن الثمينة»[12]. وأمست التجارة والحملات العسكرية والضرائب وأعمال النهب

الظالمة هي السبيل الوحيد لسدّ حاجات ولع الأَباطرة بالذَّهب، ذلك الوقع الذي شكّل أساساً للوهم الذي استمدوا منه جزءاً كبيراً من قوتهم. وقد جلبت الانتصارات العسكرية أكثر من مجرد الغنائم من الجيوش المهزومة (عندما استولى نيسفوروس على الكنز الملكي البلغاري، وضع دمغة الختم الإمبراطوري على كل قطعة منه)[13]. وبأسلوب يشبه برامج الخصخصة المعاصرة، تمّ توزيع الأراضي المصادَرة على المسؤولين والجنود والبحّارة مما أدَّى إلى إيجاد دخل جديد للضرائب. ومع ذلك، بقيت الانتصارات في ميادين القتال مصدراً غير مضمون أَو ثابت، أَما الضرائب فكانت مصدراً يمكن التنبؤ بنتائجه، وتقدّم مساعي وكلاء الإمبراطور في هذا المضمار، القاسية والوحشية والخالية من الرأفة، مثالاً ربما أثار حسد أي جابٍ معاصر للضرائب. ولكن هناك حدود حتى لفرض الضرائب.

كانت نتيجة خسارة النوبة أن أصبحت التجارة الوسيلة الرئيسية لجلب الذَّهب إلى خزائن الأَباطرة، وإلى التجارة وأصحاب الصناعات الذين شكَّلوا المصدر الرئيسي لعائدات الضرائب. وقد اتّخذت التجارة البيزنطية شكل مثلث يضم أوروبا من جهة، والمسلمين في الجنوب من جهة أخرى. ولم تكن بيزنطة تستورد إلاَّ القليل من سلع الأوروبيين إلاَّ أنَّها كانت تبيعهم وسائل الترف التي تضمَّنت أجمل الأنسجة وأبدع الأعمال الفنيَّة لصاغة الذَّهب. أما الأقمشة الحريرية المنسوجة في القسطنطينية والمجوهرات ومواد الزينة التي أبدعها الصياغ، فقد كانت شديدة الرواج في أوروبا، واشتد الطلب عليها إلى الحد الذي دفع بالبيزنطيين إلى البدء بصناعة الحرير بأنفسهم. وقد جلبت تلك الصادرات من الذَّهب ما يكفي لإعادة التوازن إلى فائض الواردات الذي كان قائماً على الدوام مع الدول الإسلامية. كما حافظ المسلمون على توازن تجاري إيجابي مع أوروبا، حيث باعوها وسائل الترف وزيت الزيتون والجياد مقابل الأخشاب والحديد والعبيد[14].

بعد خسارة النوبة مباشرة، وضع الأَباطرة جملة من الترتيبات الهادفة لتسهيل النشاط التجاري مع الدول الأخرى، بما في ذلك إِجراء تحسينات هامَّة على مرافق الميناء حيث أصبح بإِمكان المسؤولين حماية البضائع من اللصوص. كما فرض الأَباطرة ضوابط على التجارة بشكل قيود صارمة على تصدير الذَّهب والمواد الغذائية الأساسية، وبذلوا جهوداً متواصلة لتحديد الواردات وجعلها مقتصرة على المواد الغذائية والمواد الخام التي لا يجري إِنتاجها في الإِمبراطورية. كل ذلك جعل رجال الجمارك لا يتوقفون عن العمل في تفتيش أمتعة المسافرين والقيام بزيارات تفتيش مفاجئة على الحوانيت وضبط حركة السبائك الذَّهبية والبيزنط الذَّهبي ومنع القطع النّقديَّة المزورة من التسلل إِلى مجال التداول.

رغم كل ذلك، فشلت الحكومة البيزنطية في تطوير أية خطة منهجية لتشجيع الصناعة أَو حتى لمسك الدفاتر فيما يتعلَّق بالواردات والصادرات. ولكن على أية حال، لا يمكن فعلياً تتبع مسارات من هذا النوع دون وجود مصرف مركزي أَو أية منشأة أخرى يعبر كل الدفق المالي من خلالها في نهاية المطاف. كان كل تاجر يسوي حساباته الخاصة مع التجار في الدول الأخرى، ولهذا، كان تدفق النَّقد الإِجمالي في كلا الاتجاهين كبيراً، أما التدفق الصافي سواء نحو الداخل أَو الخارج فقد كان غير واضح المعالم.

كانت العملية برمتها ستواجه فشلاً ذريعاً لولا وجود البيزنط. ففي كل من المجالين العسكري والتجاري، شكَّلت تلك العملة الذَّهبية الرائعة والمسماة بالبيزنط أساساً للثروة والنجاح المالي في بيزنطة. ولم يدخر الأَباطرة وسعاً في اتباع الأسلوب الليدي القائم على استخدام النَّقد الذَّهبي ليس كمجرد مال ولكن بوصفه وسيلة للعلاقات العامة والدعاية كسبيل للتأكيد على قوتهم وثروتهم. وقد وصف أحد معاصري جوستنيان الوضع بقوله إن العملة الذهبية للإِمبراطورية كانت «مقبولة في كل مكان من أَول أركان الأَرض وحتى آخرها.

وهي تحظى بإعجاب الجميع في جميع الممالك، لأنَّه لا توجد مملكة لديها عملة تمكن مقارنتها بها». كما صرَّح معاصر آخر: «لا يحق للملك الفارسي أَو لأي ملك آخر في كل أصقاع العالم الهمجي أن يطبع رسمه على دينار ذهبي، حتى ولو وُجد الذَّهب في مملكته، ذلك لأنهم لا يستطيعون تقديم عملة كهذه إلى من يعقدون معهم صفقات العمل». وبعد مائة سنة، شن جوستان الثاني (658 ـ 711) الحرب على العرب لأن الخليفة ضرب عملة ذهبية ووضع رسمه عليها. خسر جوستنيان الحرب، لكن الهزيمة لم تثن المؤرخ البيزنطي عن القول: «لا يسمح بدمغ أية علامة على النَّقد الذَّهبي عدا رسم إمبراطور الرومان»[15]. لكن جوستنيان بالإضافة لذلك، كسب نصراً معنوياً في ذلك الصراع، إذ أن المسلمين قاموا لاحقاً بوضع الآيات القرآنية عوضاً عن الشخصيات الدينية المطبوعة على البيزنط، وبذلك تميز الدينار العربي عن غيره لعدة مئات من السنين[16].

لم يفقد البيزنط شهرته بانقضاء القرون: ففي تاريخ ليس بالبعيد، وهو سنة 1951، وصف لوبيز البيزنط بأنَّه «دولار العصور الوسطى». ولربما كان أفضل حتى من الدولار «فلقد تفوق البيزنط على الدولار من حيث ثباته وقيمته الفعليَّة. لم يحدث أن توصلت عملة أخرى إلى أن تكون مساوية له أَو حتى أن تكون قريبة منه»[17]. ويمضي لوبيز ليؤكد أن «البيزنط كان أَكثر من مجرد كتلة من الذَّهب. كان رمزاً وضرباً من الإيمان، وهو رسول الإمبراطور المميز إلى شعبه، وسفير الشعب المختار إلى سائر أمم الأرض»[18].

حملت الإصدارات الأولى من قطع البيزنط رسوم الأَباطرة، ورسوم الزوجات في بعض المناسبات، وأيضاً رسوم الأبناء في كثير من الأحيان. ثم قرر جوستنيان ألا يكتفي بإظهار أهميته بل وورعه كذلك. فقام بخطوة ثوريَّة تمثَّلت في القيام بوضع رسم جذع السيد المسيح، تحيط برأسه هالة، على العملة التي ضربها. فكانت تلك مبالغة في ذلك العصر. وقد شكَّلت جرأة

جوستنيان هذه، الشرارة التي أشعلت نار حركة معارضة توقير الرموز الدينيَّة iconoclasm، وذلك عندما هبَّت الجماهير والأَباطرة للقضاء على جميع تعاليم تبجيل الصور والممارسات داخل الكنائس. كان سكّ ذلك النَّقد حادثاً عرضياً، فقد تركَّزت الحركة بشكل رئيسي على الأيقونات ذات الهالات الذَّهبيَّة التي زيَّنت جدران الكنائس، والتي أصبحت تعتبر هدفاً لمشاعر التبجيل التي تحوَّلت إِلى شكل من أشكال العبادة. حيث كانت تلك الأيقونات تعتبر مسارات تمر بها القوة العليا وهي في طريقها إِلى البشر. ولم تشكِّل نتيجة هذه الحركة أية خسارة للأَباطرة: فقد ملؤوا خزائنهم بالذَّهب الذي تم انتزاعه من أماكن العبادة على يد مناوئي توقير الرموز الدينيَّة. إِذاً، لم يختف الذَّهب المنتزع من الأيقونات البيزنطيَّة، تماماً مثلما أن الذهب الروماني لم يختف أيضاً، فقد عاد للظهور في أماكن وأشكال جديدة.

أصبحت حركة معارضة توقير الرموز الدينيَّة iconoclasm سياسة رسميَّة سنة 730 في ظل حكم ليو الثالث (741 ـ 717)، وأدَّت إِلى فترة من الاضطهاد الوحشي لرجال الدين المعارضين لها، دامت لأَكثر من مائة سنة، رافقتها معارك عسكريَّة شنَّت ضد كل من يتجرأ على الاستمرار في الاعتقاد بالأفكار القديمة. وتقول الرواية أن ليو كان شخصاً أثيراً ومقرّباً من جوستنيان الثاني، ضارب النَّقد الذي لم يحسن التصرف. وكترجيع لقصة جيسون والجزة الذَّهبيَّة، بدأ الشك يساور جوستنيان بشأن ليو، لذا قام بإِرساله في مهمة بالغة الخطورة في أقصى الحدود الشرقيَّة. وكانت مفاجأة لجوستنيان أن أنجز ليو مهمته وعاد إِلى قسطنطينيَّة سليماً معافى. وفي سنة 717 وبعد مرور فترتي حُكْم لإِمبراطورين، سار ليو بجنوده ودخل العاصمة ليستولي على السلطة وليعتلي العرش.

كان ليو قائداً عسكرياً فذّاً أحرز عدة انتصارات تضاف إِلى انتصاراته على مناوئي حركة الإِيكونوكلازم. وقد حكم إِمبراطوريَّة شملت كل تركيا الحاليَّة إِضافة إِلى ثلاثمائة ميل بعد الساحل الشرقي للبحر الأسود، وجزيرتي قبرص

وكريت وكل الساحل الغربي لبحر الأدرياتيك وكامل الجنوب الإيطالي وصولاً إلى مائة ميل تقريباً شمالي نابولي. وكان يقوم بالدفاع عن أراضيه ضد هجمات العرب المتكرِّرة من الأَرض والبحر، فقد كان العرب شديدي الرغبة في إنشاء موقع متقدم لهم في جنوب شرق أوروبا. وعندما كان ليو يتوقف عن قتاله المفعم بالتصميم والشجاعة على الجبهة الدينيَّة ضد مناوئي حركة الإيكونوكلازم، كان يتفرّغ لإجبار اليهود المقيمين ضمن أراضيه على الإذعان للمعموديَّة[19].

تمّت الخطوة الأولى باتجاه استعادة عبادة الصور بتحريض من الإمبراطوريَّة آيرين التي قامت بتنظيم مجلس كنسي عام في القسطنطينيَّة سنة 786. وفي المقابل، قامت الكنيسة الأرثوذكسيَّة برفع آيرين إلى مرتبة القديسين على الرغم من كل ما أحاط بشخصيتها وفضيلتها من عيوب[20]. وأخيراً انتهت مرحلة الإيكونوكلازم بشكل رسمي سنة 843 بأمر من تيودورا التي اكتفت وبكل تواضع بحمل لقب إمبراطورة. عادت الأيقونات لتحتل مواقعها السابقة وعاد توقيرها ليسترد مكانته في العقيدة الأرثوذكسيَّة. وسرعان ما لحق تصميم النَّقد بالرَكْب. فقد بدأت تظهر رسوم أجسام الأَباطرة وهم يرتدون الخوذات ويحملون الصلبان، وقد وُضع رسم المسيح أحياناً على الوجه المقابل لصورة الإمبراطور، كما ذهب جون الأَول تسيميسيس إلى أبعد من ذلك، فقد أصدر نقداً يحمل رسمه والسيدة العذراء ذاتها تقوم بتتويجه وتبدو يد الرب في أعلى الرسم[21].

بدا كل ذلك رائعاً بطريقته الخاصة طالما أنَّه كان مستمراً في البقاء، ولكنه لم يحدث في التاريخ أن دام سلطان دولة ما على أخرى إلى الأبد. فبعد سقوط القسطنطينيَّة بيد الصليبيين سنة 1204، بدأ البيزنط يفقد نقاءه نظراً لإنقاص نسبة الذَّهب فيه، وبالتالي، بدأ يفقد القبول الواسع الانتشار. وبعد خمسين سنةً، بدأت القوى التجاريَّة الإيطاليَّة الصاعدة في فلورنسا وجنوى والبندقيَّة بإصدار

نقد ذهبي اكتسب شهرة في ذلك العصر تماثل الشهرة التي كان البيزنط قد حقَّقها في ذروة مجده. وفي منتصف القرن الرابع عشر، كان مواطنو بيزنطة يدفعون ضرائبهم بالدوقيات الذَّهبيَّة الصادرة في البندقيَّة. وكان قسطنطين التاسع، ذلك الرجل المنكود الحظ الذي حكم في الفترة التي سقطت فيها القسطنطينيَّة أخيراً بيد الأتراك سنة 1453، هو الإمبراطور الوحيد الذي يبدو وكأنه لم يصدر أي نقد على الإطلاق. وهناك مثل معروف يقول: «اختفت الإمبراطوريَّة عندما أنفقت آخر سو sou بحوزتها»[22].

أثار مقال لوبيز حول دولار العصور الوسطى سؤالاً مهماً بشأن طبيعة المجتمع البيزنطي الحقيقيَّة، من حيث تركيزها المفرط على التباهي بالذهب بأسلوب يدل على الذوق السقيم واعتمادها البيزنط الشديد الاعتداد: «هل إنَّ مزايا عملة ما مستقرّة وذات قيمة، تستحق كل تلك التضحيات التي بُذلت للحفاظ على استقرارها؟...»[23] وبتعبير آخر، ماذا كسب البيزنطيون في النهاية نتيجة بذل كل ذلك الجهد المستميت في سبيل تشجيع صادرات بضائعهم الخاصة وتقييد الواردات من البضائع الأجنبيَّة؟... لا شيء سوى المزيد من الذَّهب. لا شك بأن الذهب قد منح عملة البيزنطيين قيمة وقبولاً لدى الأمم الأخرى. ولكن ماذا ينفع تكديس الذَّهب لدى أمَّة ما إذا لم يتم إنفاقه؟... إنَّ بإمكان الملك ميداس الإجابة على مثل هذا السؤال. وفي نهاية المطاف، فإنَّ مواطني أيَّة أُمَّة في حاجة لأن يأكلوا ويرتدوا الثياب وينتقلوا من مكان لآخر ويتمتعوا بأسباب الرفاه.

ورغم أن لوبيز كان يستعرض أحداثاً وقعت قبل ألف سنة، إلاَّ أن السؤال ذاته كان يتكرَّر على الدوام عبر التاريخ، وبخاصة في المئتي سنة الأخيرتين من تطور الرأسماليَّة. وسوف نرى في الفصول اللاحقة، أن تلك المسألة قد هزَّت

إسبانيا بعد أن بدأ الغزاة الأسبان يشحنون الذَّهب عائدين به من المكسيك والبيرو، كما أن المسألة ذاتها قد استولت على جل اهتمام بريطانيا في نهاية القرن السابع عشر وخلال الحرب ضد نابليون وذلك عندما اشترك الاقتصادي الكبير ديفيد ريكاردو في النقاش بكل قواه. وقد شكَّلت المسألة ذاتها لب الخلاف بين أندرو جاكسون وبنك الولايات المتحدة خلال المعركة الشجاعة، ولو أنَّها كانت خاسرة، تلك المعركة التي قادها ويليام جيننغز بريان ضد صَلْب العمال الأمريكيين على صليب من ذهب، كما نراها في ذلك الصراع المستميت في سبيل استرجاع نظام عملة فعَّال بعد الحرب العالميَّة الأولى وخلال مرحلة الكساد الكبير، ونراها أيضاً في الهجوم المفعم بالتعصّب الذي شنَّه الجنرال ديغول ضد الدولار الأمريكي في ستينات القرن العشرين، وفي التأكيد الفعلي لآلان غرينسبان في التسعينات من القرن نفسه.

لا ينكر لوبيز أن البيزنطيين كانوا يتمتعون على الأغلب بمستوى معيشي أعلى مما تمتع به الأوروبيون والعرب حتى سنة 1200 تقريباً، رغم اعتقاده بأن البيزنطيين لا يُعتبرون بالضرورة أمّة من المتفوقين إذا ما قيسوا بمعيار التطور والنمو، ويبدون وكأنَّهم قد توقفوا عن الحركة عند مستوى مرتفع نسبياً بينما كانت بقيَّة الأُمم تجاوزهم. وعلى الرغم من عدم انتظام التطور الاقتصادي في أوروبا الغربيَّة وفي الدول العربيَّة، إلاَّ أن عملاتهم الأكثر ضعفاً والأقل نقاء، وما رافقها من حالات تضخم معتدلة، قامت بإحداث تأثيرات إيجابيَّة على وجه العموم. فعلى سبيل المثال، بدأت المراحل الأولى من تضخم الدينار عندما كان العراق في أوج قوته[24]. كما أن تخفيض قيمة النَّقد والتضخم في كل من أوروبا والشرق الأوسط أدَّيا إلى حدوث تطور سريع في عمليات إقراض المال والأعمال المصرفيَّة، وبخاصة في إيطاليا، مما سهَّل إلى حد كبير حدوث نمو اقتصادي في كلتا المنطقتين. وكثيراً ما يأخذ التضخم شكل ارتفاع تدريجي في مستوى الأسعار لا بشكل تَفجُّر مفاجيء لفوضى اقتصاديَّة.

إنَّ عمليَّة من هذا النوع تميل لاقتلاع جذور المحافظين، وتجعل من التغيير أمراً لا مفر منه، كما أنَّها تكافىء الشجعان. ويمضي لوبيز في القول: «إنَّ بريطانيا هي الدولة الغربيَّة الوحيدة التي قاومت نزعة التضخم بعناد وبنجاح، وكانت في ذلك الوقت دولة متخلفة اقتصادياً»[25]. إنَّ انطباع الإنكليز عن أنفسهم كحامي مشعل سلامة النَّقد قد استمر لمئات السنين، ولم يكن ذلك الانطباع ليعود عليهم بالنفع دائماً، فالاستقامة الماليَّة رغم أنَّها تثير الإعجاب، لم تكن الطريق الأكيد للازدهار على الإطلاق. فبعد أن أدَّى ذلك الفيض الغامر من الأوراق النّقديَّة والودائع المصرفيَّة الذي جاء نتيجة المتطلبات الماليَّة الكبيرة للصراع مع نابليون وللحرب العالميَّة الأولى، أدَّى إلى إجبار بريطانيا على تعليق إمكانيَّة تحويل الإسترليني إلى ذهب، جاء الهوس «بالنَّقد ذي النوعيَّة العالية» ليعيدها إلى الذهب في أول لحظة مؤاتية. وفي كلا الحالتين، كانت النتيجة حدوث تضخم شديد رافقته اضطرابات اجتماعيَّة خطيرة.

لقد أدَّى قرار العودة إلى الذَّهب في سنة 1925، بشكل خاص، إلى إصدار سلسلة من القرارات التي كبحت النشاط الاقتصادي إلى أن تم تغيير تلك السياسة بعد ست سنوات. ورغم أن الألم والمعاناة في ذلك الوقت كانا كافيين بحد ذاتهما، إلاَّ أن بريطانيا لم تستطع إعادة مجد الإسترليني الذي كان مصدراً للرخاء والفخر لعدة مئات من السنين. وفي وقت ليس بالبعيد، عندما اختارت بريطانيا الانسحاب من اتحاد النَّقد الأوروبي سنة 1992 وتركت الباوند حراً لتنخفض قيمته، تحسنت الصادرات مباشرة وقفز معدل النمو الاقتصادي إلى الأمام بينما كان شركاؤها السابقون في القارة الأوروبيَّة، الذين تصرفوا بشكل أكثر صحة، يعانون ركوداً اقتصادياً.

وهنا يفترض لوبيز أن الأسباب العميقة للمفارقات التي يوردها قد تكون نتيجة اختلافات مهمة في تركيبة الأمة نفسها، فهو يقول: «كانت بريطانيا والإمبراطوريَّة البيزنطيَّة مَلَكيات مركزيَّة ذات طبقات ارستقراطيَّة قويَّة من مالكي

الأراضي، بينما كان التجار وبقيَّة رجال الأعمال هم الذين يسيطرون على مجريات الأمور في الكوميونات الإيطاليَّة؛ كما أن المصرفيين ورجال الأعمال كانوا يتمتّعون بنفوذ قوي لدى الخلافة الإسلاميَّة عندما بدأ التضخم». ويرى لوبيز أن الملوك يربطون منزلتهم وكرامتهم بنقاء نقدهم، ولا شك بأن هذا هو وضع الأَباطرة الذين حكموا القسطنطينيَّة. أما التجار فهم، على العكس من ذلك، يتمتعون بمرونة أكبر في مجال اتخاذ قراراتهم، وهم أقل ارتباطاً بالماضي، كما أنَّهم يواجهون ضرورة لا مفر منها لاغتنام الفرصة حيثما وجدوها.

لا شك بأن تفسير لوبيز يلاقي قبولاً، لكن كثرة الاستثناءات تجعل منه قاعدة مشكوكاً بصحتها. فالهوس بالنَّقد المستقر لم يكن حكراً على المَلَكيات المركزيَّة، ولم تقتصر السياسات المؤدية للتضخم على المجتمعات التي يهيمن عالم الأعمال عليها. فقد كان هنري الثامن، مثله مثل الأَباطرة الرومان، أحد أكبر خافضي قيمة النَّقد في التاريخ، لكنه كان بالإضافة لذلك ملكاً ناجحاً. وقد وقع أسوأ تضخم في التاريخ في مستهل عشرينات القرن العشرين، بعد أن قام الألمان بخلع القيصر مباشرة، كما كان النَّقد المستقر هدفاً يسعى إليه الإنكليز بعد وقت طويل من قيام البرلمان بمصادرة السلطة من الملكيَّة، وشكَّل أحد الاعتبارات التي اكتسبت أَهميَّة فائقة لدى ألكنسدر هاملتون حين ولدت الديمقراطيَّة الأمريكيَّة، وكان القوة المحركة للسياسة الاقتصاديَّة في كل من جمهوريتي ألمانيا وسويسرا منذ الحرب العالميَّة الثانية.

ولسبب ما افتقدت الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة تلك الديناميكيَّة اللازمة للمحافظة على بقائها في وجه عودة أوروبا إلى حيويتها بعد الغزوات الهمجيَّة. وقد يعود ذلك إلى أن النجاح قد أدَّى، بكل بساطة، إلى جعل البيزنطيين أقل

ميلاً لإثارة المشاكل من الأوروبيين الذين كانوا لا يزالون يشقّون طريقهم خارجين من خرائب الإمبراطوريَّة الرومانيَّة.

لم تكن التهديدات التي واجهت القوة البيزنطيَّة تأتي من الغرب فقط. فلقد سبق وذكرنا التأثير الذي تركه العرب المسلمون على بيزنطة الذين برزوا فجأة في القرنين السابع والثامن، وانطلقوا في طريقهم لغزو العالم باسم الإسلام. ويستحق العرب منا نظرة متأنيَّة: إنَّ العالم بأسره في ذلك الوقت، من المحيط الأطلسي وحتى المحيط الهادي، قد شعر بانعكاسات ذلك الجهد الجبار الذي كان يهدف إلى نشر «الرسالة»، وإلى كسب الثروة عن طريق التجارة في ذات الوقت. وكما كان الأمر بالنسبة للبيزنطيين، فقد لعب الذهب دوراً مركزياً في ذلك المشروع.

5

الذَّهب والملح والمدينة المباركة

ربما اتصف حكام المناطق العربيَّة بشدة التدين، ولكن عندما كان الأمر يتعلَّق بأسباب الترف في الحياة، فإنَّ الأَباطرة البيزنطيين كانوا لهم القدوة والمثال. وما على المرء إلاَّ أن يقرأ كتاب «ألف ليلة وليلة»(*) حتى يفهم الصفات المميزة لذلك المجتمع. فبرغم تحذير النبي محمَّد ﷺ: «إنَّ الذي يأكل أَو يشرب في آنية الفضة والذهب فإنما يجرجر في بطنه ناراً من جهنم» فإننا نجد أن الخلفاء كانت لديهم شهوة لا ترتوي للذهب ولأساليب التباهي الرومانسيَّة الغريبة التي قد يأتي بها الذهب[1]. ففي حفل زفاف ابن هارون الرشيد، وهو الشخصيَّة الرئيسيَّة في قصص ألف ليلة وليلة، قام أبو العروس بنثر كريات ذهبيَّة في المكان كهديَّة للضيوف الحاضرين في حفل الزفاف. كما أغدق على أحد الشعراء خمسة آلاف قطعة ذهبيَّة ودفع أربعمائة ألف قطعة أخرى ثمناً لثوب تشريفات لأحد رجال الحاشية[2]. وقد كانت الأشجار الذَّهبيَّة

(*) معلوم أن كتاب «ألف ليلة وليلة» كتاب قصص وَسَمَرْ، ولا يعول عليه كمرجع تاريخي لتوثيق الأحداث أو تزييفها، فضلاً عن أن يكون مرجعاً في الاقتصاد والمال!! ـ المترجم ـ.

والطيور المغردة الذَّهبيَّة في قصر بغداد هي ما ألهم ثيوفيلوس لصنع عرشه الباهظ الثمن في القسطنطينيَّة. كما خلفت إِحدى شقيقات الملك وراءها 2,7 مليون دينار واثني عشر ألف ثوب حيكت من خيوط الذهب ورصعت بالجواهر. وفي القرن الحادي عشر، ضمت القاهرة ألوف الحوانيت التي كانت تبيع الذَّهب والجواهر والمنسوجات الفاخرة[3].

لم يواجه العرب أيَّة صعوبة في تكديس كنز ضخم من الذَّهب، فقد كانت إِمكاناتهم الخلاَّقة في ذلك المجال تثير الإِعجاب. كانوا ينهبون أعداءهم المغلوبين، وكانوا يتفوقون على منافسيهم في التجارة، كما وأنَّهم كشفوا مصدراً رئيسياً للذهب كان قد أسهم إِسهاماً ضئيلاً في إِنتاج القرون السابقة، أي قبل أن تبدأ جهود العرب في هذا المجال.

كانت أكوام الذَّهب التي تجمعت نتيجة الحروب، كبيرة. وقد أتت الغنائم من بلاد الفرس ومن سوريا ومصر وفلسطين، ومن الانتصارات الساحقة باتجاه الغرب عبر شمال إِفريقيا وإِسبانيا وصولاً إِلى بواتييه في فرنسا قبل أن يقوم شارل المطرقة Charles Martel سنة 732 بصد الجيوش العربيَّة. وقد قام الفاتحون العرب في مصر على وجه الخصوص، بجمع كنوز ضخمة من الذهب الوفير الذي كان مطموراً لآلاف السنين في قبور الفراعنة. كما قاموا بإِعادة فتح مناجم الذهب في مصر والنوبة والحبشة. كما قاموا في الوقت نفسه بالبحث المضني سعياً وراء المزيد من رواسب الطمي في الجداول الجبليَّة في تلك المناطق[4].

كان لتلك الغزوات تأثيرات اقتصاديَّة عميقة. ولم يقتصر الأمر على الغنائم وإِعادة فتح المناجم فقط، لأن العرب سرعان ما نجحوا في اختراق مجال القوة الاقتصاديَّة للبيزنطيين بأن وطَّدوا مكانتهم كتجار يتحلّون بفطنة ودأب لا مثيل لهما. وبمرور الوقت، تمكَّنوا من السيطرة على مراكز الاتصال التجاريَّة الرئيسيَّة التي خدمت البيزنطيين خدمة فائقة ولمدة طويلة، وذلك في جميع أنحاء مجال النفوذ البيزنطي، في نفس الوقت الذي كانوا يقومون فيه بإِنشاء علاقات تجاريَّة جديدة على طول الشاطىء الجنوبي للبحر الأبيض

المتوسط. كانت السفن العربيَّة تمخر عباب البحر جيئة وذهاباً على طول الساحل الشرقي لإفريقيا وتعبر المحيطات باتجاه الهند والصين سعياً وراء الربح. بل إنَّ العرب انطلقوا باتجاه الشمال مبحرين في طرق روسيا النهريَّة نحو الدول الإسكندنافيَّة، للمتاجرة بالبضائع التي أحضروها من وراء البحار وليبتاعوا الفراء والكهرمان والعسل والعبيد.

تتطلَّب التجارة نقوداً، والنقود توحي بالقوة، كما أن الذَّهب يخدم أغراضاً غير أغراض الاستهلاك المبتذل. وبعد أقل من خمسين سنةً على وفاة النبي محمَّد، استطاع العرب مجاراة الحكَّام العظام في العصور الماضية بأن أطلقوا عملتهم الذَّهبيَّة الخاصة ـ وهي الدينار ـ التي أصدرها الخليفة عبد الملك في دمشق. واستطاعت تلك القطع النّقديَّة التي شكَّل الذَّهب الخالص نسبة 97٪ منها إضافة لجودة نوعيتها، أن تحل تدريجياً محل البيزنط كعملة دوليَّة رئيسيَّة، فقد جرى تداولها في مناطق النفوذ العربيَّة وفي كل أرجاء أوروبا المسيحيَّة.

كانت القطع الأولى من الدينار تقليداً للعملة البيزنطيَّة، وذلك ما جعلها تلقى القبول على الفور. فالناس يتردَّدون دائماً في قبول نقد ذي شكل زري، مهما كانت مزاياه الأخرى. وكما رأينا سابقاً، فقد وضعت آيات من القرآن الكريم محل الرموز المقدَّسة المرتسمة على البيزنط[5].

كان لدى العرب ظمأ لا يرتوي إلى الذَّهب، بحيث أنَّه بحلول القرن التاسع لم تعد ثمار الفتوحات ولا إحياء استثمار مناجم شرق إفريقيا ولا حتى الأرباح المتأتية عن التجارة، تكفي للوفاء باحتياجاتهم منه. وبدا كما لو أنَّه لم يكن هناك ذهب يكفي لأشكال البذخ المتطورة التي أبدعها العرب أو للحفاظ على السرعة المحمومة لدور السكّ التي كانت تضرب الدنانير بكميَّات وفيرة.

كان العرب محظوظين، فقد كانت نتيجة غزوهم للساحل الشمالي لإفريقيا واستقرارهم هناك هي وصولهم إلى مصدر الذَّهب الذي قام بتغذية ثروات قرطاجة قبل أكثر من ألف سنة. لم يستول العرب فعلياً على مناجم الذَّهب في غرب إفريقيا، لكن عبقريتهم التجاريَّة هي التي قامت بذلك عوضاً عنهم، فلقد نعموا، ولعدة قرون، باحتكار حقيقي لشراء الذَّهب الكامن في الجنوب، أي أبعد من أقصى امتداد للصحراء الكبرى، في منطقة تبلغ مساحتها ستمائة ميل مربع تقريباً يحدّها من الجنوب الساحل الممتد بين ساحل العاج غرباً ونيجيريا شرقاً. وقد عرفت هذه المنطقة أيضاً باسم ساحل الذَّهب، رغم أن الثروة التي حققتها فيما بعد نتيجة تصدير العبيد ربما تكون قد فاقت الذَّهب الذي قامت ألوف الجمال بنقله بكل أناة عبر أراضي الصحراء الكبرى والشاسعة عبر سنين لا تعد.

ورغم أن الرومان والبيزنطيين قد سيطروا أحياناً على ساحل إفريقيا المطل على المتوسط، إلاَّ أن هدفهم الرئيسي من احتلال المنطقة كان عسكرياً. فقد لزموا الساحل والموانىء متجاهلين الثروات الكامنة في الجنوب، التي تفصلهم عنها قفار مجهولة من المناطق الصحراويَّة. أما العرب فقد كان هدفهم لدى احتلال شمال إفريقيا، هو القيام بمشاريع أعمال. فقاموا بإنشاء مواقع تجاريَّة على البحر كتونس مثلاً، كما أنشأوا مراكز مثل فاس ومراكش داخل البر على مسافات تحمل أهميَّة معينة[6]. وقد ظهر التجّار العرب حتى في قلب الصحراء الكبرى نفسها.

شكَّلت سجلماسة، حيث يتقاطع الطريق الذاهب إلى مراكش مع الطريق الرئيسي الواصل بين الشمال والجنوب باتجاه أراضي الذَّهب، مركزاً لالتقاء القوافل. وقد وصفها أحد التجار العرب بأنَّها «بوابة الصحراء الكبرى... إحدى أعظم المدن في شمال إفريقيا، والمدينة الأشهر في العالم... حيث يأتي التجار حاملين بضائع لا قيمة لها ليعودوا بجمال محمّلة بالذَّهب

الخام»[7]. وقد اغتنت المدينة ببساطة من مجرد فرض رسوم على حركة الانتقال الواسعة التي مرّت بحدودها. ولو توغلنا في عمق المناطق الداخليَّة، لرأينا مدناً تحمل أسماء غريبة مثل تاغازا وتاوديني وغدامس والمدينة الأشهر تمبكتو وهي المركز التجاري الرئيسي وتقع على مسافة تزيد على ألف ميل جنوبي جبل طارق، على ضفاف نهر النيجر الذي ضمّ فيما بينه وبين نهر السنغال معظم المنطقة الحاوية على مناجم الذهب.

كانت وفرة الذَّهب في غرب إفريقيا معروفة منذ قرون للشعوب القاطنة على سواحل المتوسط. فحوالي سنة 500 ق. م جاء هيرودوتس بوصف حي لتلك المنطقة أكَّده جميع من أتى بعده من الرحالة عبر السنين. كان الوصول إلى مكامن الذَّهب عبر قفار صحراويَّة قاحلة مجهولة يقتضي رحلة طويلة ومعقدة وخطرة، كان الاهتداء بالنجوم فيها يحمل أَهميَّة لا تقل عن أهميته بالنسبة للسفن العابرة للبحار. ويقول ي. و. بوفيل، أكثر مؤرخي الصحراء الكبرى المعاصرين أهلاً للثقة: «فيما عدا المناطق القطبيَّة، هناك أجزاء قليلة جداً في العالم يمكن اعتبارها أقل ترحيباً بسكنى البشر فيها»[8]. ورغم ذلك فإنَّ هيرودوتس يقدم لنا معلومات وافية تفيد بوجود تواصل فعَّال بين السواحل وبين المناطق الداخليَّة في الصحراء الكبرى حتى في عصره. وتُظهر الرسوم القديمة على الصخور أن الثيران كانت هي وسيلة النقل الرئيسيَّة.

ظهر الجمل لأَول مرة في الصحراء الكبرى حوالى سنة 100 للميلاد، وربما كان قد جاء مع الفيالق الرومانيَّة التي كانت تقوم بحملات عسكريَّة تتطلَّب السرعة. كما يمكن أن تكون الجمال قد أتت من مصر، حيث جاء الفرس بها إلى هناك قبل ذلك بخمسمائة سنة. وقد أدَّى هذا التجديد الاستثنائي في فن النقل ـ ويوازي إلى حد ما إدخال استخدام السيارة، أَو حتى الطائرة في عصرنا الحالي ـ أدَّى إلى اختصار الوقت اللازم للانتقال بين المواقع التي تحتوي على المياه، وبالتالي إلى توسيع مجال السفر. وبإمكان الثيران مجاراة الجمال إلى

حد ما في تحمّلها للعطش ـ دون أن يتجاوز ذلك عشرة أيام ـ ولكن بإمكان معظم الجمال أن تحمل ثلاثة أضعاف ما يحمله الثور، كما أن الجمال الجيدة يمكنها أن تقطع ضعف المسافة التي يقطعها الثور العادي، وهو أمر لا يمكن الاستهانة به عندما يكون الزمن اللازم للوصول إلى بئر الماء التالي هو الفارق بين الحياة والموت[9]. كما أن إدخال استخدام الجمل كان أمراً استثنائياً بمعنى آخر. ويقول أحد المطَّلعين أن إدخال استخدام الجمل كان «يناقض المفهوم الغربي الأساسي للتطور التكنولوجي. ففي هذه الحالة تحتم «النكوص عن استخدام» الدولاب ـ الذي عُرف في شمال إفريقيا والصحراء الكبرى منذ أيام الفينيقيين ـ وذلك للتمكن من ربط السودان بالبحر الأبيض المتوسط»[10].

لقد كان تأثير الجمل على حجم التجارة المحتمل بمثابة الثورة. ويصف بوفيل هذا التطور قائلاً:

> يعتبر إدخال استخدام الجمل بداية لعصر جديد في النصف الشمالي من هذه القارة... فقد يسَّر الجمل للإنسان حريَّة في الحركة لم تكن معروفة سابقاً، وجعله قادراً على الوصول إلى أبعد المراعي كما تقلَّصت أهوال طرق القوافل إلى النصف وفُتحت مسارات جديدة لتدفق التجارة والثقافة[11].

إنَّ تضاريس الأراضي المؤدية إلى مكامن الذَّهب لم تكن السمة الوحيدة في المنطقة التي أثارت استغراب الأشخاص القادمين من أوروبا والشرق الأوسط. ويورد هيرودوتس اسم القرطاجيين على أنَّهم المصدر الذي استقى منه القصة التالية. فقد وصف له القرطاجيون مكاناً على الساحل الغربي كانوا يضعون فيه السلع التي كانوا يريدون المتاجرة بها ويعرضونها ببراعة ثم يعودون إلى سفنهم ويطلقون «دخاناً كثيفاً». وعندها، يتقاطر السكان إلى الشاطىء وهم يحملون الذَّهب الذي يتركون منه ما يعتقدون بأنَّه يساوي قيمة البضائع

القرطاجيَّة، ثم يقفلون عائدين. يعود القرطاجيون بدورهم ويتفحصون الوضع. فإذا ما أحسوا بالرضى، فإنَّهم يأخذون الذَّهب ويبحرون، وإلاَّ فإنَّهم يعودون إلى سفنهم لينتظروا بصبر. وتتوالى العمليَّة إلى أن يشعر الطرفان بالرضى ـ ولكن دون أن يتقابلا وجهاً لوجه أو أن يتبادلا أيَّة كلمة. كانت عمليَّة «المقايضة الخرساء» هذه تميز الأُسلوب الذي تتم به صفقات الأعمال في الكثير من المناطق الحاوية للذهب. وهي لا تزال مستمرة في بعض مناطق إفريقيا حتى يومنا هذا.

ولا يسعنا إلاَّ أن نحاول فهم سبب استمرار المقايضة الخرساء، كطريقة لعقد صفقات الأعمال فترة مديدة من الزمن. ربما كان السكان يتمسّكون بهذه الإجراءات لحماية أنفسهم من التجار الذين قد تسول لهم أنفسهم أن يأسروهم لبيعهم كعبيد. كما أن التجار نظراً للهفتهم الكبيرة للحصول على ما لدى الإفريقيين، لم يكن لديهم من خيار سوى تلك الإجراءات الغريبة.

وفي حوالى سنة 750، قام العرب، وقد أثار نهمهم كل ذلك الذَّهب الموجود في الجنوب، بإرسال حملة من مراكش لغزو مكامن الذَّهب. وتلك كانت إحدى المرات التي لم تنجح فيها مساعي العرب. لقد أخفقوا كلياً في إحراز هدفهم، وتكبدوا خسائر كبيرة، بل وحتى أنهم أخفقوا في اكتشاف مصدر الذَّهب. ومنذ ذلك الحين اكتفوا بالحصول على الذَّهب عن طريق التجارة عوضاً عن الغزو[12].

بالرغم من أن التجار العرب والأوروبيين في العصور الوسطى كانوا أحياناً يعرضون على سكان إفريقيا سلعاً أو حتى عملات فضيَّة ونحاسيَّة، اعتبرها هؤلاء نقداً أفضل من الذَّهب، إلاَّ أن الملح كان هو المادة المطلوبة بإلحاح شديد. صحيح أن البشر لا يستطيعون العيش دون الملح إلاَّ أن سكان المناطق

المنتجة للذهب لا بد وأنَّهم شعروا بالحاجة الملحَّة التي لا تعرف الشبع لهذه المادة، ولسوء حظهم فإنَّهم كانوا يعيشون في إحدى تلك البقاع القليلة التي توضعت فيها أقرب مصادر للملح على مسافة بعيدة في أَرض لم يكن يمكن لأي شخص أن يقطع فيها أَكثر من عشرة أميال في اليوم.

تقع مصادر الملح المهمة على بُعد ألف ميل إلى الشمال، حيث كان عمال مناجم الملح، ومعظمهم من العبيد الزنوج، يعملون في ظروف بالغة القسوة، على مسيرة عشرين يوماً من أقرب مدينة إليهم، وكثيراً ما كانت رياح الصحراء تصيبهم بالعمى، ولربما ماتوا جوعاً لدى تأخّر التجار الذين كانوا يقايضون الملح بالطعام والماء العذب[13].

كان معظم الملح ينقل جنوباً في قوافل الجمال، وفي كثير من المواقع التي تندر فيها المراعي بحيث لا تعود الجمال قادرة على الاستمرار، كانت كتل الملح الكبيرة تُكسر إلى قطع أصغر حجماً لتُنقل على رؤوس الرجال فيما تبقى من الرحلة. ويصف أحد الرحالة البرتغال من القرن الخامس عشر ما يحدث بعد ذلك:

> يقوم كل رجل بحمل قطعة ويشكلون بذلك جيشاً من المشاة الذين ينقلونه إلى مسافة كبيرة... إلى أن يصلوا إلى منابع مياه معينة. يقوم الرجال الذين يحملون الملح بترتيب بضاعتهم أكواماً بشكل صفوف، ويضع كل واحد منهم علامة على قطعة الملح التي تخصّه. وبعد ترتيب تلك الأكوام، تبتعد كل القافلة إلى مسافة مسيرة نصف يوم. ثم يأتي جنس آخر من الزنوج الذين لا يريدون أن يروا أحداً أو أن يكلموا أحداً.... وبما أنَّهم ينشدون الملح، فإنَّهم يضعون كميَّة من الذَّهب مقابل كل كومة منه، ثم يعودون من حيث أتوا بعد ترك الملح والذَّهب[14].

هذه القصة لا تثير الاستغراب فحسب، بل إنَّ لها مغزى عميقاً. فقد كان

الملح مادة ثمينة بالنسبة للمنقبين عن الذَّهب، بحيث كان العديدون منهم مستعدين لمبادلة ذهبهم لقاء الملح فقط. وفي الكثير من الصفقات جرت مبادلة أونصة الذَّهب بأونصة من الملح. ويؤكد بوفيل بأنَّه: «لا شك بأن الملح كان هو الأهم ـ مقارنة بالذَّهب ـ بحيث يمكن القول دون مبالغة بأن الذَّهب اعتُبر ثميناً بالنسبة لأهل السودان لمجرد قوته الشرائيَّة في الحصول على الملح. . . لقد كان الملح هو الأساس في تجارتهم المحليَّة والخارجيَّة، والتي لا يمكن فهم أي منهما دون فهم مدى افتقارهم لتلك المادة الأساسيَّة لرفاهيَّة الإنسان»[15]. ويمكن رؤية الموضوع من زاوية أُخرى، فإذا كان بإمكان أونصة الملح أن تشتري أونصة أَو أَكثر من الذَّهب، فلا بدّ وأن الحصول على الذَّهب كان عمليَّة مربحة جداً.

أدَّى أُسلوب المقايضة الخرساء والجغرافيا غير المتجانسة لمكامن الذَّهب والطبيعة المتحفظة لأهل البلاد، إلى شعور الأوروبيين والعرب بالإحباط لقرون، وذلك لدى محاولتهم العثور على مصدر الذَّهب الإفريقي. وبدت المنطقة بكاملها، بالنسبة لشعوب الشمال، وكأنَّها مغلفة بغلالة من الألق الغامض.

وخلال القرن الخامس عشر، اعتاد الأوروبيون على إطلاق اسم غينيا Guinea على مناطق مكامن الذَّهب (وهو اسم احتفظ به البريطانيون زمناً طويلاً في كتابة كلمة Ginney). وقد حصل البرتغاليون وهم أَول من اكتشف المنطقة، على إذن من البابا سنة 1481 بإطلاق اسم «سيد غينيا»، على ملكهم، وهو لقب حافظوا عليه حتى القرن العشرين. وفي سنة 1662، بدأ الإنكليز باستخدام الذَّهب المستورد من غرب إفريقيا، عن طريق شركة «أفريكان كومباني»، في

ضرب عملة أطلقوا عليها اسم Guinea، وهو ابتكار نقدي يثير الاهتمام سنبحثه قريباً.

وما يزال الجدل قائماً بشأن أصل كلمة غينيا نظراً لعدم وجود مكان في إفريقيا في ذلك الوقت يحمل هذا الاسم. ومما لا شك فيه بأن الكلمة هي تحريف للفظة تشبه «غينيا»، وهنا تتبادر إلى الذهن كلمة غانا، لكن بوفيل يؤكِّد، وبشكل مقنع، أن كلمة غينيا مُشتقة من اسم المركز التجاري جني Jenne وهي مدينة تقع على أحد روافد نهر النيجر على بُعد ثلاثمائة ميل جنوبي غرب تمبكتو، باتجاه مناطق مناجم الذَّهب[16].

لا شك بأن جني كانت مدينة لها قيمتها، وإن لم تكن معروفة جيداً، تأسَّست في القرن الثالث عشر، وتقع في منطقة مأهولة بالسكَّان تضم شبكة من الطرق المائيَّة تعتبر نادرة بالنسبة للقارة الإفريقيَّة، وهذا ما جعل من جني مكاناً يسهل الوصول إليه. ولم تكن المدينة مركزاً تجارياً مهمّاً فحسب، بل إنَّها اجتذبت رجال الثقافة أيضاً. وعلى عكس تمبكتو التي كثرت فيها الاضطرابات والتحولات السياسيَّة كانت جني مكاناً مسالماً ينشر ثقافة المتوسط في كل أنحاء إفريقيا الغربيَّة. واستناداً إلى ما قاله السعدي، وهو كاتب مرموق من القرن السابع عشر ولد ونشأ في مدينة تمبكتو المنافسة لها؛ كانت جني «مدينة مباركة»[17]. ولا يسعنا إلاَّ التمني بأن يكون بوفيل على صواب: فمكان كهذا يستحق أن يُطلَق اسمه على بلد ما[*].

(*) هناك مملكة موجودة حالياً في جنوب غانا تُعرف باسم أسانتي، يتربَّع فيها الملك على كرسي ذهب عوضاً عن العرش، وتتميَّز المناسبات الرسمية بعرض كميات كبيرة من وسائل الزينة الذهبية. عندما وصل البريطانيون كمستعمرين في أواخر القرن =

بعد أن تابعنا أحداث القصة بدءاً من القصور الذهبيَّة والأيقونات الدينيَّة، ومن قطع البيزنط إلى الدنانير، ومن الكريات الذَّهبيَّة إلى الإتاوات الذَّهبيَّة لنصل في النهاية إلى المقايضة الخرساء بالذهب مقابل كتل الملح في مجاهل إفريقيا، ثَمَّةَ سؤال محير: أين تكمن القيمة؟... بالنسبة للأوروبيين والبيزنطيين والعرب، شكّل الذَّهب البؤرة السحريَّة لرغباتهم الماديَّة. أما بالنسبة للأفارقة، فقد اختلف الأمر.

بالنسبة للأفارقة الذين كانوا يكدحون لاستخراج الذَّهب في الوقت الذي كانوا يتعطشون فيه للحصول على الملح، شكل معيار الملح قوة أكثر متانة وديمومة من أي شيء آخر يمثِّله معيار الذَّهب في الحضارات المتطورة في كل مكان على سطح الأرض. ما الذي كان يدور في خَلَدِ هؤلاء المساكين، الذين كانوا يحفرون المناجم، إزاء الرجال المثيرين للسخرية والقادمين من الشمال لمقايضة الملح الثمين بمادة لا يتعدَّى دورها على الأَرض أن يكون سوى إسباغ التباهي والسرور على الرجال لمجرد رؤية بريقها؟...

وما يزال رجع صدى هذا السؤال يتردَّد حتى وقتنا هذا.

= التاسع عشر، أخفى الأهالي الكرسي الذهبي. وفي سنة 1896، رغب الحاكم العام البريطاني لمستعمرة ساحل الذهب بالجلوس على الكرسي كممثِّل للملكة فيكتوريا، لكن كبار القبيلة رفضوا السماح له بذلك واحتفظوا بالكرسي في مخبئه. (نيويورك تايمز، 4 آذار، 1999).

6

إِرث إِيوبـا وبـابـا وأود

بعد انقضاء فترة الركود التي أعقبت سقوط روما ومهَّدت الطريق أمام مسار تطور اقتصادي مهم بعد الألفيَّة الأُولى، أَصبح البحث عن معنى القيمة موضوعاً استقطب الكثير من الدراسات والمناقشات في أوروبا. وقد جرى نقاش مطوَّل بين الفلاسفة السكولاستيين scholastics والرهبان في الجامعات بشأن تعريف «السعر الدقيق». ففي القرن الثالث عشر، اعترف القديس توما الأكويني نفسه قائلاً «صحيح أن المال تابع لشيء آخر، وذلك فيما يخص الغاية منه، إِلاَّ أنه، وبشكل ما، يشتمل على كل السلع الماديَّة طالما أَنَّه يفيد في السعي للحصول عليها نظراً لقوته.. وهذه هي السمة التي يشترك بها مع السعادة الغامرة»[1]. فالذَّهب إِذاً هو ينبوع السعادة الغامرة.

إِنَّ التجارة والتعاملات التجارية لا يمكن لها أن تجري دون نقود، وإِنَّ خَلْق نُظُم مالية جديدة وتأسيسها لتنمو ليس بالأمر السهل، فليس هناك من شيء يمكنه القيام بدور المال إِلاَّ إِذا أتى بشكل يتقبَّله كل من يقوم باستخدامه. ولا يمكن أن ينجح قرار يقضي بإِنشاء نظام كهذا إِلاَّ إِذا كانت التدابير منسجمة مع

القِيَم والتقاليد والاحتياجات الخاصة بالمجتمع. وإنَّ تاريخ المال ـ وكثير من الأمور التي تتأثَّر بالمال ـ لهو عبارة عن قصة طويلة ومعقَّدة تحكي محاولات البشر للتعامل مع تلك الصعوبات ضمن ظروف شديدة التنوع.

عندما تكون النقود معدنية ـ أي عندما تتم جميع المدفوعات بالسبائك والقطع النّقديَّة ـ فإنَّ العملية تتصف بتعقيد خاص، لأن المقادير المتوفرة من الذَّهب والفضة تحدِّدها الطبيعة لا البشر الذين يستفيدون من تلك المقادير. فالمناجم قد تنضب والدول قد تربح أَو تخسر نتيجة أعمال السلب وقد تتسرَّب المقادير المتوفرة عبر الحدود عندما يختل الميزان التجاري. لكن القرارات البشرية لها أهميتها أَيضاً. فبإمكان الأشخاص تخزين قطعهم النّقديَّة بدل إنفاقها، وقد كان ذلك الأُسلوب شائعاً أثناء الاضطرابات السياسية والاقتصادية في العصور الوسطى[2]. فالذَّهب هو وقاء من مخاطر الأوضاع المضطربة، وليس من السهل إقناع النَّاس بإعادة كنوزهم إلى التداول بشكل نقد في عالم يغلب أن تتعرض فيه النقود أثناء انتقالها للنهب على يد اللصوص أَو أنَّها ربما تفقد في حطام السفن، إضافة للتهديد الدائم المتمثِّل في طلبات الحكومة التي لا تعرف حدوداً.

إنَّ تأثير المتغيرات الكثيرة في المقادير النسبية المتوفرة من الذَّهب والفضة قد أدَّى إلى تعقيد الأمور خلال العصور الوسطى، كما أنَّه استمر بإشاعة الفوضى في النُّظُم المالية في كل من أوروبا وأمريكا لفترة لا بأس بها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. فعندما تبدأ كمية الذَّهب المتوفرة في تجاوز كمية الفضة، أَو العكس، تبدأ الأَسعار التي تحدد معدلات الضرب من كل معدن في دار السك، تبدأ بالاختلاف عن الأَسعار التي يشتري بها النَّاس المعادن الثمينة أَو يبيعونها في السوق. وضمن ظروف كهذه، يغلب أن يختفي أحد المعدنين من التداول أَو أنَّه يصدَّر إلى دول تكون الأوضاع فيها معكوسة.

ولكن، وعلى الرغم من كل تلك العقبات، فقد نجح الملوك ومواطنوهم في العصور الوسطى، وأحياناً قبل سنة 1000م، دون وجود أيَّة خلفية نظريَّة أَو حتى ما يكفي من الخلفيَّة التاريخيَّة لإرشادهم، نجحوا في تطوير ـ أَو بالأحرى ابتكار ـ منظومات ماليَّة تطورت بمرور الوقت إلى عالم المال الذي نعرفه حالياً. صحيح أن أياً من تلك المنظومات لم تستطع أن تعمل طويلاً دونما فترات سادتها الفوضى، ولكن العودة إلى مجتمع بلا نقد وبلا تجارة، كالذي كان سائداً في الأيام الأُولى التي أعقبت سقوط روما، لم تكن على الإطلاق موضع نقاش.

إنَّ إحدى السِّمات اللافتة في الاندفاع الكبير للتاريخ الأوروبي وصولاً إلى الحرب العالمية الأُولى، هي الكيفية التي تدبر بها الأوروبيون أمر دمج الذَّهب في أنظمتهم المالية، رغم أن مقادير الذَّهب المتوفرة أصلاً في أوروبا ذاتها كانت دائماً ضمن الحد الأدنى. وقد وصف اقتصادي فرنسي في أوائل ثلاثينات القرن العشرين هذا الوضع بقوله: «من الغريب أن تصبح تلك الدول اعتباراً من نهاية العصور الوسطى وحتى أيامنا هذه، أَكثر القوى فاعلية في الاقتصاد العالمي، رغم أن الطبيعة لم تنعم عليها إلاَّ بالقليل من المادة التي يجبرنا تقليد راسخ ـ أَصبح أَكثر إلحاحاً من ذي قبل ـ على القبول بها رمزاً للثروة، والإناء الذي يحوي تلك الثروة»[3]. ومع تطور قصتنا، تحوَّلت المسألة في أوروبا، بشكل مطرد، من التركيز على مقدار الذَّهب المتوفر بحد ذاته إلى التفكير بشأن الدولة التي ستتدبر أمر تجميع الذَّهب المتوفر واستخدامه لتعزيز قوتها وثروتها.

والأمر المدهش في الذَّهب، يكمن في أن منجزاته ضمن دوره الحاسم كنموذج أصلي للثروة وللمال، لم تُفقده شيئاً من دوره الذي لا يقل أَهميَّة كوسيلة للزينة وشكل متألِّق من أشكال الجمال. وعلى عكس الأشكال الأخرى

من المال، لم يفقد الذَّهب على الإِطلاق خاصيته الشاعرية. لقد ظل دائماً مقدساً ودنيوياً على حد سواء.

خلال السنوات الألف الأُولى التي تلت سقوط روما، كان دور الذهب في أوروبا أقل أَهميَّة بكثير عما كان عليه في بيزنطة أَو في المناطق التي حكمها المسلمون. ولم يكن هذا الاختلاف أمراً اختاره الأوروبيون، بل إِنَّ السبب كان ببساطة أن الذهب المتوفر لديهم كان أقل. فأوروبا لم تكن تحتوي على مناجم تشبه في شيء تلك الموارد الطبيعية السخية التي توافرت للبيزنطيين والمسلمين، كما أن الأوروبيين كان لديهم نهم لا يرتوي للتوابل والحرير ـ ونظراً لعدم توفر التدفئة المركزية ـ للفراء وللسجاد أَيضاً، تلك السلع التي كانت شعوب الشرق تبيعهم إِياها بسعادة غامرة. وكانت النتيجة التعسة أن أَصبح العبيد هم إِحدى صادرات أوروبا الرئيسة وبخاصة إِلى بلاد المسلمين(*).

لم يجد الأوروبيون أمامهم من خيار سوى التخلي عن الأُسلوب البيزنطي في تغطية كل ما يقع تحت أنظارهم بالذهب. وفي الكثير من المناسبات كانت مقادير الذهب المتوفرة قليلة بحيث جرت التضحية بمواضع الزينة الدينية كالصلبان وكؤوس القرابين بدفعها إِلى بوتقة الصهر في دور السكّ لتحويلها إِلى قطع نقدية. وفي كتابه «الموجة العظيمة» The Great Wave يورد دافيد هاكيت فيشر قول أحد علماء اللاهوت، وهو فولبرت أوف تشارترز، مبرِّراً صهر

(*) يشير كندلبرغر إِلى أن الدول الواقعة إِلى الشرق من أوروبا ـ وصولاً إِلى الصين واليابان ـ كانت من الدول التي يصفها الاقتصاديون بالدول «ذات الاستيعاب الخفيض». أي أن مداخل الصادرات فشلت في خلق طلب مكافيء لها على الواردات.

المواضع الدينية وتحويلها إلى قطع نقدية: «كان بيع تلك الأواني المقدسة إلى المسيحيين أفضل من رهنها بين أيدي اليهود»[4].

وفي الكنائس الرومانيسكية Romanesque والقوطية Gothic لم نكن لنرى تلك الفسيفساء المذهبة التي تزيِّن الكنائس البيزنطية، بل إنَّ مظهر تلك الكنائس في داخلها كان ينم عن تقشف شديد البساطة، بينما غطَّت النقوش والمنحوتات الحجريَّة جدرانها الخارجية. وكانت الألوان تنبعث من الزجاج الملوَّن والمشغولات الذهبية الدقيقة الموضوعة داخل أوعية حفظ الذخائر ومن كؤوس القرابين على المذبح ومن أردية وتيجان القساوسة الأعلى رتبةً. فعندما بدأ الأب سوجيه البنيديكتي، مثلاً، وهو المعماري الكبير والوصي على عرش فرنسا، ببناء أول كاتدرائية قوطية في سانت دينيس سنة 1137 كضريح لشفيع فرنسا، لم يتمكَّن على الإطلاق من مضاهاة بذخ جوستنيان في كنيسة القديسة صوفيا. وحتى إنَّ تلك المشغولات الذَّهبية الهشَّة كانت بمثابة الفضيحة بالنِّسبة لسانت برنارد. وقد تمسَّك سوجيه بموقفه قائلاً: «إذا كان القانون القديم قد قضى باستعمال الكؤوس الذَّهبية في طقوس إهراق الخمر تكريماً للآلهة أو لتلقي دماء أكباش الخراف، أفلا يتعيَّن علينا أن نكرِّس الذَّهب... للأواني المخصصة لاحتواء دم السيد المسيح؟...»[5] ويتساءل المرء هنا، كيف كان القديس برنارد سيتصرَّف لو أنَّه وجد نفسه محل موسى الذي هبط من جبل سيناء ليرى شعبه يعبد العجل الذهبي؟...

لقد سار الأوروبيون على خطى البيزنطيين في استخدام الذَّهب بشكل رائع فيما يدعى بالكتابة بالذَّهب chrysography، وهنا يتم مزج مسحوق الذهب ببياض البيض أو بالصمغ، ثم يُستخدم الذَّهب بشكله هذا في تزيين الكتب بكتابات تخطيطية calligraphy، وقد بلغ الأوروبيون في هذا الفن مستويات فائقة الجمال. ويعود استخدام هذه الطريقة إلى القرن الثاني الميلادي، عن طريق مصر وبلاد الإغريق، وذلك إرضاء لرغبة الرومان في كل

ما يمتّ للبذخ بصلة، ولكن شارلمان هو الذي بدأ في استخدام هذا الفنّ الأوروبي الذي وصل إلينا بشكل مخطوطات مزيَّنة بالذَّهب.

كان شارلمان يصرّ على تحقيق أفضل مستوى في الكتب التي صدرت خلال فترة حكمه، وعهد بالمسؤولية الرئيسيَّة في هذه المهمَّة لرجل دين يُدعى ألكين أوف يورك. أما أشهر الكتب التي صدرت تحت إشراف ألكين فكانت أناجيل غود سكيل، التي تمَّت كتابتها سنة 783 من أجل شارلمان، وإنجيل سانت ميتارد، والكتابان موجودان حالياً في المكتبة الوطنيَّة في باريس. وقد كتبت أناجيل سانت ميتارد بكاملها بالخط الذَّهبي وزُخرفت بالمنمنمات الذهبية والفضية على خلفية قرمزية. كما صُمِّمت الحروف بعناية فائقة بعد تعديلها عن الكتابة الرومانيَّة في أيام فيرجيل، بحيث اختير شكل الحروف بترو وكُتبت على الدوام بشكل متماثل. وتمَّت الكتابة بأحرف متصلة، وهي الكتابة التي نتعلّمها حالياً في المدارس، والمتحدرة مباشرة من الكتابة المذهَّبة في مخطوط ألكين الذي يعود تاريخه إلى ألف ومائتي سنة خلت. ولكننا نكتب حالياً بسرعة أكبر: فكتابة حرف استهلالي واحد في فنّ الكتابة بالذَّهب كانت تستغرق يوماً كاملاً، مما جعل من تنفيذ تلك المهام عملاً يستغرق كامل أيام الرهبان الذين أوكلت لهم تلك المهمَّة.

شكَّلت بريطانيا مسرحاً لأهم تطور في قصة النَّقد الأوروبي في مرحلة ما بعد الرومان وكانت في تلك الفترة مقسَّمة إلى عدد من الممالك الصغيرة. ويعود الفضل في هذا الابتكار إلى أوفا (757 ـ 796) ملك مرسيا، وهو حاكم قوي عاصر شارلمان. وقد امتدت منطقة نفوذه عبر وسط بريطانيا لتصل شمالاً حتى نهري أوس وترينت حول يورك الحالية ومانشيستر، كما تمتد جنوباً إلى كنت وإيسيكس وساسيكس. كانت المنطقة شاسعة ومندمجة بشكل وحدة

مترابطة بفضل أوفا بحيث أصبح بالإمكان البدء بقدر لا بأس به من النشاط التجاري. وإضافة لما سبق، كانت لدى أوفا جيوش ضخمة توجب عليه الحفاظ عليها، وفي تلك الأيام كانت الجيوش تتألّف في معظمها من المرتزقة الذين لم يكونوا ليحاربوا إلاّ إذا تلقوا مستحقاتهم من النقود سلفاً.

عندما استولى أوفا على كنت، وجد فيها ثلاثة أشخاص مشهورين يقومون بصنع قطع النَّقد الفضية، ويُعرفون بضاربي العملة، كان لأسمائهم وقع بهيج: أيوبا وبابا وأود. حيث تبدو الأسماء كما لو أنَّها تشكِّل شطراً من شعر للأطفال من العصر الفيكتوري، ولكن هذه الأسماء الثلاثة مجتمعة تبدو وكأنَّها تصلح أيضاً لأن تكون اسماً لشركة محاماة لندنيَّة في القرن الثامن. كان أيوبا وبابا وأود ضاربي عملة فضية مهرة وهم أول من جعل الإنكليز يتبوأون موقع الريادة ولمدة طويلة في هذا المجال[6]. لم تكن إنكلترا تملك سوى موارد محلية محدودة من الذَّهب، ولكن مقاطعة كورنوول كانت غنيَّة بمكامن الفضة التي كان إنتاجها يحوَّل إلى عدد متزايد من القطع النّقديَّة. وقد قام الإنكليز بإصدار نقد ذهبي لمدة سبعين سنةً حوالى سنة 700 للميلاد، إلاَّ أنهم سرعان ما بدؤوا يخلطونه بالفضة ثم ما لبثوا أن حوَّلوا جميع قطعهم النّقديَّة ذات الفئات الكبيرة إلى فضة، أما قطع النَّقد ذات القيمة الأقل فقد صنعت من النحاس الأحمر أو النحاس الأصفر.

وقد حافظت قطع النَّقد الفضية التي قام أيوبا وبابا وأود بصنعها على نقائها إلى حد أن تداولها سرعان ما انتشر في كل أنحاء أوروبا حتى وصل إلى مناطق نهري الدون والفولغا. وقد ظهرت فئات النَّقد الصغيرة عندما بدأ النَّاس يقسمون القطع النّقديَّة إلى أنصاف وأرباع، ثم ظهرت الشلنات shillings فيما بعد، والكلمة تعني «الجزء المقتطَع»[7].

بدأت قطع النَّقد الخاصة بأوفا تتدفق بسرعة وغزارة من دور السكّ. وكان أوفا شديد الانشغال بإصدار القطع النّقديَّة بحيث اضطر لإضافة ثمانيَّة عشر

ضارب نقد إلى مجموعة العمل الأصلية المؤلَّفة من ثلاثة رجال. وقد تم إنتاج الملايين من قطع نقد أوفا المصنوعة من الفضة الخالصة ـ وهذا دليل قوي على كيفية ازدياد الطلب على النَّقد عندما بدأت الدول تتلمّس طريقها لتخرج من عصور الظلام. وكان هناك زيادة أكبر على طلب قطع النَّقد تنتظر دورها، وذلك عندما اضطر الإنكليز لتسليح أنفسهم ضد غزوات الفايكنغ، ولدى اضطرارهم، من حين لآخر، لعرض مبالغ كبيرة على أولئك الغزاة الإسكندنافيين في محاولة لاتقاء شرّهم[8]. وبحلول سنة 1000م، كان النَّقد الإنكليزي يُعتبر الأكثر تطوراً في أوروبا، وكان يجرى ضربه في شبكة من دور السَّكّ التي زاد عددها على السبعين داراً تنتشر في كل أنحاء إنكلترا[9].

وفي سنة 800، أي بعد مضي وقت قصير من بدء سكّ نقد أوفا، سافر شارلمان، ملك الفرنكيين وقاهر اللومبارديين، إلى روما ليتوَّج من قِبل البابا إمبراطوراً للإمبراطوريَّة المقدسة على سبيل المكافأة. وقبيل فترة قصيرة من ذلك التاريخ، أي في سنة 798، كان شارلمان وآيرين إمبراطورة بيزنطة قد أقاما علاقات ديبلوماسيَّة، حيث فكَّر شارلمان بالزواج من آيرين دون أن تثنيه شهوة السلطة التي استحوذت عليها، فبالنظر لتتويجه الوشيك الحدوث، كان ذلك الزواج سيشكِّل أعظم اندماج في التاريخ ومكسباً لا يمكن الاستهانة به. ولكن أحد المقرَّبين من آيرين أحبط مشروع الزواج هذا، وبعد عامين كانت هي في طريقها إلى المنفى بعد أن ضاعت منها فرصة الزواج.

كان شارلمان يَعتبر الأباطرة البيزنطيين أمثولة في التركيز على الذَّهب عوضاً عن الفضة. وقد تكون آيرين هي التي أثارت اهتمامه بسكّ النَّقد رغم أنَّه كان صديقاً لأوفا ومعجباً به. ولا بد أن شارلمان كان لديه من الذَّهب أكثر مما توفر للحكّام الأوروبيين الذين سبقوه أو الذين جاؤوا من بعده لفترات طويلة لاحقة. فقد أعاد فتح مناجم الذهب في منطقتي ساكسوني وسيسيليا كما جذب الصاغة من بيزنطة إلى عاصمته في إيكس، وكان يقوم بمهامه جالساً إلى مكتب

ذهبي حفرت على سطحه خريطة العالم، كما كان يمتلك عدة فيلات تضم كل منها صائغها الخاص. وعندما توفي، جرى تحنيطه ودفن جالساً على عرش ضخم من الذَّهب والعاج كان قد استورده من القسطنطينيَّة، وهو يحمل صولجاناً وترساً وسيفاً صُنعت جميعها من الذَّهب. وكما جرت العادة، كان نهب الذَّهب من الأعداء المقهورين مصدراً هاماً للذهب اللازم لألوان البذخ تلك. فعلى سبيل المثال، عندما هزم شارلمان الآفاريين سنة 796، وهم أفراد قبيلة آسيوية قاموا بتأسيس أَول إمبراطوريَّة منغولية سنة 407 ميلادية[10]، احتاج إِلى خمس عشرة عربة، تجر الواحدةَ منها أربعةَ ثيران لنقل الغنائم من الذَّهب والجواهر[11].

وما كان لكل تلك الأبّهة أن تكتمل دون وجود نقد ذهبي. حدَّد شارلمان قيمة الباوند الخاص به بعشرين شلناً و240 بنساً وبوزن باوند يبلغ 12 أونصة ـ شأن الرومان من قبله وشأن النظام الذي اتبعه الإنكليز فيما بعد. ولم يعمّر نقد شارلمان طويلاً، رغم استمرار نظامه الخاص بفئات العملات والأوزان[12]. وقد قضى من خلفه وقتاً في محاربة بعضهم البعض بقدر ما قضوا من الوقت في الدفاع عن مناطق نفوذهم، فتم تفتيت مملكته إِلى أجزاء. وقد نجمت صعوبة الموقف جزئياً عن عجزه في إِرساء قاعدة للوراثة تحافظ على وحدة المناطق التي كان يحكمها. وتشير الأدلَّة إِلى أن عملية إِعادة صياغة الذَّهب القديم بهدف ضرب عملة نقدية وصلت إِلى حد كان لا بد لتجاوزه من الحصول على موارد جديدة من الذَّهب من مصدر ما خارج أوروبا.

كان مصير النَّقد الفضي الذي أصدره أوفا أفضل من نقد شارلمان الذَّهبي، رغم انقسام مملكة أوفا الإنكليزيَّة أيضاً بعد وفاته. وقد وضع نقد أوفا

البنس في قلب النظام النَّقدي الإنكليزي: فحتى نهاية القرن الثالث عشر، أي بعد مرور خمسمائة سنة على ابتكار أوفا، كانت البنسات هي وسيلة الدفع الرئيسيَّة. وكان وضع بنس أوفا راسخاً لدى ظهور النورمانديين على مسرح الأحداث سنة 1066 بحيث رفض وليم الفاتح مبدأ تخفيض قيمة النَّقد الإنكليزي.

وعندما جرى أسر الملك ريتشارد الأَول ـ ريتشارد قلب الأسد ـ من قِبل ليوبولد، دوق النمسا، سنة 1192 في طريق عودته من الحروب الصليبية، ومن ثم «بيعه» إلى إمبراطور الإمبراطوريَّة الرومانيَّة المقدسة، تم نقل الفدية التي فُرضت على الشعب الإنكليزي، والتي بلغت 150,000 ماركاً (أي ما يعادل 100,000 باوند استرليني) من بريطانيا إلى القارة الأوروبية بشكل بنسات فضية. وتستحق تلك الكومة من قطع النَّقد الصغيرة أن تذكر في كتاب غينيس للأرقام القياسيَّة، كما أنَّها كانت تساوي مبلغاً يكفي لاستخدام أكثر من أربعين ألف نجار ماهر على مدار سنة[13](*). ومما يلفت النظر هنا هو استعداد الإنكليز للقيام بتلك التضحية الكبيرة في تلك المرحلة المبكرة من الوعي القومي وفي سبيل ملك لم يقض في بريطانيا إلاَّ قليلاً من الوقت خلال فترة حكمه.

ومن الصعب أيضاً تخيل الآليات التي تم بها نقل 24 مليون بنس. ففي سنة 1529، وعندما دفع فرانسيس الأَول ملك فرنسا ما يزيد على 1,2 مليون اسكود إلى شارل الخامس ملك إسبانيا كفدية لولديه، استغرقت عملية عد النقود وفحصها أربعة أشهر، قام الإسبانيون خلالها برفض أربعين ألف قطعة نقد لأنها دون المعيار المطلوب[14]. وفيما بعد، أي في سنة 1662، تطلب

(*) جاء في وول ستريت جورنال، عدد 6 أيار 1999، أن «الأسطورة تقول» دفع ف. و. وولورث فاتورة بقيمة 13 مليون دولار بشكل قطع من فئة عشرة سنتات وخمسة سنتات وذلك لقاء إنشاء مبنى وولورث في نيويورك».

الأمر مائة صندوق لتدبر أمر نقل خمسمائة ألف قطعة نقد فرنسيَّة من الفئات الكبيرة[15](*).

كان النَّقد الذَّهبي في العصور الوسطى ثميناً بحيث لم يجر تداوله بين أيدي العامة(**). وقد استُخدم غالباً في صفقات التجار المعنيين بالتجارة الخارجية، ومن قِبَل جامعي الضرائب، وحاشية الملك، وكما رأينا، استُخدم أيضاً من قِبل الملك كوسيلة لاتقاء شر الأعداء ولافتداء الأصدقاء وأفراد العائلة. وقد التزم هؤلاء جانب الحذر الشديد لتفادي قبول قطع نقد ذهبية لها وزن أَو تركيب أدنى من مستويات النقاء المطلوبة، مقدمين بذلك خدمة عامة للآخرين.

كانت الطريقة المفضلة لاختبار النوعية هي المحك، الذي أدَّى في ذلك الوقت وظيفة تماثل تماماً تلك التي كانت متّبعة قبل أَكثر من ألف وخمسمائة سنة في ظل حكم الليديين في آسيا الصغرى ـ حجر يتم حكّه بقطع ذهبية ومن

(*) تبدو هذه الحكاية دون مغزى إذا ما قورنت بالمشكلة التي يعاني الأوروبيون منها حالياً لدى محاولة إلغاء جميع العملات الوطنية القديمة لصالح اليورو. يبدو التخلّص من العملات الورقية سهلاً، ولكن ماذا عن ملايين قطع النقد المعدنية؟ . . . ويُذكر أن الهولنديين ـ وهم أصحاب أحد أصغر الأنظمة الاقتصادية المعدنية ـ لجؤوا لاستخدام مكان تفوق مساحته مساحة ملعبي كرة قدم وذلك كحلّ مؤقت. (مراسل خاص لجيمس هويل من أثرتون، كاليفورنيا، على الأرجح من الفاينانشال تايمز، عدد تشرين الثاني أَو كانون الأول 1998).

(**) لم يجر أبدا تداول قطع النقد الذهبية بنفس الطريقة كالفئات الصغيرة التقليدية. وعندما منحني جدي في عشرينات القرن العشرين قطعة نقد ذهبية بقيمة 5 دولارات في عيد الميلاد، انتظرت سنتين قبل أن أسمح لنفسي بإنفاقها.

ثم تجري مقارنته مع مجموعة من الإبر المحتوية على نسب مختلفة من الذهب والفضة، والذَّهب والنحاس، ومن المعادن الثلاثة. وكان كثير من التجّار يحتفظون بأحجار الحكّ لإجراء هذا الاختبار السريع والفعَّال. وفي حالات الخلاف، كانت قطع النَّقد تؤخذ إلى الصياغ الذين مهروا في استخدام أحجار الحكّ والإبر المرافقة لها، وقد ظلَّت جمعية صياغ لندن ما يزيد على سبعمائة سنة هي الحَكَم الرسمي فيما يتعلَّق بنقاء النَّقد البريطاني[16].

وتعتبر «اختبارات عينات القطع النّقديَّة» Trials of the Pys أهم اختبارات النقاء وأكثرها وثوقاً، حيث كانت تقوم لجنة عامَّة، تتألَّف من «اثني عشر مواطناً حكيماً ملتزماً بالقانون من سكَّان لندن واثني عشر صائغاً ماهراً»، بالإشراف على الفحص العلني لقطع النَّقد الصادرة حديثاً عن دار السَّكّ. ومن المرجح أن إقامة هذا الإجراء الاحتفالي تعود إلى فترة حكم الملك إدوارد الأول سنة 1282. وفي سنة 1982، وبمناسبة مرور سبعمائة سنة على بدء العمل به، حضرت الملكة إليزابيث الثانيَّة ووزير الخزانة جلسة الاختبار.

وكلمة PYX مشتقة من الكلمة الإغريقية التي تعني «الصندوق»، وهي تشير هنا إلى الصندوق الذي يحفظ فيه المسؤولون قطع النَّقد التي تم اختيارها لإجراء الاختبار عليها. وكان اختيار تلك القطع يجري على أساس عشوائي من بين إصدارات دار السَّكّ ـ وهو إجراء لا يزال يُتَّبع حالياً في المعامل التي تقوم بتدقيق منتجاتها للتأكّد من تجانس النوعية ـ ثم تجري مقارنة تلك القطع بدقة شديدة مع سبيكة اختبار خاصة من الذَّهب العائد للملك، والذي يحفظ عادة في غرفة لتخزين النفائس تدعى chapel of the Pyx في كنيسة ويستمنستر. كما كان يجري صهر بعض القطع في اختبار إضافي لنقاء الذَّهب[17](*).

(*) للاطلاع على مزيد من الوصف التفصيلي لاختبارات عينات القطع النقدية والمكانة التي تشغلها في تاريخ أخذ العينات الإحصائي، انظر ستيغلر Stigler، 1977.

لقد اعتبرت اختبارات عينات القطع النّقديَّة التي تفرّد الإنكليز بها، أمراً جدياً، فقد كانت تخدم هدفاً واقعياً نظراً لعدم وجود تعارض في المصالح بين الصياغ وأعضاء الهيئة، كما أنَّهم كانوا يؤدّون مهمتهم بشكل علني أمام العموم وليس في السر، لا لسبب إلاَّ للتأكّد من سلامة العملة. وفي وقتنا الراهن، نطلق على ذلك اسم الشفافية. فقد كانت تلك العملية تثني الملك عن تخفيض نسبة المعدن النفيس في العملة كما أنَّها كانت تشجّع النَّاس في جميع أنحاء أوروبا على قبول النَّقد الإنكليزي وإبرام الصفقات به.

إنَّ اختبارات عينات القطع النّقديَّة لا تقدّم الدليل الوحيد على عدم تسامح الإنكليز حيال القطع النّقديَّة ذات النوعية الرديئة. فقد كانت هناك عقوبات فوريَّة لا ترحم بانتظار ضاربي العملة وبقية موظفي دار السَّكّ ممن يصنّعون قطعاً رديئة أَو ممن يُشك بأنَّهم يمارسون أنشطة في دار السَّكّ تعود عليهم بمنفعة خاصة.

ففي سنة 1124، وبعد أن خسر النَّقد الإنكليزي ثقة العامة نتيجة تدهور وضع القطع النّقديَّة، استدعى الملك هنري الأَول جميع القيّمين على دور السك في المملكة، أي ما يقارب مائتي رجل، وعاقب نصفهم تقريباً بأن بتر أيديهم اليمنى جميعاً وهو عقاب يناسب جريمة تتحمَّل فيها السلطات العليا المسؤولية المطلقة. ويعلّق غلين ديفيز، وهو اقتصادي ومؤرخ إنكليزي مرموق قائلاً: «لقد نجا هؤلاء على الأقل من العقوبات الأشد قسوة والمتمثّلة في سمل العيون أَو بالإخصاء، أَو بكليهما معاً، وهي عقوبات كانت تطبَّق في بعض الأحيان»[18]. ولم تكن أصناف العقاب المماثلة مُستبعدة وذلك حتى مرحلة متقدمة من القرن السابع عشر. ويبدو أن ضاربي العملة كانوا خلال معظم مراحل التاريخ أناساً مراسهم صعب. ويذكر غيبون في كتابه «تاريخ انحدار وسقوط الإمبراطوريَّة الرومانيَّة» أنَّه حوالى سنة 175 ميلادي اشتكى الإمبراطور

أوريليان من أن العاملين في دار السَّكّ «يغشون النَّقد»، ثم قام هؤلاء بحركة تمرّد اقتضت قيام الإمبراطور باستدعاء سبعة آلاف جندي من داسيا، قبل أن يتمكّن من قمع ذلك التمرّد[19].

إنَّ التقليد الإنكليزي المتعلِّق بالنَّقد «السليم» يناقض إلى حد كبير عدم الانتظام الذي يميز العملات الأوروبية. ويمكن إرجاع مقاومة البريطانيين للتخلي عن الذَّهب، تلك المقاومة التي استحوذت على تفكيرهم في الفترة ما بين سنتي 1925 ـ 1931، إلى أصول عميقة الجذور. ففي سنة 1344 مثلاً، عندما كان وزن البنس الإنكليزي قد بقي على حاله دونما تغيير يُذكر على امتداد مائتي سنة، حاول إدوارد الثالث تمويل الحرب الكبرى ضد فرنسا بأن أجرى تخفيضاً طفيفاً على الوزن وأتبع ذلك بإجراء تخفيض أكبر سنة 1351، لكن قانون المتعهدين الذي سنَّه البرلمان سنة 1352 عبّر عن «الأمل بألاَّ يعاود الملك التلاعب بالنَّقد أو بمعايير الأوزان والمقاييس»[20].

وبخلاف الأساطير الشائعة حول رغبة الدولة الشديدة بتخفيض قيمة العملة كلما سنحت لها الفرصة، كان للملك مصلحة كبيرة ومشروعة في الحفاظ على سلامة النَّقد، لأن القطع النّقديَّة كانت هي الوسيلة الوحيدة تقريباً لإبرام الصفقات ولدفع الضرائب والديون. فقطع النَّقد السليمة التي تحمل دمغة التوثيق الملكية كانت تُصرف في الغالب بسعر أعلى بكثير من قيمتها الحقيقية كمعدن، وذلك لأنَّها كانت ملائمة للدفع أكثر من أية وسيلة أخرى. وقد وفَّر ذلك الفرق في السعر مصدراً للربح، وهو رسم سكّ الذَّهب Seignor، للملوك الذين احتكروا عملية ضرب العملة، وكان أي شخص آخر يحاول العمل في هذا المجال، يلقى مصيراً لا يُحسد عليه. وهذه الرغبة الشديدة في الحصول على رسم سكّ الذَّهب لدى ملوك العصور الوسطى تفسِّر حوادث سحب كلِّيّ للقطع النّقديَّة المتداولة في الكثير من الدول، كانت تجري بوتيرة تتراوح ما بين ثلاث إلى خمس سنوات، وذلك للاستعاضة عنها بقطع نقدية جديدة ذات

تصميم مختلف. وفي أغلب الأحيان، كانت هذه العملية تلقى ترحيباً، ذلك لأن وضع القطع النّقديَّة القديمة كان يتدهور باستمرار نظراً لتداولها أَو لاقتطاع أَجزاء منها من قِبل أَشخاص يأملون في بيع الأجزاء المقتطعة في السوق السوداء لقاء مقابل مالي.

إِنَّ بنسات أوفا واختبارات عينات القطع النّقديَّة، تعكس الأَهميَّة المتنامية للنقود وللتجارة لدى بزوغ فجر أوروبا بعد عتمة عصور الظلام. وعلى الرغم من أَهميَّة تلك التطورات، إِلاَّ أَنَّها لم تعدُ كونها البداية التي لعب فيها الذَّهب دوراً متواضعاً. أما التعقيدات الأَكثر إِثارة فقد كانت تنتظر دورها. كان الذَّهب على وشك الارتباط بالتعقيدات الاقتصادية والمالية المتزايدة وذلك لينافس القوة السياسيَّة والعسكريَّة في صياغة مجرى الأحداث في جميع أنحاء العالم.

7

التفاعل التسلسلي الكبير

كانت بداية سنة 1000م مناسبة لإجراء احتفالات كبيرة في جميع أنحاء العالم المسيحي، ولم تكن بداية الألفية الجديدة هي السبب الوحيد وراء الاحتفالات. فخلال ما يقرب الخمسمائة سنة استمر البرابرة القادمون من وراء الحدود الشرقية والشمالية للإمبراطوريَّة الرومانيَّة القديمة في شنّ غارات عنيفة على مجموعات السكَّان العاجزين عن الدفاع عن أنفسهم. ولكن، وبمرور الوقت، فقدت الغارات جِدّتها وتحوّل البرابرة السابقون من غزاة غرباء ليصبحوا جزءاً من السكَّان. فقد استقرّوا وتزوّجوا وكوَّنوا العائلات، كما فعل اللومبارديون النشيطون في شمال إيطاليا. ومما لا شك فيه بأن الحروب في أوروبا استمرت بشكل أَو بآخر على مرّ العصور، ولكن على الأقل توقف خطر غزوات البرابرة المرعب بشكل نهائي. ومن المؤكّد أن النورمانديين الذين غزوا بريطانيا سنة 1066 كانوا على درجة من الحضارة أرقى بكثير من أسلافهم الإسكندنافيين الأجلاف الذين جاءوا إلى فرنسا قادمين من إسكندنافيا.

وقد هيأت تلك التطورات الظروف المناسبة للقيام بخطوات رئيسيَّة في مجالات استخدام الذهب، وبخاصة في تعزيز التجارة وفي عالم المال. وخلال هذه العملية، أصبح الذَّهب الأداة الأكثر تفوقاً في مجال إدارة القوة الاقتصادية.

وبمرور الوقت برز الدور الاستراتيجي للذهب لدرجة أن الصراع في سبيل تأمين مصادر كافية منه أصبح يحرِّض الملوك والأُمم على القيام بأعمال جليلة وبخيانات مأساوية في السنوات التي أعقبت ذلك.

إنَّ تكاثر عدد الكاتدرائيات الضخمة التي بُنيت في كل أنحاء أوروبا خلال السنوات الثلاثمائة الأولى التي تلت الاحتفال بالألفية الأولى (1000م)، يُعد دليلاً واضحاً على الإشراق الذي بدأ يغلِّف الحياة في أوروبا. فخلال الفترة ما بين سنتي 1100 ـ 1200 فقط تم بناء أكثر من ثمانين كاتدرائية في فرنسا، بما فيها نوتردام وشارترز، إضافة إلى بناء خمسمائة دير وعشرة آلاف أبرشية وكنيسة. وفي بريطانيا، أُنشئت كاتدرائيات ديرهام وكانتربيري وإيلي، كما بُنيت في إسبانيا كاتدرائيات بورغوس وطليطلة وسانتياغو دي كومبوستيلا، وفي إيطاليا وصقلية شُيدت الكاتدرائيات في البندقية وفلورنسا وسيينا وباليرمو. كما تم إنشاء جامعات باريس وأكسفورد وبولونيا وساليرنو، وظهرت أشهر الأعمال الأدبية، مثل: السيد وأغنيات نيبيلانغن والقصائد الملحمية الفرنسيَّة «أناشيد البطولة» وأسطورة الملك آرثر. كانت فترة حَكَم فيها ملوك عظماء ـ رجال من نوع هنري الثاني في بريطانيا وفريدريك باربا روسا في الإمبراطوريَّة الرومانيَّة المقدسة وفيليب أغسطس في فرنسا[1]. أما أكثر النماذج شعبية، فكان الفرسان الذين برعوا في فنون الفروسيَّة والقدِّيس لويس المعروف بقيادته الأخلاقية التي يشوبها التديّن العميق.

تُعتبر الزيادة في عدد السكان هي الأهم من بين التطورات التي حصلت. صحيح أنّ عدداً قليلاً من النّاس كانوا يتعرضون للقتل، ولكنّ هذا ليس هو السبب الوحيد في ازدياء عدد السّكان، فضمن بيئة مسالمة كانت أعداد أكبر من الأطفال تبقى على قيد الحياة بعد الولادة. ففي باريس، مثلاً، ازداد عدد

السكان من مجرد مدينة صغيرة تحيط بجزيرة القديس لويس سنة 1100 إلى مدينة كبيرة كاملة تضم ما يقارب الخمسين ألفاً سنة 1215[2]. إنَّ النِّسب العالية للنمو السكاني لا تعني بالضرورة تدني مستويات المعيشة. ففي القرن الثاني عشر، تزايدت إمكانيات التخصّص بسبب تزايد عدد السكان الذي يسمح لعدد أكبر من الأشخاص بتكريس وقتهم للدراسة والفنون والبحث، وكان هذا التزايد هو الدافع وراء توفر المصالح المترابطة التي عادة ما توفرها المدن المأهولة بسكان يشتغلون في أعمال متباينة[3].

شكَّلت الحملات الصليبية ذروة الحيوية والتفاؤل اللذين ميَّزا هذه المرحلة، تلك المغامرة الكبرى التي جرت أحداثها في العصور الوسطى. فاعتباراً من سنة 1095 ولغاية سنة 1450 قامت جحافل من الأوروبيين ـ كثيراً ما كانت تضم نساء إلى جانب الرجال، وأحياناً تضمّ أطفالاً أيضاً ـ بالسير أو بالإبحار إلى القسطنطينيَّة أو إلى آسيا الصغرى، برغم إعادة الأراضي المقدسة إلى أحضان المسيحية. ولا شك بأن تلك الحملات قد شكَّلت في بعض الأحيان تعبيراً إيجابياً قوياً عن الإيمان، ولكنها في غالب الأحيان لم تَعْدُ كونها هروباً من ملل العيش في المدن الصغرى والأرياف تحدوه رؤى المجد أو حتى أحلام أكثر حيوية تتعلَّق بالثروات وبالكنوز التي سيجري الاستيلاء عليها والعودة بها إلى الوطن.

وخلال العقد الأول من القرن الرابع عشر فَقَدَ هدف ذبح الكفار جاذبيته وذلك لدى ازدهار التجارة والتبادل الفكري مع العرب. كما أن طُرق الملاحة والنقل عند العرب جعلت بالإمكان الحصول على المنسوجات الحريريَّة والمقصَّبة والتوابل والحمضيات وأقمشة الستائر الشرقية البديعة. وصار الأمراء ورجال الدين، الذين كان أسلافهم يقنعون بجدران جرداء وأرضيات عارية إلاَّ

من البُسُط القذرة، يصرّون على اقتناء القصور ذات القناطر المذهبة، وكسوتها بالستائر والأرائك والمطرزات وفرش أرضياتها بالسجاد الشرقي[4]. لم يكن كل ما تعلّمه الأوروبيون من العرب قد جاء به العرب أنفسهم، لكن العرب كانوا قد استطاعوا تجميع قدر هام من معارف الهنود والصينيين واستخدامه بالشكل الأمثل. وتلك المجموعة من العوامل المؤثّرة هي التي دفعت بماركو بولو للإنطلاق سنة 1271 في رحلته الشهيرة صوب الهند والصين.

فرضت الحملات الصليبيَّة متطلّبات ماليَّة ضخمة على تركيبة ماليَّة كانت ما تزال بسيطة. فبالإضافة لتكاليف المؤن والمعدَّات كان لا بدّ من إطعام الجنود وكسوتهم وتدبير مأوى لهم ودفع رواتبهم بعملة مقبولة في المناطق التي تمّ الاستيلاء عليها، حيث شكَّل الذَّهب أساساً لكل العملات وحيث كان الجيش يضم من الرجال الذين تدفعهم الحماسة الدينيَّة والشهامة والفروسيَّة أقل بكثير مما يضم من المغامرين والمرتزقة. كما أنَّه كثيراً ما تطلّب الوضع دفع فديات بعملة ذهبيَّة لتحرير الأَسرى، والسفن التي كانت تبحر باتجاه الشرق محمَّلة بالجنود والمؤن، كانت تفضّل تحميل شحنات بضائع بأَسعار مخفضة بدل الإبحار فارغة في رحلة العودة إلى أوروبا، مما شجَّع على إيجاد حركة استيراد ضخمة للسلع الجميلة من بلاد العرب، وهذا بدوره كان يتطلَّب دفعات تتمّ في غالبيتها بالذَّهب.

جاء معظم الذهب الذي استخدمه الصليبيون من الأراضي المقدسة نفسها، مما خفَّف وطأة الحاجة إلى استيراد الذَّهب من أوروبا. وقد عدَّد البروفيسور أندرو واطسون، في تقرير قدَّمه سنة 1967 إلى جمعية التاريخ الاقتصادي، الكثير من مصادر الذَّهب المحليَّة المتنوِّعة، مثل «الإعانات التي كان إمبراطور القسطنطينيَّة يدفعها للفرنكيين، والإتاوات المفروضة على الحكَّام العرب الذين حاولوا اتّقاء شر المسيحيين... والنهب، كالمصابيح الذَّهبيَّة، البالغ عددها عشرون مصباحاً، وكانت تزن 20,000 مثقال، والتي انتزعها تانكرد

من كنيسة القدس. . . والضرائب التي كانت تُفرض على المناطق المحتلَّة حيث كان الذَّهب منذ القدم هو أساس العملة». ويؤكِّد واطسون أن تلك المبالغ كانت «ضخمة بالفعل، رغم أنَّها كانت تُنفق بسرعة». ففي سنة 1191، مثلاً، اشترى فرسان الهيكل جزيرة قبرص بمبلغ مائة ألف بيزنط ذهبي ثم باعوها بالسعر ذاته إلى غي دي لوسيان. كما تم افتداء ريموند ملك طرابلس بمبلغ 150,000 بيزنط، وتم تحرير كامل جيش القديس لويس من الأسر بمبلغ ثمانمائة ألف دينار[5].

بدأت الحكومات المسيحية في الشرق تضرب العملات الذهبيَّة بدءاً من سنة 1124، وكانت تُستخدم قوالب تم الاستيلاء عليها وذلك لتبدو قطع النَّقد كالنقود المحليَّة، بما في ذلك النقوش العربيَّة المعتادة التي تثني على النبي محمد ﷺ. واستمر المسيحيُّون بإنتاج تلك القطع لمدة 125 سنةً، رغم أنَّه بمرور الوقت تزايدت نسبة القطع المزيفة، وكانت تُضرب عادة من معدن خسيس كالنحاس وتغلف بالذَّهب.

وفي سنة 1250 رُوّع البابا إنوسنت الرابع جراء قيام دُور السَّكّ المسيحية بضرب قطع نقديَّة تمجِّد العدو، أكثر مما روّعه التزوير، ليقوم أخيراً بتطبيق الحرم الكنسي على كل من تورّط في تلك العمليَّة[6]. كان ذلك الإجراء العنيف أمراً لا مجال لتفاديه لأن الأمراء المسيحيين الذين كانت تحرِّكهم النزعة العمليَّة أكثر من النزعة الروحية، أصرُّوا على الاستمرار بإصدار عملات يقبلها المسلمون دون نقاش. واستجابة لمطالب البابا، قام هؤلاء الأمراء باتخاذ خطوة معتدلة تمثَّلت في وضع أختام تضم أقوالاً مسيحيَّة مأثورة مع الاحتفاظ بالكتابات العربيَّة.

ويبدو أن اسم إنوسنت (البريء Innocent) كان لائقاً بالبابا. فالإنسان لا يسعه إلاَّ التساؤل عمّا حدا بالفاتيكان لأن يتوانى عن إدراك الحقيقة ـ أم أنَّه اختار التجاهل. وفي الواقع، فإنَّ تسلسل الأحداث ذاته كان قد وقع في إسبانيا

خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وفي كل أنحاء أوروبا وذلك فيما يخص الذَّهب والفضة[7].

لم تكن جهود إِنوسنت كافية لإِرضاء القديس لويس، الذي كان يقود حملة صليبيَّة في الأَرض المقدسة، فقام بإِضافة سلطته إِلى سلطة البابا. وظهرت عملة جديدة تماماً، وهي أغنوس دي Agnus Dei، وكانت تعكس كلاً من التواضع الديني لدى لويس وكبرياءه الفرنسي (المسيح يَقهر، المسيح يَحكم، المسيح يَأمر)، وهي تهليلة الملوك الفرنسيين المعتادة[8].

ننتقل الآن إِلى جهة الغرب عبر المتوسط إِلى مملكة صقليَّة، التي كانت في الفترة ما بين 1211 وحتى 1250 تحت حكم إِمبراطور الإِمبراطوريَّة الرومانيَّة المقدسة فريدريك الثاني، حفيد فريدريك باربا روسا العظيم وأحد عمالقة القرون الوسطى. كان فريدريك الثاني يضرب العملات الذهبيَّة بحماس ليستخدمها في إِظهار قوته الاقتصاديَّة.

وُلد فريدريك في صقلية سنة 1194 في السنة نفسها التي تم فيها تتويج والده ملكاً على الجزيرة. ورغم معاناته من وساوس الأمراض[9] إِلاَّ أَنَّه كان صليبياً متحمساً، أسَّس طبقة من الموظفين الإِداريين من الخبراء، وفتح صقلية أمام التجارة الحرَّة، وأحاط نفسه بأعظم مفكري عصره وفرض ضرائب باهظة على رجال الدين ومنعهم من شغل مناصب مدنيَّة، وقام ببناء القلاع في كل أنحاء صقلية، كما أسَّس جامعة في باليرمو لتدريب الموظفين ـ وهي أَول جامعة أوروبيَّة يجري إِنشاؤها برخصة ملكية. لا عجب إِذاً أن يكون فريدريك قد ترك بصماته على النَّقد الذَّهبي في زمانه.

قام فريدريك بالعديد من الأسفار وكان معظم الوقت في حالة حرب مع

البابوبة. فقد قاد الحملة الصليبيَّة السادسة سنة 1227، ثم عاد إلى صقلية لمحاربة البابا غريغوري التاسع ـ الذي طبَّق عليه الحرم الكنسي ـ ثم ذهب مرَّة أخرى إلى الأراضي المقدسة حيث أعاد السيطرة المسيحية على القدس. وفيما بعد استعاد الجنود المسلمون القدس ولم تستطع القوى المسيحية السيطرة عليها ثانيَّة، على الرغم من استمرار الحملات الصليبيَّة لمائتي سنة أخرى، وذلك حتى استولى عليها الجنرال البريطاني اللنبي سنة 1917. بعد أن أعلن فريدريك نفسه ملكاً على القدس، عاد إلى صقلية ليدافع عن بلده ضد هجوم بابوي آخر واستطاع تجاوز حرم كنسي آخر (كمرتد وفاسق وعدو للمسيح).

وعندما أسلم غريغوري الروح سنة 1241، مما كان مدعاة لارتياح فريدريك، تم انتخاب بابا جديد يُدعى سونوبالدو فييسكو، واتخذ لقب إنوسنت الرابع. وكان هذا هو الإنوسنت (البريء؟..) الذي منع المسيحيين في الأراضي المقدسة ـ ولو أن هذا المنع جاء متأخراً قليلاً ـ من ضرب قطع نقديَّة عليها كتابات عربيَّة تثني على النبي محمَّد. توقع فريدريك أن يكون هذا البابا صديقاً له، ولكن ذلك كان ضرباً من السذاجة من جانبه، لأن موطن فييسكو الأصلي هو جنوى، العدو اللدود لصقلية ومنافستها العنيدة في مجال الهيمنة الاقتصاديَّة. وسرعان ما اشتبك فريدريك وإنوسنت في حرب جرت فيها محاولة اغتيال فريدريك وأسر ابنه، الذي قضى السنوات الثلاث والعشرين الأخيرة من حياته في السجن. ثم وصل الأمر بصهر فريدريك إلى حد رهن عرش صقلية لدى بعض رجال الأعمال الجنويين مقابل الذَّهب.

لدى وفاة فريدريك كانت صقلية تعمل وفق معيارين متزامنين للذهب. الأَول هو تاري Tari الذي يعود إلى أصول عربيَّة وكان يُستخدم منذ القرن التاسع. ورغم أن التاري كان قد تعرَّض لبعض التخفيض بمرور السنين، إلاَّ أَنَّه اعتباراً من بداية القرن الثاني عشر وفيما بعد، بقي ثابتاً عند قيمة 3/ 1. 16 قيراط من الذَّهب. وقد اعتبرت تلك القيمة في ذلك الوقت أفضل من نقاء

الصوليدوس البيزنطي مما جعل ذلك المعيار راسخاً كواحد من أكثر المعايير ثباتاً في أوروبا. كانت العملات تُضرب بأحجام متعددة يجري تداولها على الأغلب على أساس وزنها لا على أساس قيمتها الفعليَّة. وقد جرى تداول التاري على نطاق واسع بحيث تحوَّل إلى نوع من الوحدة الحسابيَّة يسعَّر على أساسها الكثير من المواد.

وقد اعتبر فريدريك الثاني التاري أقل جلالاً وانتظاماً مما يليق بوطن إمبراطور للإمبراطوريَّة الرومانيَّة المقدسة في مثل مكانته الرفيعة. وبعد نصر عسكري ضد سكان تونس سنة 1231، ضمن لنفسه إتاوة سنوية ضخمة بشكل عملات ذهبيَّة وتبر الذَّهب من مصادر الذهب في إفريقيا الغربيَّة. وبدأت دور السَّك الإمبراطوريَّة التابعة لفريدريك بضرب عملة ذهبيَّة جديدة سميت أوغستاليس augustalis. ويصف روبرت ساباتينو لوبيز الأوغستاليس، بالنسر الكلاسيكي المطبوع على أحد وجهي العملة وبرأس الإمبراطور المكلَّل بالغار على الوجه الآخر بأنَّه: «وسيلة دعاية مروِّعة»، ونقيضاً دراماتيكياً للتاري الذي لا شكل له[10]. تم ضرب الأوغستاليس على أساس 5,20 قيراطاً وكان يزن 5,2 غرامات، مما جعل قيمته تفوق قيمة الدينار العربي. وسرعان ما أفقدت هذه العملة، ذات التأثير القوي، التاري تألُّقه، وتزايد الطلب عليها بقوة في جميع أنحاء أوروبا والشرق الأدنى.

كانت جنوى تعتبر فريدريك الثاني والصقليين أعداءها الرئيسيين. وقد داعبت أهل جنوى أحلام ضم صقلية إلى مناطق نفوذهم، وبدؤوا بشن حروب متقطعة ضد فريدريك اعتباراً من سنة 1238. استفادت جنوى استفادة مباشرة وهامَّة من انتخاب البابا إنوسنت الرابع سنة 1241 ومن هزيمة فريدريك سنة

1248 ومن ثم وفاته سنة 1250. كان إنوسنت، بشكل خاص، يغدق المزايا على مدينته، ثم شرع يطالب بمملكة صقلية لإلحاقها بحاضرة الفاتيكان.

وقد عوضت جنوى نقص القوة العسكريَّة لديها بسياسات اقتصاديَّة اتسمت بالمغامرة، فبحلول سنة 1250، كانت الصناعات النسيجيَّة مزدهرة في جنوة، واتسع نطاق إنشاء الأبنيَّة الجديدة. كما قامت الأحواض الكبيرة هناك ببناء القسم الأكبر من السفن الألف والثمانمائة التي أبحرت في حملة القديس لويس سنة 1248 تحت قيادة أميرالات من جنوى. ونشطت المشاريع التجاريَّة من كافة الأنواع، حضر المصرفيُّون والتجّار من الدول والمدن الرئيسيَّة في شمالي إيطاليا لإبرام صفقات الأعمال. ويقول لوبيز: «إنَّ تقنيَّة العمليات الائتمانيَّة ذاتها، التي تطورت بثبات خلال السنوات المائة الأخيرة، تمتّعت في تلك المرحلة بدرجة من النضوج لم يقدر لأحد تجاوزها لعدة سنوات قادمة»[11]. كان أهل جنوى قد قرضوا مبالغ كبيرة لكل من القديس لويس والبابا إنوسنت الرابع، ولعبوا دور المصرفيين في كل الحملات الصليبيَّة المهمَّة تقريباً. كما بدأت تظهر تباشير فرصة ضرب عملة ذهبيَّة جديدة في الأراضي المقدَّسة وذلك عندما أذعن الأمراء المسيحيون أخيراً لإلحاح البابا بأن يقوموا بإصلاح نقدهم.

وفي هذه الأثناء، بدأت تتوفر لدى أهل جنوى كميات متزايدة من الذَّهب، فقد بدأ العمل في مناجم ذهب جديدة في بوهيميا، ولكن المصدر الأساسي كان في الذَّهب الإفريقي المتدفق إلى جنوى بصورة رئيسيَّة نتيجة الميزان التجاري الرابح الذي كانت إيطاليا تُبقي عليه مع شمال إفريقيا. ويمكن أن نفهم من السجلات الجنوية أن التجارة مع الشرق أصبحت أيضاً تبشر بالخير، مما جعل قطع النَّقد الإسلاميَّة والبيزنطيَّة تتدفق إلى الشواطىء الإيطاليَّة حيث كانت تُصهر لتُضرب منها عملة جنوية. وفي الواقع، كانت، حتى الصين تشتكي في ذلك الوقت من خسارة الذَّهب عن طريق التجارة الخارجيَّة. وأخيراً، يمكن القول إن فترة الازدهار المستمر والمتين قد تؤدي أيضاً إلى

التخلي عن عادة تخزين الذَّهب. ونحن نعلم أن الإيطاليين كانوا يزودون الخزينة البريطانيَّة بالذهب في منتصف القرن الثالث عشر[12].

وكما كان الإنكليز يدركون في أيامهم الذَّهبيَّة، وكما تعلّم الأمريكيون خلال السنوات التي تلت الحرب العالميَّة الثانيَّة، فإنَّ النَّقد الصحيح يضفي بريقه على صورة الأمة لدى العالم، لذا فإنَّ عملة ذهبيَّة عالية القيمة يدعمها نقاؤها، كانت هي الوسيلة المُثلى بالنسبة لجنوى لتوسيع حدود مكانتها الاقتصاديَّة. وفي سنة 1252، أي بعد سنتين من وفاة فريدريك في صقلية، وعندما صادف أن انخفض سعر الذَّهب أكثر من المعتاد مقارنة بسعر الفضة، بدأت جنوى بضرب عملة ذهبيَّة من عيار 24 قيراطاً، سميت غينوفينو genovino (أو الغنوين genoin). ومما يثير الاستغراب، أن تلك العلاقة غير الوديَّة كانت نتيجتها أن اتخذ أهل جنوى نظام النَّقد الصقلي نموذجاً لهم. فقد تبنّوا أنظمة الأوزان الخاصة بالتاري ثم جعلوا عملتهم تتفوّق في نوعيتها على عملة فريدريك بأن ضربوها من ذهب بعيار 24 قيراطاً. وقد أدَّت كلتا الميزتين إلى تعزيز إمكانيَّة قبول النَّقد الجنوي في صقلية وهو ما كان الجنويُّون يتوقون إليه بشدَّة.

كانت تلك العملة تزن 3,5 غرامات تقريباً، أي أقل بغرام كامل من بيزنط قسطنطين الأصلي، لكن درجة نقائها البالغة 24 قيراطاً أضفت عليها قدراً كبيراً من الجاذبيَّة. فعملة من الذَّهب النقي تزن 3,5 غرامات تعادل تقريباً القوة الشرائية لثلاثة وثلاثين دولاراً سنة 1999، لكن القوة الشرائية للذهب فيما يتعلَّق بالسلع والخدمات كانت في العصور الوسطى أعلى بعدة أضعاف مما هي عليه في وقتنا الراهن. إنَّ القيمة العالية لتلك العملة في عصرها حملت مغزى فاق المغزى الاقتصادي: فقيمتها العالية تلك، أضفت الهيبة والمجد على من أصدرها. كما أن هذه الهالة ازدادت جمالاً لأن تلك القطع النقديَّة لم تُضرب

أصلاً ليتداولها العامّة، بل اقتصر ذلك التداول على الطبقات الراقية وكبار التجّار[13].

ويمكننا التوصل لفهم طبيعة الغنوين بمقارنته بقطعة نقد ذهبيَّة بقيمة 2,5 دولاراً أملكها أنا (الختم الموجود على القطعة هو «2/ 1. 2» لا «2,5» دولاراً)، يبلغ حجمها حجم قطعة العشر سنتات وقد ضُربت سنة 1865. قطعة النَّقد هذه تعادل 12٪ من الأونصة، أي نفس وزن غنوين القرن الثالث عشر تقريباً. هذه العمليَّة الحسابيَّة البسيطة تكشف لنا ثلاث حقائق مهمّة. الحقيقة الأُولى: هي أن الغنوين كان بحجم قطعة العشر سنتات الحاليَّة في الولايات المتحدة. والحقيقة الثانيَّة: بما أن قوة الدولار الشرائية سنة 1865 كانت تفوق قوة الدولار الحالي بسبعة عشر ضعفاً، تكون القدرة الشرائية لمبلغ 2,5 دولاراً، عندما ضربت القطعة سنة 1865، معادلة للقدرة الشرائية لمبلغ 42,5 دولاراً من الدولارات الحاليَّة. والحقيقة الثالثة: وقد تكون الأَكثر إثارة، أن تقليد ضرب قطعة نقديَّة تزن 3,5 غرامات قد استمر لمدة ستمائة سنة تقريباً.

لقد كان الدافع الرئيسي وراء إصدار الغنوين في جنوى، دافعاً تجارياً، ولكن أهل جنوى كانوا يدركون أيضاً أن القوتين الاقتصاديَّة والسياسيَّة تعزِّز إحداهما الأخرى. وبالفعل، فإنَّه خلال عشر سنين من إصدار جنوى لعملتها الذَّهبيَّة، أقنعت قوتُها، الحكام اللاتينيين في القسطنطينيَّة بتحويل المزايا التجاريَّة التي كانت حكراً على البندقية إلى جنوى. استغلت جنوى قاعدتها في القسطنطينيَّة لتوسيع مجال تجارتها ونفوذها إلى شمال بلاد فارس والقرم والشواطىء النائية للبحر الأسود وبحر قزوين. وسرعان ما بدأ أهل جنوى يغامرون بالتغلغل في مناطق النيل الأعلى ويستكشفون السودان وحوض نهر النيجر.

إنَّ الاحتياجات التجاريَّة تشكِّل السبب الرئيس في أن الخطوات الأُولى باتجاه ضرب العملات الذهبيَّة في العصور الوسطى قد بدأت في مدن كجنوى وفلورنسا، اللتين أصبحتا مركزاً لنشاط اقتصادي ومالي، ولم تبدأ في عواصم الدول مثل لندن وباريس أَو حتى روما. ويؤكد لوبيز أن أَحداث سنة 1252، قد أطلقت أَكبر التفاعلات التسلسليَّة في تاريخ المال.

> . . . إنَّ عودة الذَّهب قد أدَّت إلى أَكثر من توفير الرموز والمسكوكات: فقد خففت من حدة التوتر الذي ألقاه النمو الاقتصادي على كاهل عملة كانت دوماً لا تفي بالغرض. . وكانت أروع دليل على المكاسب الاقتصاديَّة التي تراكمت لدى العالم الكاثوليكي خلال القرنين أَو الثلاثة الماضية، ورمزاً ملموساً لبداية تفوّق الغرب على الشرق ـ لأن العالم الإسلامي وبيزنطة، اللذين كانا يضربان النقود الذَّهبيَّة عندما كانت أوروبا ما تزال قانعة بالفضة، خفَّضا من قيمة نقدهما الذَّهبي أَو توقفا عن ضربه كلياً[14].

لقد كان لوبيز دقيقاً في استخدامه تشبيه التفاعل التسلسلي لوصف ما حدث لاستخدام الذَّهب كنقد بعد إصدار الغنوين. فبعد شهور فقط من قيام جنوى بإصداره، قام الفلورنسيون بإصدار عملتهم المسماة فيروينو دورو Fiorino d'oro، أَو الفلورين، وقد سميت كذلك لأنها كانت تحمل على أحد وجهيها صورة زنبقة fleur-de-lys. وبعد ذلك بوقت قصير، أصدرت بيروغيا وميلانو نقداً ذهبياً، ثم تبعتهما لوكا حوالى سنة 1273. وفي سنة 1284 ظهرت عملة البندقية المسماة دوقية ducat، أشهر العملات الذَّهبيَّة في القرن الثالث عشر وأَكثرها نجاحاً. فعندما سمع شايلوك أن ابنته الهاربة جيسيكا قد «أنفقت في ليلة واحدة ثمانين دوقية» صرخ قائلاً «لقد غرزت خنجراً في لحمي، لن أرى ذهبي مرة أخرى! . . . ثمانون دوقية في جلسة واحدة! . . . ثمانون دوقية؟ . . .»[15] وقد قامت الدوقية بدور معيار للقيمة في كل أنحاء أوروبا

وحافظت على محتواها من الذَّهب حتى هُزمت جمهوريَّة البندقية أمام نابليون سنة 1797[16]. كانت كل تلك العملات تزن 3,5 غراماً وكانت مصنوعة من الذَّهب عيار 24 قيراطاً.

لم يقتصر إِصدار العملات النّقديَّة الذَّهبيَّة الجديدة على إِيطاليا بأي حال من الأحوال. فقد أصدر كل من ألفونسو العاشر ملك قشتالة والملك هنري الثالث ملك بريطانيا عملات ذهبيَّة سنة 1257، ثم تبعهما القديس لويس في الوقت نفسه تقريباً. ومما يؤسف أن البنس الذَّهبي الذي أصدره هنري ملك بريطانيا تم تحديده بقيمة غير مناسبة مقارنة بالفضة، وانتهى بفشل ذريع. وعندما أطلق هنري عملته كانت تساوي عشرين بنساً فضياً، ثم رفعت إِلى 24 بنساً، ولكن الكميَّة ذاتها من البضائع التي كان بإِمكان الذَّهب شراؤها، كان يمكن شراؤها بسعر أرخص وذلك بأن يجري الدفع بالفضة. وخلال ثلاثة أشهر، بدأت الشكاوى تتعالى في المنطقة التجاريَّة في لندن من أَنَّه لا أحد يرغب بصرف العملة الجديدة بالفضة. فالتجار لم يكونوا بحاجة إِلى النَّقد الجديد، أما الفقراء فلم يكن بإِمكانهم إِنفاق كل ذلك المبلغ في صفقة واحدة، أَو حتى في صفقات سنة كاملة. واعتباراً من سنة 1280 تقريباً اختفت آثار تلك القطع النّقديَّة.

ورغم ذلك اشتكى التجار الإِنكليز من أَنَّه كان يتعيَّن عليهم استعمال عملات ذهبيَّة أجنبيَّة في صفقاتهم الدوليَّة وفق قِيَم مرتبطة بالإِسترليني، ولم تكن مربحة على الإِطلاق بالنسبة لهم. وفي سنة 1343، حاول الملك إِدوارد الثالث أن يصدر فلورينا ذهبياً إِنكليزياً كانت قيمته الإِسميَّة أعلى من قيمته في السوق نظراً لمحتوى الذَّهب فيه، ولكن هذا أيضاً قُوبل بالمقاومة في كل مكان، حتى من قِبَلِ أفضل زبائن بريطانيا في الخارج. وعندما رفض الفلورنسيون قبول تلك العملة، وحجتهم الغريبة في ذلك، والتي لم تخلُ من طرافة، هي أن القطع النّقديَّة لم تكن تحمل صورة يوحنا المعمدان. دفعت تلك

الصعوبات بإدوارد إلى إصدار عملة ذهبيَّة جديدة في السنة التالية ذات وزن أنسب دعاها نوبل، كان وجهاها يمجِّدان انتصاريْ إدوارد العظيمين في حرب المائة سنة ضد الفرنسيين: معركة كريسي على البر ومعركة سلويز في البحر. وخلال سنيه الأُولى، تأرجح النوبل ما بين النجاح والفشل، لكنه، وبمرور الوقت، أصبح العملة الذَّهبيَّة الأساسيَّة في بريطانيا حتى وقت متأخر من القرن السابع عشر[17].

إنَّ الأداء البطيء للإنكليز يعكس إلى حد كبير بطء وتيرة تطورهم الاقتصادي والمالي بالمقارنة مع التطورات الحاصلة في القارة الأوروبيَّة. ففي القرن الثالث عشر، كانت لندن تعتبر مدينة أقل شموليَّة بكثير من مدينتي باريس أَو أوغسبرغ أَو الدول ـ المدن الإيطاليَّة، مما يتناقض بشكل دراماتيكي مع الدور الذي لعبته في العالم في القرنين التاسع عشر والعشرين. كان عدد سكانها خمسين ألف نسمة تقريباً، أي أنَّها كانت المدينة الوحيدة في إنكلترا، عدا يورك، التي يزيد عدد سكانها عن عشرة آلاف نسمة، ولم تتجاوز مساحتها نصف مساحة باريس وفلورنسا والبندقية وجنوى، كما أنَّها لم تكن أكبر من مدينة بروج أَو بولونيا أَو مدينة باليرمو[18]. أما الحسابات العمليَّة المتعلقة بمجال الأعمال والتي أدَّت إلى ظهور الغنوين والفلورين والدوقية، فلم تكن قد شغلت بعد تفكير الشعب الإنكليزي الذي غلب عليه الطابع الإقطاعي الريفي في ذلك الوقت، والسبب الرئيسي هنا هو أن الصفقة الإنكليزيَّة النموذجيَّة كانت أصغر بكثير من الصفقات التي كانت تبرم في القارة الأوروبيَّة. وحتى منتصف القرن الخامس عشر، كان الغرباء ما يزالون يسيطرون على 4 بالمائة من التجارة الإنكليزيَّة البحريَّة، وقد قام المصرفيون الفلورنسيون بتمويل حروب ابن الملك هنري، إدوارد الأَول، وابتاعوا كل إنتاج الصوف من إدوارد الثالث. واستناداً لأحد المصادر، فإنَّ التجار الإيطاليين «مارسوا استبداداً مالياً لم تعرفه لندن قبل

ذلك الوقت، فقد بدا [هؤلاء التجار]، ولمدة طويلة، قادرين على فرض معدلات صرف خاصة بهم بشكل قسري تماماً»[19]. كان ظهور «أمَّة من أصحاب الحوانيت» لا يزال كامناً في المستقبل.

إنَّ ملاءمة الفضة للصفقات الصغيرة، وكمياتها الوفيرة نسبياً، حفظا لها دورها كمعدن رئيسي لسكّ العملة لمدة خمسمائة سنة أخرى، لكنها لم تسترد مكانتها كشكل وحيد من النَّقد المضروب من معدن ثمين في أوروبا. ورغم ذلك، ازدادت، بمرور الوقت، حدة التفاعل المعقد بين المعدنين لتحوِّل هذا التفاعل إلى مصدر لنزاعات وتعقيدات لا نهاية لها. ولم يقتصر هذا التعقيد على المعدنين. فكما سنرى لاحقاً، فإنَّه وبمجرد بدء استخدام الودائع المصرفية والنقود الورقية بأشكالها المختلفة كبدائل مناسبة للقطع النّقديَّة المعدنيَّة، أصبحت العلاقة الملائمة بين هذين الابتكارين الفعَّالين وبين المعدنين الثمينين مثار جدل كبير لم يُحسم حتى هذه اللحظة.

أدَّى اتساع مجالي التجارة وعالم المال إلى تزايد التأكيد على النقود، لكن ذلك لم يكن بتأثير المبادلات المرتبطة بالعرض والطلب فقط. فهناك سحر ينبعث من المال بصورة طبيعية. إنَّ الحسابات الماليَّة تشتمل على تعقيدات الكسور والنِّسب، كما أن امتلاك المال يوحي بالقوة، وهو المفتاح للوصول إلى الأمم الأجنبيَّة. أما خطر فقدان المال فهو يبعث على الإثارة والخوف في آن معاً، كما أنَّه من الصعب مقاومة القوة التي يوحي بها المال. إنَّ تطور التجارة والصرافة في العصور الوسطى قد غذَّى كل تلك المصالح والدوافع.

وفي الأُفق، كان يلوح خطر انقطاع مرعب لهذه العمليَّة يتهدَّد أوروبا،

كانت تلك أَحداثاً متتاليَّة مروعة إِلى حدّ بدت معه النقود للحظة وكأنَّها لم تعد تهم في شيء. ولكن ما من شيء يضفي على النفس ما يشبه الغبطة الغامرة، يمكن له أن يُطمس لمدة طويلة. فسرعان ما عاد بريق الذَّهب يومض عبر الأهوال.

8

العصر المتهاوي وفديات الملوك

يُعتبر القرن الرابع عشر قرناً فريداً في التاريخ، فقد حفل بكوارث قاسية من مجاعات وأَوبئة وفوضى اجتماعية وحروب. كما كان نقيضاً هائلاً للتطورات والمنجزات التي ميَّزت القرنين الثاني عشر والثالث عشر في أوروبا. وقد وصفت باربرا توتشمان، التي ألَّفت كتاباً كاملاً عن أهوال القرن الرابع عشر، وصفته بقولها: «كان عصراً عنيفاً ومعذَّباً ومرتبكاً ومتألماً ومتهاوياً، وكما قال عنه الكثيرون، كان زمن انتصار الشيطان»[1]. ومما لا شك فيه بأن القرن العشرين قد شهد أهوالاً بشعة، ولكن كانت هناك على الأقل، فترات من السلم بين القوى الكبرى في أوروبا، في الفترة ما بين 1900 ـ 1914، والفترة ما بين 1918 ـ 1939، وبعد سنة 1945. أما القرن الرابع عشر فلم يعرف فترات راحة من هذا النوع.

كيف لبريق الذَّهب أن يشع من خلال ظلمة عصر كهذه؟... سنكتشف معاً أن الذَّهب، كان أحياناً، يتألَّق ببريق ساطع خلال القرن الرابع عشر، بل إِنَّه أنقذ أرواحاً كانت ستهلك لولاه. كما لم يشهد ذلك العصر تطوراً في الابتكارات الخاصة بسكّ النَّقد، أَو في تلك الخاصة بأية وسائل ماليَّة أخرى، تمكن مقارنته بالتطور الحاصل في السنوات المائتين التي سبقته، لكن الذَّهب

لم يتلاشى خلف الظلال. كما أنَّه لدى تراجع أهوال القرن الرابع عشر في نهاية الأمر أمام التطور الهام الحاصل في مستويات المعيشة والنمو الاقتصادي في القرن الخامس عشر، بدت كميَّة الذَّهب المتوفرة وكأنَّها دون مستوى الطلب المتزايد، الأمر الذي أطلق تحركات كبيرة من عقالها سعياً وراء مصادر ذهب جديدة في أجزاء أخرى من العالم.

كان صيف سنة 1314 في أوروبا بارداً ورطباً بشكل غير مألوف. وكانت النتيجة أن تعفَّنت الغلال وتأخّرت المحاصيل، وقامت السلطات التي تملَّكها القلق بفرض الرقابة على أسعار منتجات المزارع وحطب الوقود. تلك الكوارث كانت اعتياديَّة، سبق لها وأن حدثت كثيراً قبل ذلك.

إنَّ الطقس الرديء في سنة 1314 لم يكن سوى مقدمة لسلسلة من الكوارث، فشحّ الغلال نادراً ما كان يحدث في سنتين متتاليتين، لكن طقس سنة 1315 كان أسوأ من سابقه. فقد أدَّت الأمطار الغزيرة المتواصلة إلى حدوث فيضانات حطَّمت السدود في طريقها كما تسبَّبت الأنهار الفائضة بتخريب القرى، وضربت العواصف العنيفة السواحل. شملت آثار المأساة قارة أوروبا من إسكوتلندا إلى إيطاليا ومن جبال البيرينيه إلى موطن السلاف، كما ارتفعت أسعار المواد الغذائية بمقدار خمسة أضعاف وانتشرت المجاعات في كل مكان. ولم تكن تلك نهاية الأَحداث، فقد عاد الطقس سنة 1316 ليتسبَّب في المزيد من الدمار، مما أدَّى إلى حدوث أسوأ مجاعة في تاريخ أوروبا. أكل الناس القطط والحشرات وفضلات الحيوانات، ولما لم يجدوا طعاماً أفضل من ذلك، نبشوا القبور وأخرجوا الجثث منها. انتشرت الأَوبئة والجرائم العنيفة انتشاراً واسعاً. كما سادت موجة دموية عنيفة من تعذيب الذات، وشرع الناس بإلقاء

اللائمة على من تم اختيارهم ليكونوا كبش الفداء ـ كاليهود والمجذومين والنبلاء ـ فتم قتلهم دون تردد(*).

لم تكن المجاعة الكبرى، كما أصبحت تُعرف فيما بعد، سوى مقدمة لتلك القصة المروعة. ففي سنة 1347، كان الجنويون يدافعون عن مستعمرتهم كريميان في كافا (وتُعرف حالياً باسم فيودوسيا) المحاصَرة من قِبل جيش التتار الذين قدموا من أقاصي الشرق عبر أراضي روسيا الشاسعة. لم يكن سير الحصار لمصلحة التتار الذين تفتق ذهنهم عن فكرة استخدام قذائف فريدة من نوعها لضربها بالمنجنيق من فوق أسوار كافا لتسقط في مركز المدينة: وهي جثث جنودهم الذين قضوا نتيجة وباء مرعب. غادر الجنويون الذين تملكهم الهلع ـ والمرض فيما بعد ـ كافا على متن سفنهم الشراعية مبحرين عبر البحر الأسود وبحر إيجة باتجاه إيطاليا. وعندما وصلت إحدى السفن الجنوية إلى باليرمو في جزيرة صقلية، كانت البراغيث والجرذان والأشخاص المحتضرون على متنها هم طليعة ما أصبح يُعرف بالموت الأسود(2).

وخلال السنتين التاليتين انتشر الوباء المرعب انتشار النار في الهشيم في كافة أرجاء أوروبا. إن تقديرات عدد السكان غير دقيقة ولا يُعوَّل عليها، ولكنه من المرجح بأن الموت الأسود قد أودى بحياة ثلث السكان تقريباً في المنطقة الممتدة ما بين الهند وآيسلندا، أي عشرين مليون نسمة على الأقل. ولم يعد

(*) وحتى ذلك لم يشكِّل نهاية الطقس الردي، فقد تجمد بحر البلطيق سنة 1316، وفي سنة 1333 تعرّضت فلورنسا لأسوأ فيضان في تاريخها، كما أن العواصف العنيفة في بحر الشمال ضربت الشواطىء أربع مرّات خلال الفترة ما بين 1316 ـ 1404، وذكر رجل دين نرويجي في غرينلاند سنة 1350 أن «تكسّر أنهار الجليد المتقدمة جعل من الإبحار في المسارات البحرية القديمة أمراً مستحيلا». (انظر دي، 1978، ص 187).

عدد سكان أوروبا إلى المستويات التي كانوا عليها سنة 1300، حتى منتصف القرن السادس عشر[3].

لقد كان الرجال، والنساء بنسبة أكبر، يموتون بسرعة بحيث لم يكن هناك وقت أو رغبة في إجراء الطقوس الجنائزيَّة، كما أن الدفن اللائق لم يكن خياراً متاحاً. وفي بعض المدن الكبرى، تجاوز معدل الوفيات الخمسين بالمائة وكان يصل إلى الذروة في المآوي المكتظة داخل الأديرة. لم يكن الوباء ليقيم أي اعتباراً للمكانة: فقد أزهق أرواح ملك قشتالة، وملكة أراغون وابنتها، وابن إمبراطور بيزنطة، وملكة فرنسا وابنتها، وملكة نافار، وزوجة الابن الأكبر لملك فرنسا، ولورا محبوبة بترارك، ورسَّامَي مدينة سينيا أمبروغيو وبيترو لورينزيتي، وأندريا بيزانو من فلورنسا، والمؤرخ العظيم جيوفاني فيلاني (الذي لفظ أنفاسه الأخيرة وهو يقول: «في وسط الوباء جاءت النهاية»)، والابنة الثانية لملك إنكلترا إدوار الثالث، ورئيس أساقفة كانتربري، والأسقف الذي عيّن خلفاً له، والأسقف الذي عُيِّن خلفاً لمن خلفه[4]. ويبدو أن كل تلك الكوارث لم تكن كافية، فقد حدث سنة 1348 ـ حينما كان الموت الأسود يستجمع قواه للانقضاض ـ أن ضربت هزَّة أرضية فاجعة أثارت الخراب والدمار من مدينة نابولي وحتى مدينة البندقية، لحقتها هزَّات تالية هدمت الأبنيَّة وقتلت الأشخاص. وقد وصلت آثارها حتى ألمانيا واليونان.

لم تكن الطبيعة هي القوة الوحيدة التي سبَّبت العنف والموت في القرن الرابع عشر، فقد غدت التمزقات السياسيَّة القاسية داءاً مستعصياً.

في سنة 1303، تمّ أسر البابا على يد حشد من الرعاع ليموت بعد ذلك بوقت قصير في ظروف غامضة، ويشير أحد المؤرخين إلى موته «بسبب شعوره بالإذلال»[5] ثم قُتل البابا الذي خلفه. أما البابا الذي جاء بعد ذلك، وهو رجل فرنسي اسمه كليمانت الخامس، فقد لزم جانب الحذر ونقل مقر البابويَّة إلى مركز منعزل في موطنه في أفينيون سنة 1305، حيث عاش البابوات حياة ترف

وراحة للسنوات الثلاث والسبعين التي تلت. وقد اشتكى بترارك من أنَّه حتَّى الجياد البابوية كانت «تُكْسى بالأردية الذَّهبية، وتتغذَّى على الذَّهب، كما كانت على وشك أن تنتعل الذَّهب لو لم يضع الله حداً لاستمرار ذلك البذخ الوضيع»[6]. من أين جاء كل ذلك الذَّهب؟... لقد أتى نتيجة تجميع التركات التي خلفها الأغنياء ممن قضوا نتيجة الموت الأَسود. وكان ذلك هو الوقت الذي قام فيه ملك فرنسا فيليب الرابع بمنع تصدير الذَّهب إِلى خارج فرنسا بأي شكل. ويلمِّح أحد الكتَّاب إِلى أن هذا القرار، وليس الخوف من العنف الجسدي، كان الدافع الحقيقي وراء انتقال البابا إِلى أفينيون، وحجَّة الكاتب في ذلك أن البابوية كانت ستواجه الإِفلاس لو أنَّها ظلَّت في روما، وأنَّها قد انتقلت إِلى فرنسا لتحافظ على عائداتها الوفيرة الآتية من مصادر فرنسية[7].

وفي سنة 1327، قُتل ملك بريطانيا إِدوارد الثاني، الذي كان يجاهر بشذوذه الجنسي، بإِدخال قضيب محمى في مؤخرته. وفي سنة 1316، تمّ إِقصاء الملك لويس العاشر ملك فرنسا، المعروف باسم لويس المشاكس، بعد مرور سنتين فقط على اعتلائه العرش. وفي سنة 1332، تفرّق شمل الدانماركيين ذوي المزاج الكئيب ليقعوا في أحضان الفوضى. وفي الإِمبراطوريَّة الرومانيَّة المقدسة، شنّ غيلفز الحرب على غيبيلينز. وفي سنة 1338، اندلعت حرب المائة سنة بين بريطانيا وفرنسا، لتضيف إِلى أعمال التشويه المنتشرة على الصعيد الشخصي، المزيد من أعمال القتل المنظَّم من قِبل الحكومات. وفي سنة 1358، قام الجاكيريون بثورة فلاحية عنيفة في فرنسا احتجاجاً على ضرائب الحرب، وهو عبء دفْع فديات ضخمة لتحرير أسرى العائلة المالكة، وارتُكبت أعمال السَّلب من قِبل المرتزقة الجوَّالين ممن كانوا قد اشتركوا في الحرب. وفي سنة 1379، أي بعد سنة من حدوث العصيان المسلَّح في فلورنسا، قام النسَّاجون والتجّار في غِنْتْ بتمرّد وصلوا فيه إِلى حد محاولة تحويل نهر ليس مما دفع المؤرِّخ المعاصر لهم فرويسارت للتساؤل: «هل بوسع من يقرأ ذلك أَو

يسمعه إلاَّ القول بأن ما يجري هو عمل من أعمال الشيطان؟ . . .»[8] وفي سنة 1381، وبعد سلسلة جديدة من ضرائب الرؤوس، قام الإنكليز بثورتهم الفلاحية العنيفة الخاصة بهم بقيادة وات تيلر. وبعد سبع عشرة سنة، قام هنري بولينغبروك بإقصاء ابن عمه الملك ريتشارد الثاني عن العرش.

إنَّ أقل ما توصف به النتائج الاقتصادية لكل حالات الموت والتمزّق السياسي المذكورة هو الغرابة، وبخاصة مذبحة الموت الأسود. ففي الوقت الذي كانت تختفي فيه أكوام الأجساد البشريَّة، ظلَّت ممتلكات الأشخاص المادية وثرواتهم النَّقديَّة موجودة. لقد تركت هذه العملية المروعة معظم الأوروبيين في مستوى من الثراء أعلى بكثير مما كانوا عليه قبل وقوع المأساة. وبعبارة أخرى، لدى تناقص عدد الفقراء ازداد ثراء الباقين. وسرعان ما أخذ هؤلاء يتصرَّفون على هذا الأساس.

واستناداً لأحد المؤرخين، ازداد عدد مواطني ألبي في جنوب فرنسا، ممن يمتلكون ثروات تزيد على مائة ليڤرة Livre، من 11 بالمائة ليصبح 20 بالمائة من عدد السكان وذلك خلال الفترة 1343 ـ 1357، بينما انخفض عدد الذين يملكون أقل من 10 ليڤرات من 31 بالمائة ليصبح 18 بالمائة[9]. وقد توفي العديدون دون أن تتاح لهم فرصة كتابة وصية، تاركين ثروات لا تخص أحداً. وأدَّى ذلك إلى ازدياد الطلب على المحامين لتسوية النزاعات المتعلِّقة بالميراث والتركات، كما أتاح أيضاً فرص القيام بمغامرات للاستيلاء على الممتلكات التي لم يطالب بها أحد. وإضافة لكل ذلك، انخفض عدد الأيدي العاملة انخفاضاً كبيراً، وأدَّت ندرة العمَّال، إضافة لوفرة المال، إلى زيادة حادة في الأجور وفي مداخيل العمَّال.

وبخلاف ما يمكن لنا أن نتوقعه ضمن ظروف كهذه، أي قيام العديد من

العمَّال بهجر المزارع للاستمتاع بمغريات المدينة، ظلَّت أَسعار المواد الغذائية ثابتة بشكل ملحوظ، فالخسارة في الأرواح كانت كبيرة بحيث أن تأثيرها على طلب المواد الغذائية كان أكبر من مقدار تناقص المواد الغذائية المتوفِّرة والناتج عن انخفاض عدد العاملين في ميدان الزراعة[10]. وعندما أصبحت ضروريات الحياة لا تحتل سوى جزء بسيط من الإِنفاق الإِجمالي، بدأ استهلاك اللحم والزبدة والسمك والخل والتوابل الغريبة يزداد حتى بين أفراد الطبقة الدنيا[11].

وضمن بيئة مضطربة وقلقة كهذه، تراجع دافع الادخار ليحتل مكاناً متواضعاً بينما أصبح لدافع الإِنفاق إِغراء لا يقاوم. وفي سنة 1375، نرى مؤرخاً من فلورنسا يشعر بالسخط «لرؤية أفراد الطبقة الوضيعة وهم يرفضون القيام بمهامهم السابقة، ويرتدون ملابس لا تليق بمستواهم ويصرّون على تناول أنفس اللذائذ على موائدهم»[12]. وفي بريطانيا، جاء في عريضة مقدّمة من مجلس العموم سنة 1362، أن السَّبب وراء ارتفاع الأَسعار هم «العمَّال الذين يتَّخذون سيماء الحرفيين، والحرفيون الذين يتَّخذون سيماء وُصفاء السادة، والوصفاء الذين يتَّخذون سيماء مرافقي كبار الشخصيات، والمرافقون الذين يتَّخذون سيماء الفرسان»[13]. وفي قصيدته المسماة بييرز بلومان Piers Plowman، يهاجم ويليام لانغلاند العامل الذي «يرفض أن يتحمَّل عبء الفقر بصبر، ويقوم عوضاً عن ذلك بإِلقاء اللوم على الله، ويدمدم متذمِّراً ضد المنطق ويلعن الملك ومجلسه لوضعهم قوانين [الحدود القانونيَّة القصوى للأجور] تهدف إِلى إِزعاج العمَّال»[14].

ولم يشكِّل رجال الدين استثناء في هذا المجال. ففي سنة 1351، سأل البابا كليمانت السادس أساقفته: «بماذا يمكنكم أن تعظوا الناس؟ . . . حول الفقر، أنتم تشتهون كل شيء، إِنَّ كل مداخيل العالم لا تكفيكم. حول العفة، أعتقد أنني سألتزم الصمت هنا، لأن الله يعرف ما يفعله كل رجل ويعرف أن العديد منكم لا يقصر في إِرضاء شهوته»[15].

وفي الوقت الذي ظلَّت فيه كلفة المنتجات الزراعية المحليَّة العادية ثابتة

نسبيّاً، تزايد الطلب على المآكل الغريبة، مما كان له تأثيرات متوقّعة على الأَسعار. فاستناداً لأحد المصادر، ارتفع مؤشر أَسعار البضائع الأجنبية مثل سمك الرنجة والفلفل والزيت والسكر واللوز والزعفران من 100 (خلال الفترة ما بين سنتي 1261 ـ 1350) إِلى 162 خلال الفترة ما بين 1351 ـ 1400. ويقدر نفس المصدر أن إِنفاق الفرد على المشروبات قد تضاعف تقريباً خلال الفترة نفسها[16].

إِنَّ النهم المتعاظم للنفائس المستوردة كالأطعمة الفاخرة وتزايد الميل العام للبهرجة في الثياب، إِضافة للعبء الثقيل المتمثِّل في الإِنفاق العسكري، كل ذلك أدَّى إِلى ارتفاع موجة الطلب على كل من الذَّهب والفضة. لكن المقادير المتوفرة من هذين المعدنين الثمينين لم تستطع تأمين المطالب المتزايدة. وأدَّى نقص المعدنين إِلى جعل دُور السَّكّ تتوقف عن العمل لفترات طويلة. ففي الفترة ما بين سنتي 1373 ـ 1411، كان معدل إِنتاج القطع الذَّهبية في إِنكلترا 9500 باوند إِسترليني فقط في السنة، أي عشر الإِنتاج قبل كارثة الموت الأَسود[17]. كما توقف الإِنتاج في مصادر التّعدين لأن الأجور التي ارتفعت بشكل لم يسبق له مثيل، لم تفلح في جذب الرجال إِلى مشاق العمل في مناجم الذَّهب. أما الأوامر القاضية بعدم تصدير «النَّقد الجيد» أَو المعادن الثمينة فلم يكن حظها من النجاح بأوفر من حظ النُّظم التي كانت تطلب من المستوردين استخدام العائدات التي يحصلون عليها لشراء سلع منتجَة محلياً من أجل تصديرها. إِنَّ تكرار تواتر الأوامر من هذا النوع يوحي بأن فرضها لم يكن سهلاً وبأنَّها كثيراً ما كانت تُقابل بالتجاهل[18].

أما القيود المتعلِّقة بالأجور والأعمال فلم تحقِّق نجاحاً أفضل. فقانون الملك إِدوارد الثالث الخاص بالعمَّال، الذي أقر سنة 1351، حدَّد معدلات الأجور القصوى عند المستويات التي سادت قبل انتشار الوباء، كما طالب كل الرجال القادرين جسدياً بأن يعملوا، وقيَّد إِمكانيَّة تنقل العمال بين الوظائف وحتى أنَّه حدّ من حريتهم في التحرّك بين القرى. وفي نهاية الأمر، أدَّت

المحاولات المتكرِّرة لفرض تلك القيود إلى التمرّد العنيف الذي قاده وات تايلر سنة 1381[19].

وأحد الجهود الهادفة إلى الاقتصاد في الذَّهب، والتي تفوق ما ذُكر غرابة ـ بل وعقماً ـ مجموعة من النُّظم تحمل اسماً غريباً وهو قوانين تنظيم الإنفاق sumptuary laws. والكلمة مشتقة من الكلمة اللاتينيَّة sumptuarius ـ وتعني الأَخْذ أَو الإنفاق ـ وهي ذات جذور مشتركة مع كلمة sumptuous (مترف). كما أنَّها تشترك في جذورها مع كلمة consume (يستهلك)، التي يمكن تحليلها إلى جزأين con وsume. وكلمة «sume» بدورها مشتقة من الكلمة اللاتينيَّة sumere، التي تعني الأَخْذ أَو الإنفاق.

كان الغرض من تلك القوانين هو الاقتصاد في استهلاك الذَّهب الذي أصبح نادراً، وذلك عن طريق منع النَّاس من الإسراف في استخدامه كوسيلة للزينة الشخصيَّة ـ وهو هدف يبعث على الريبة في أعقاب الموت الأَسود. كان ذلك الزمان، كما وصفه توتشمان، هو وقت «المباهج المسعورة والإنفاق الجامع والترف والفسوق»[20].

أما قانون الملك إدوارد الثالث الذي أُقرّ سنة 1363، فقد كان نموذجاً لقوانين تنظيم الإنفاق في القرن الرابع عشر. لقد وضع إدوارد حدوداً قصوى للتبذير المسموح به لكل طبقة. وقد توجب على الريفيين الاقتصار على قماش البطانيات والقماش الخشن المغزول في المنازل ذي اللون البني الضارب إلى الحمرة والمسمَّى russet، ولم يكن ليسمح لساسة الخيول وللخدم بارتداء الذَّهب بأي شكل من الأشكال، أما السادة دون درجة الفارس فقد حُظِّر عليهم ارتداء الأقمشة المذهبة، كما مُنع الفرسان مُن وضع الخواتم الذَّهبية. وفي سنة 1380، ذهب ملك قشتالة إلى أبعد من ذلك بأن منع جميع الإسبانيين، عدا الملكات والأميرات من ارتداء أقمشة مذهبة أَو مجوهرات ذهبية[21].

لقد تم إقرار قوانين تنظيم الإنفاق المرة تلو الأخرى مثلما حدث لقوانين

منع تصدير الذَّهب، وللسبب نفسه دون شك. لكن الذَّهب، كالخمر، يستطيع إِرضاء العديد من الاحتياجات بحيث يمكنه تجاوز قوانين التحريم تلك.

استخدم الأَباطرة البيزنطيون الذَّهب لإِقناع الآخرين بخوض الحرب وبالقتال لمصلحتهم. أما الحروب التي لم تنقطع تقريباً في القرن الرابع عشر، فقد استخدمت الذَّهب لهدف معاكس تماماً: وهو دفع فديات لإِنقاذ الأرواح. وقد استدعت معظم الفديات في القرن الرابع عشر، انتقال الذهب داخل أوروبا، لكن وجود مخاطر الهزيمة العسكريَّة في جميع الدول كانت تعني اضطرار الملوك لتخزين احتياطات ضخمة من الذَّهب كضمان ينفع في اليوم الأَسود الذي يتحتم فيه افتداء الأسرى. وفي تلك البيئة الكريهة للقرن الرابع عشر، كانت الفديات تُعتبر عبئاً مرهقاً بشكل خاص.

هل يجب أن نستنكر الثمن الباهظ لافتداء الأسرى؟... لقد كان ارتفاع الثمن الذي يتوقعه المنتصرون يعزِّز لديهم الدافع للحد من سفك الدماء في ميادين القتال. فلا بدّ إِذاً أن مجال الأعمال المتعلِّق بالفدية ـ التي كانت بشكل أَو بآخر مجالاً للأعمال ـ هو السبب في إِنقاذ العديد من الأرواح، وبخاصة بين الطبقات العليا من المجتمع.

وأَكثر الأمثلة إِثارة عن الأسر والفدية مثال يتعلَّق بملك فرنسا نفسه جان الثاني، الذي عُرف باسم جان الصالح. أحب جان البذخ إِلى درجة الإِفراط، حتى أنَّه جعل رسام القصر يزخرف له المرحاض. وفي خطوة تثير الانتباه في ذلك العصر أصدر أوامره بترجمة الكتاب المقدس إِلى الفرنسية ليتمكَّن من قراءته بمزيد من السهولة. وقد أنفق كثيراً من المال على نفسه، وعلى محاولة قتال الإِنكليز لدرجة أنَّه أصبح خبيراً بتخفيض قيمة العملة: فقد قام بتخفيضها ثماني عشرة مرة في السنة الأولى من عهده وسبعين مرة أخرى خلال السنوات

العشر التالية. وبعد أن اكتشف أحد رجال الكنيسة أن المسائل المالية في عصره أضحت أكثر إرباكاً من الموت الأَسود، كتب بضع كلمات خالدة بهذا الشأن:

إنَّ المال والعملة هما شيئان غريبان.
إنَّهما يستمرّان في الصعود والهبوط دون أن يدري أحد السبب، وإذا أردت أن تربح، فإنَّك تخسر، مهما بذلت من جهد[22].

كان أكبر أبناء جان الصالح، الذي حمل لقب الدوفين (وهو أيضاً دوق نورماندیا) مراوغاً فيما يتعلَّق بولائه لأبيه. وفي نيسان من سنة 1356، أقام حفل عشاء في قلعته في روان لابن عمه وجاره تشارلز الشرير، ملك ناڤار، وهو يأمل في تدبير مؤامرة للاستيلاء على عرش فرنسا. كان تشارلز الشرير رجلاً سيئاً، بحيث أن كل شخص يقارن به، مثل جان، لا بد وأن يوصف «بالصالح». وقام جان، الذي علم مسبقاً بالاجتماع بين تشارلز والدوفين، باقتحام المكان بشكل مفاجيء بكامل عدَّته الملكية المسلحة. وأمر فوراً بذبح بعض أفراد حاشية تشارلز، ثم ألقى به في السجن مصادراً ممتلكاته في نورماندیا.

قام شقيق تشارلز، ومن بقي على قيد الحياة من حاشيته، بطلب المعونة من بريطانيا لاسترجاع الممتلكات. استجاب الإنكليز دون أي تردد، وسرعان ما كانت قواتهم تنهب الأَرض في طريقها إلى فرنسا من شيربورغ تحت قيادة دون لانكاستر. وفي شهر تموز، وصل أمير ويلز إلى بوردو، وهو ولي عهد بريطانيا، الملقَّب بالأمير الأَسود، وكان من أعظم المحاربين والقادة في عصره («الأسود» يشير إلى لون درعه)، على رأس ثمانية آلاف جندي، ثم بدأ بشنّ سلسلة من الغارات المدمِّرة خلال مسيرته إلى الشمال عبر المنطقة الغربية من فرنسا. قرَّر جان أن لا خيار أمامه سوى مواجهة أعدائه في معركة كبرى يجري الإعداد لها جيداً. وبكل ثقة، قاد جيشه المؤلَّف من ستة عشر ألف رجل،

أضخم جيش في ذلك القرن، وسار باتجاه اللوار قاطعاً الطريق على الأمير الأسود أثناء تقدمه باتجاه الشمال[23].

وفي 19 أيلول من سنة 1356، هُزم الجيش الفرنسي أمام قوات الأمير الأسود في معركة بواتييه، رغم تفوقه الاستراتيجي من حيث الموقع، ورغم أن عدد جنوده بلغ ضعف عدد الجنود الإنكليز. بعد سبع ساعات من بدء المعركة، اكتشف الإنكليز المجموعة التي كان جان يقاتل فيها وهاجموها بأقصى سرعة، «كخنزير كورنوول المتوحش»[24]. قاتل جان بكل بسالة وإلى جانبه أحد أبنائه المخلصين، لكنه فقد خوذته وأخذت دماؤه تنزف من جرحين أصابا وجهه. وعندما تعالت الأصوات من حوله تهيب به أن «استسلم، استسلم أَو تموت»[25]. قدم جان قفازه لأحد جنود العدو وأصبح ملك فرنسا بذلك أسير حرب.

لم يكن الملك هو الأسير الوحيد ذا المكانة المرموقة في ذلك اليوم. فقد كان معه أيضاً قواد عسكريون فرنسيون من ذوي الرُتب الأرفع، وما يزيد على ألفي شخص من النبلاء. كان عدد الأسرى يتجاوز قدرة الإنكليز على تدّبر أمرهم. وقد طُلب من معظم السجناء التعهد بشرفهم بالمجيء إلى بوردو حاملين فدياتهم بحلول عيد الميلاد ـ وفي أيام الفروسية، كان طلب كهذا يُعتبر من الأمور العادية. ورغم ذلك، اشتكى كثيرون من الجنود الإنكليز من مهارة رماة جيشهم في التسديد، لأن الأسهم التي انهالت بدقَّة كبيرة على القوَّات الفرنسية، حرمت المنتصرين من فرصة احتجاز عدد أكبر من الأسرى للحصول على فدياتهم[26].

اصطحب الأمير الأسود ملك فرنسا عائداً إلى بريطانيا بعد سبعة أشهر من المعركة ورتّب له أمر إقامته في قصر سافوي حيث عاش حياة مترفة إلى حين دفع الفدية. ولكن كم بلغت تلك الفدية؟ . . . عندما رفض الفرنسيون تسوية

مبدئية سنة 1358، ردَّ الإنكليز برفع سقف طلباتهم. وفي تلك الأثناء، كان الوقت يمر.

في شهر آذار من سنة 1359، أي قبل ستة أشهر فقط من انتهاء الهدنة التي تمَّ التوصّل إليها في بواتييه، وقّع جان معاهدة لندن. ويبدو يأسه واضحاً من خلال الشروط التي وافق عليها: فمقابل إطلاق سراحه من الأسر، كان عليه التخلي عن كامل المنطقة الغربية من فرنسا من كاليه وحتى جبال البيرنيه، إضافة لدفع فدية تبلغ أربعة ملايين قطعة ذهبية ecus (كراونات ذهبية، أي ما يعادل أكثر من 600,000 باوند إسترليني)، وكان ضمان الفدية أربعين أسيراً من النبلاء والعائلة المالكة. وفي حال قيام الفرنسيين بعرقلة تنفيذ هذه المعاهدة بأية طريقة، كان لإدوارد الحق في إرسال جنوده مرة أخرى إلى فرنسا ـ على نفقة الملك الفرنسي. وكان إدوارد يدرك جيداً ما يقوم به عندما وضع ذلك العبء المالي على كاهل العدو، نظراً للتكلفة الكبيرة للحروب. فخلال سنة واحدة فقط، اضطر لاستدانة مائتي ألف فلورين ذهبي من المصرفيين الإيطاليين الذين تعامل معهم (وكثيراً ما تخلّف عن دفع ديونه المستحقّة لهم)[27].

عندما سمع الدوفين الذي أصبح وصياً على العرش في غياب والده، بمعاهدة الاستسلام الكامل تلك، استدعى مجلس الطبقات لمساعدته في القيام بالاختيار الصعب ما بين السلم وبين تجدّد الحرب. وجاء الرد سريعاً وبالإجماع: المعاهدة لا تُحتمل، ويجب إعلان الحرب على بريطانيا.

شرع الإنكليز فوراً بالقيام بحملة ضخمة في شمال فرنسا، لكن الفرنسيين قاوموا هذه المرة فكرة المعركة المخطّطة، ولجؤوا عوضاً عن ذلك إلى استراتيجيَّة الأرض المحروقة. وفي 13 نيسان، وبينما كان الجيش الإنكليزي الممزّق والمستنزَف القوى معسكِراً قرب تشارترز، ضربته عاصفة بَرَدٍ بالغة العنف، مصحوبة برياح إعصاريَّة، وبزخّات قوية من المطر الشديد البرودة.

وتقول توتشمان: «خلال نصف ساعة، تلقى جيش إدوارد ضربة لا تستطيع أيادٍ بشريَّة تسديدها، ضربة كان من الصعب تفسيرها إلاَّ على أنَّها إنذار إلهي»[28].

ليس هناك سوى قلة من القادة العسكريين ممن لا يلقون بالاً من حين لآخر للرسائل القادمة من مصادر خارقة للطبيعة. عند تلك اللحظة، قرَّر إدوارد الثالث، رغم شدة بأسه في كثير من الأمور، بأن التعقّل هو خير ما في الشجاعة. لكنه على أية حال، كان قد تبقى بحوزته الكثير من إمكانيات المساومة، فقد كان جان ما يزال أسيره. وافق على إعادة فتح باب المفاوضات التي انتهت تماماً في 8 أيار سنة 1360 في قرية اسمها بريتيني. أُنقصت فدية جان لتصبح ثلاثة ملايين كراون ذهبي. كما أُنقصت أيضاً مساحة الأراضي المطلوب التنازل عنها، لكنها ظلَّت تعادل ثلث مساحة فرنسا، وهي غنيمة لم يستطع أحد الحصول على مثلها قبل أن يقوم هتلر بغزو فرنسا بعد 580 سنةً.

كانت المعاهدة واضحة فيما يتعلَّق بالرهائن الأربعين الذين سيتم احتجازهم كضمانة لدفع فدية الملك. وتضمنت الشروط، الابنين الأصغرين للملك، وأخاه، وشقيق زوجة الابن الأكبر للملك وتسعة من كبار حملة لقب كونت. وافق الإنكليز على إعادة جان من لندن إلى كاليه لدى تسديد الدفعة الأولى من الفدية والبالغة ستمائة ألف كراون ذهبي. وعندها يجري إطلاق سراح عشرة من زملائه المساجين من النبلاء، ولكن بعد الاستعاضة عنهم بأربعين شخصاً ثرياً من الطبقة الاجتماعية الثالثة ـ وهي طبقة البورجوازيين، كان إدوارد الثالث يعرف جيداً أين تكمن النقود، شأنه شأن ويلي ستون. أما ما تبقى من فدية جان فتدفع على ست دفعات نصف سنوية تصل إلى أربعمائة ألف كراون ذهبي، ولقاء كل دفعة، يتم إطلاق سراح خُمْس عدد الرهائن.

إنَّ فدية كهذه، كانت ستشكل دون شك، عبئاً يرهق كاهل فرنسا ضمن أية ظروف، لكن هذا العبء كان مرهقاً بشكل خاص بعد أعمال السلب أثناء

فترة الموت الأسود وبعد الدمار والفوضى اللذين أحدثتهما الحرب. وعند نقطة ما، وصلت الأمور إلى درجة بالغة الصعوبة بحيث طلب الفرنسيون من اليهود العودة إلى فرنسا، وكانوا قد طردوهم منها سنة 1306، وعرضوا عليهم الإقامة فيها لمدة عشرين سنة، شرط أن يدفعوا عشرين فلورينياً على الشخص كرسوم دخول وسبعة فلورينات كل سنة بعد ذلك[29]. وقد أسهم جان نفسه بأن قدَّم الدوطة الذَّهبية السخية التي حصل عليها لقاء تزويج ابنته البالغة إحدى عشرة سنة إلى طاغية ميلانو الثري غاليازو فسيكونتي، وهو زواج وصفه المؤرخ ماتيو فيلاني بأنَّه أشبه بقيام الملك «ببيع لحمه في المزاد»[30].

تم تسليم الدفعة الأولى من الفدية في تشرين الأَول سنة 1360. وعندها التقى إدوارد وجان في كاليه وأقسم العاهلان معاً على الحفاظ على السَّلام الدائم بينهما. وأخيراً، عاد ملك فرنسا رجلاً حراً، بعد قضاء أربعة أعوام في الأسر. ولم تكن المناسبة تستوجب الاحتفال. فقد عاد جان إلى بلد أضحت كما وصفها بترارك، الذي كان سفيراً فيها لفيسكونتي، «كومة من الخراب... يملؤها الدَّمار والقفار والبؤس»[31].

لم تنته قصة دفعات فدية جان عند ذلك الحد. فقد أهلك الوباء، الذي كان يعاود الظهور بشكل دوريّ، بعضاً من الرَّهائن الموجودين في بريطانيا. كما حاول البعض الآخر استخدام ثرواتهم الخاصَّة لشراء حريتهم. وسرعان ما بدأ تسديد أقساط الفدية يتأخَّر. كما أن المناطق التي تمّ التخلِّي عنها بدأت بمقاومة تغيير السيادة عليها. وفي سنة 1363، وبعد توصُّل جان إلى القناعة بأن سمعته وشرفه كانا مهدّدين بالخطر، استقل مركباً وقطع القنال الفاصلة بين الدولتين بعد أسبوع من عيد الميلاد وعاد بنفسه إلى الأسر في لندن، دون أن يكترث بنصائح مستشاريه وأساقفته وبنصائح البارونات. استقبله الإنكليز بالحفاوة والتكريم، لكنَّه سرعان ما سقط صريع المرض، ثم توفي في نيسان

من سنة 1364، وعمره لا يتجاوز الخامسة والأربعين. ولا يزال مبلغ مليون كراون ذهبي من فديته لم يتم دفعه بعد.

وفي النهاية، لم يكن قد تم دفع سوى أقل من نصف الفدية، ولكن حتى مبلغ المليون ونصف كراون ذهبي لم يكن بالمبلغ الضئيل. فقد كان يعادل أجور سنة كامل لستة آلاف عامل زراعي تقريباً، ولثمن ثلاثمائة ألف رأس من الأغنام، أَو 1,6 مليون غالوناً من الجعة، أَو أَكثر من أربعة أضعاف مجموع ضريبة الرؤوس التي أثارت تمرداً عنيفاً بعد عشرين سنة[32].

وهناك فدية ذهبية أخرى لا بد من ذكرها، مع أنَّها دُفعت في القرن التالي. كانت هذه قد فرضت في القرن الخامس عشر كنتيجة أخرى لحروب الإنكليز ضد الفرنسيين، الذين كانوا يحتلّون كلا البلدين بشكل متقطع حتى سبعينات القرن الخامس عشر.

وفي سنة 1478، تخلّى الملك إدوارد الرابع، ملك بريطانيا، عن مخطط لغزو فرنسا لقاء إتاوة دفعها الفرنسيون وبلغت 75,000 كراون إضافة لدفعة سنوية تبلغ خمسين ألف كراون. وفي السنة التالية، وافق الفرنسيون أيضاً على افتداء أرملة هنري السادس، مارغريت من مقاطعة أنجو، لقاء مبلغ خمسين ألف كراون، تُدفع على خمس دفعات سنوية. وقد قام كريستوفر تشاليس، في تاريخه الرسمي لدار السَّكّ الإنكليزية، بإجراء حساب ذكر فيه أنَّه لو كان كامل المبلغ قد دُفع فعلياً لحظة وفاة الملك إدوارد الرابع سنة 1483 ـ وتشير الدلائل إلى أن المبلغ قد تم دفعه فعلاً، فإنَّ المجموع كان سيصل إلى 517,000 كروان أَو 103,4000 باوند إسترليني. وهو مبلغ يحتمل المقارنة بكامل إنتاج دار السَّكّ

من العملة الذَّهبية، والبالغ 185,400 باوند إسترليني خلال الفترة الممتدة ما بين 1474 ـ 1482.

لقد كانت الصفقة التي عقدها الإنكليز أفضل مما توحي به الأرقام الصرفة. ففي سنة 1471، وخلال حروب الوردتين، قام قائدان من آل يورك، وهما إدوارد وأخوه ريتشارد دوق غلوسيستر ـ وقد أصبحا فيما بعد الملكان إدوارد الرابع وهنري الثالث على التوالي ـ قاما بأسر الملك هنري السادس وابنه، أمير ويلز ولي العهد، وهما من آل لانكستر، ومن ثم خلْعهما وقتْلهما. وقد جعل هذا الحادث الملكة السابقة مارغريت، من مقاطعة أنجو، تنضم إلى مجموعة العاطلين عن العمل بالإكراه. ولا يسع المرء هنا إلاَّ التساؤل عن السبب الذي حدا بالفرنسيين لأن يعرضوا ذلك المبلغ السخي لإقناع الإنكليز بالتخلي عن مارغريت. فمما لا شك فيه أنَّها كانت عجوزاً نكدة، تتسكع من مكان لآخر لا همّ لها سوى التحسّر والنواح على المصير الرهيب الذي تعرّض له زوجها وابنها على أيدي المنتصرين من آل يورك.

كان حرياً بإدوار وريتشارد أن يأخذا باعتبارهما قيمتها عندما تخلّصا منها بأي ثمن. ففي الفصل الأول، المشهد الثالث من مسرحية شكسبير، ريتشارد الثالث، نرى ريتشارد يصرخ في وجهها «أيتها العجوز الشمطاء الذاوية». وقد لا يكون في ذلك ظلماً لها، لأن مارغريت توبخه ناعتة إياه بألفاظ من نوع «يا مسخ الخنزير المؤذي... يا ابن الجحيم، أيها السلاسة الكريهة التي جاءت من صلب والدك». إلاَّ أننا مع ذلك نعترف بأن شكسبير، ربما كان يسمح لنفسه باختيار الألفاظ لضرورات شعرية. فقد كانت مارغريت مشهورة بجمالها الرائع وبعد عودتها إلى فرنسا، أصيبت بمرض جلدي، وصفه أحد المؤرخين، الأكثر ثقافة من شكسبير، بقوله «لقد ذوى جمالها البديع وغطته الحراشف الجافة. وخلال ليلة وضحاها، تحولت إلى امرأة قبيحة. بقيت عيناها فقط، وقد لحق بهما التلف وصارتا تثيران الرعب»[33]. ورغم ذلك، لا يسعنا إلاَّ التفكير في ما

كان آل يورك سيفعلانه بمارغريت لو أن ملكها لم يعرض بكل سخاء مبلغ خمسين ألف كراون ذهبي لقاء إِعادتها إِلى وطنها، ذلك التصرّف الغريب الذي لا يمكن إِدراك الفائدة التي عاد بها على الملك.

لا شك بأن الأَشخاص الذين نجوا من تلك الأهوال التي لم تنته خلال القرن الرابع عشر، كانوا على قناعة بأن ظلمة ذلك العصر لن تنجلي على الإِطلاق. لكن ذلك القرن الرهيب انتهى أخيراً وبزغ فجر القرن الجديد، وأخذت الظروف في أوروبا بالتحسّن. وهيأ السلام فرصة لإِعادة إِعمار المزارع التي كانت مهجورة، كما أن أَسعار المواد الغذائية المنخفضة أدَّت إِلى ازدياد عدد السكان. وبعد أن لقي ستة ملايين إِنسان حتفه خلال الفترة ما بين 1350 ـ 1400، ازداد عدد سكان أوروبا بمقدار خمسين مليون نسمة ـ أي الثلث تقريباً ـ خلال الخمسين سنة التالية كما ازداد العدد بمقدار تسعة ملايين أخرى في الفترة ما بين 1450 ـ 1500. وسهل تحسّن كميات المواد الغذائية المتوفرة، العودة إِلى الحياة المتمدنة، الأمر الذي سهَّل بدوره، انتعاش التجارة والصناعة[34].

لم يجر التطور بشكل منتظم في كل أرجاء أوروبا. فقد حازت إِيطاليا قصب السبق في هذا المجال من بين الدول الأوروبية الرئيسية، ففي البندقية تجلَّت أعظم أمجاد القرن الخامس عشر، رغم أن فلورنسا أصبحت هي أيضاً مركزاً عظيماً للتجارة والصناعة والمال ـ والفن ـ خلال هذه الفترة. ظلَّت البندقية المحطة الأهم لموجة التجارة الكبيرة مع بلاد الشرق، لكن المدينة لم تكتف فقط بأن تكون مجموعة من الجزر الساحرة على البحر الأدرياتيكي. فبحلول نهاية القرن، أصبحت البندقية تسيطر على معظم المدن ضمن نصف قطر يبلغ مائة ميل تقريباً اعتباراً من ساحة القديس مارك ـ بما في ذلك مراكز

مثل فيرونا وفيسنزا وفيرارا وبولونيا ـ إضافة لجزر البحر الأبيض المتوسط كورفو وقبرص وكريت.

إنَّ قوة من هذا النوع تؤدي لكسب الذَّهب. كانت الأقاليم تحوِّل إلى أهل البندقية مليون دوقية ذهبية كل سنة، وقد أُنفق هذا المال على بناء العديد من القصور التي نراها حالياً على شواطىء القنال الكبير، بما في ذلك قصر كادورو، أَو بيت الذَّهب، الذي كانت زخارفه الخارجية فيما مضى مكسوة بسخاء بالذَّهب. وهذا الصرح البديع يعرفه الملايين من السياح المعاصرين، الذين ينفقون مبالغ لا بأس بها هناك لمجرد متعة زيارته.

قد تكون أَكثر التطورات ثورية خلال القرن الخامس عشر قد جرت في منطقة كانت حتى ذلك الوقت تلعب دوراً ثانوياً في العصور الوسطى في أوروبا: وهي شبه جزيرة إيبريا. إنَّ زواج فرديناند ملك أراغون من إيزابيلا ملكة قشتالة سنة 1469 أدَّى لتوحيد إسبانيا. وقد تمكن الأسبان أخيراً، تحت قيادتهما، من إخراج العرب، إضافة لليهود في الوقت نفسه، كما نشأ عن زواج فرديناند وإيزابيلا سلالة حاكمة قوية قُدِّر لها أن تمد نفوذ إسبانيا عبر أراضي أوروبا بكاملها، وأن تمدّه بمرور الوقت في الأمريكيتين أيضاً. تزوجت إحدى بناتهما من ملك بريطانيا، أما الابنة الأخرى، جوانا المجنونة، فقد تزوجت الابن الأكبر لإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وقد اكتسبت جوانا المسكينة هذا اللقب لأنَّها كانت تجر جثة زوجها في عربة معها أينما ذهبت وذلك لسنوات طويلة بعد وفاته. إنَّ إسهام فرديناند وإيزابيلا والإسبانيين في تاريخ الأمريكيتين لا يحتاج إلى تفصيل.

في هذه الأثناء كانت البرتغال، الدولة الصغيرة، قد بدأت تتحرَّك. لقد كان البرتغاليون طوال تاريخهم بحارة مهرة، فقد أنشأوا أسطولاً تحت إشراف أهل جنوى وأهل البندقية منذ سنة 1300. وكان الملك جون الأَول، الذي توج سنة 1385، حاكماً مستنيراً استطاع إيجاد السُّبل لتحويل أمة من الدرجة الثالثة لا

يزيد عدد سكّانها على مليون نسمة (أي سدس عدد سكّان بلاد المغرب) إلى قوة عالمية[35]. وقد أبرم تحالفاً مع الإنكليز قدّر له أن يستمر ولا يزال ساري المفعول، ثم دعَّمَ الاتفاق بأن تزوج من إحدى حفيدات إدوارد الثالث، التي قام أخوها، هنري بولينغبروك، بعد ذلك بقليل باغتصاب عرش بريطانيا من ريتشارد الثاني(*). وقد شجَّع جون ابنه الثالث، هنري الملاح، وكان متنسكاً لم يتزوج قط، على البدء بالاكتشافات العظيمة التي جرت في ذلك العصر. وأدَّت تلك الاكتشافات للعثور على الطريق البحري المؤدي إلى الشرق الأقصى مروراً برأس الرجاء الصالح، ولاكتشاف أمريكا، وإلى الاكتشاف المظفر الذي قام به ماجلان بعثوره على الممر البحري الذي يربط المحيط الأطلسي والمحيط الهادي خلال رحلته البحرية حول الأرض. أدار نجاح الاكتشاف رؤوس البرتغاليين حتى أن البلد كاد أن يخلو من سكّانه الرجال ممن هم في سنّ العمل، الذين لم يستطيعوا مقاومة إغراء اللحاق بغيرهم في تلك الاكتشافات وقد استقر العديد من هؤلاء في البلاد النائية، أو اختفوا مع حطام السفن.

كان الإنتاج الأوروبي من الذَّهب خلال القرن الخامس عشر أقل من المعتاد وذلك بالنسبة لاحتياجات العصر. واستناداً لتقدير مصدر موثوق، فإنَّ

(*) لقد سمحت معاهدة ميثويين (1703) Methuen بدخول الشراب البرتغالي إلى بريطانيا برسوم أقل من رسوم الشراب الفرنسي بمقدار الثلث، كما وافق البرتغاليون على أن يستوردوا من بريطانيا سِلَعاً متنوعة لم يكونوا قادرين على تزويد البرازيل بها. وأبحر الذهب البرازيلي إلى بريطانيا ثمناً لما لم تغطه مبيعات البرتغاليين من الشراب. وكانت العملة الذهبية البرازيلية عملة شائعة في بريطانيا في ذلك الوقت. ويعتقد بعض الباحثين أن هذه المعاهدة حوَّلت البرتغال إلى مستعمرة إنكليزية. (انظر كيند لبيرغر، 1996، ص 71).

الإنتاج المحلي من الذَّهب في أوروبا سنة 1400 لم يكن يتجاوز أربعة أطنان[36]. ومن حيث النَّقد، كان ذلك يكفي لسكّ مليون دوقية تقريباً[37]. وتقول التقديرات أن أهل البندقية وحدهم كانوا يصدِّرون ما يعادل طناً من الذَّهب في السنة بشكل دوقيات خلال القرن الخامس عشر، مما كان يخفِّض إلى حد كبير كمية الذهب المتوفرة[38]. ويورد المؤرخ الاقتصادي تشارلز كيندلبيرغر تقديرات تقول أن نسبة تصل إلى خمسة بالمائة من النَّقد كانت تختفي أيضاً كل سنة نتيجة الاهتراء العادي، والتخزين وتحطم السفن، وتحويل الذَّهب إلى رقائق تُستخدم في أغراض تزينيَّة[39](*).

وبعد ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة من تطور المدنية، كانت كل كمية الذَّهب في أوروبا في سنة 1500، بكل أشكاله ـ قطع نقدية، ومخزونات وكل أنواع الزخرف والتزيين ـ يمكن تشكيلها في مكعب لا تتجاوز أبعاده المترين. وهذه الكمية المتواضعة كانت تعني أنَّه حتى الاكتشافات الصغيرة أو الكميات الضئيلة الواردة كان لها تأثير كبير على سوق الذَّهب[40].

ويورد المؤرخ الاقتصادي جون داي، في مقالة بعنوان «الندرة الكبرى في السبائك في القرن الخامس عشر»، أمثلة صارخة عن النقص الحاصل في النَّقد الذَّهبي خلال القرن الخامس عشر والجهود العقيمة للسلطات الحكومية للقيام بأي شيء بهذا الخصوص. في سنة 1409، «احتج صرَّافو باريس بصوت واحد على أنَّهم لا يملكون سبائك يقدمونها لدار السَّكّ مهما دُفع لهم من ثمن. وشهدت سنوات الحرب الأهلية (1411 ـ 35) انحداراً سريعاً لنقابة الصياغ في باريس التي كانت تتمتّع بالنفوذ، وذلك للنقص الحاصل في المعدن ولنقص الزبائن، وبسبب القيود الجديدة التي فُرضت على تصنيع التحف الذَّهبية والفضية، وكانت هذه القيود تهدف إلى حماية نقد الملك من الانهيار»[41].

(*) وحتى هذا التقدير قد يكون أقل من الواقع، انظر داي، Day 3، الملاحظة رقم 8.

وصدر قانون في ميناء بروج سنة 1401 يطلب من التجار تسوية كل صفقات القطع الأجنبي بالذَّهب فقط، وقد ألغي القانون بعد ثمانية أَشهر لأن قلة فقط من الناس أعارته اهتماماً[42]. أغلقت دور السَّكّ في مقاطعات الفلاندرز اعتباراً من سنة 1402 وحتى 1410[43]. أما إِنتاج دار السَّكّ في برج لندن، الذي كان يساوي 5000 باوند إِسترليني تقريباً بالعملات الذَّهبية في ستينات القرن الخامس عشر فقد تدنى إِلى 2000 باوند إِسترليني خلال الفترة ما بين 1476 ـ 1485، ثم توقف الإِنتاج في النهاية خلال السنوات العشر التالية. وسلكت الفضة مساراً ذي اتجاهات مشابهة[44]. ويقدجر داي بأن كامل الاحتياطات من السبائك في أوروبا قد تقلَّص بحدود خمسين بالمائة خلال الفترة 1340 ـ 1460[45].

لقد أدَّت الندرة في كل من الذَّهب والفضة إِلى إِحياء التعامل بالمقايضة في كثير من المجتمعات، وبخاصة في مجال المدفوعات المحلية. وكان الفلفل، الذي يساوي أَكثر من وزنه ذهباً، أَكثر السلع المخصَّصة لهذا الغرض شيوعاً، حتى أن الأمراء الألمان كانوا يطلقون على مصرفييهم اسم «رجال الفلفل»[46]. ورغم أن هذا النوع المرتجل من النقود كان يخدم غرضاً ما، إِلاَّ أن استمرار استيراد سلع مثل الفلفل لم يكن منتظماً، مما جعل أسعارها متقلبة إِلى حد لا يُطاق. فبضعة أكياس من الفلفل يجري تفريغها في أمستردام أَو لندن يمكن لها وبسرعة أن تخفِّض السعر. لكن بضعة أكياس من الذَّهب أَو الفضة لا يمكن لها أن تفعل ذلك. وكانت النتيجة أن بدأ تداول عملات ورقية ـ وهي في الأصل كمبيالات صادرة عن مقترضين من ذوي المكانة، لكن دي يقول بأن المعدن ظل يسيطر على ميدان التداول. «فحتى في إِنكلترا في منتصف القرن الثامن عشر، أي عند بدايات الثورة الصناعية، تقول التقديرات أن النَّقد المسكوك كان يمثِّل 90 بالمائة من حجم النَّقد المتداول. . . . وحتى سنة 1861، كان النَّقد المعدني يمثِّل 75 بالمائة من النَّقد المتداول في إِيطاليا»[47].

عندما لا تكون هناك وفرة في المال، يميل النَّاس للاقتصاد في نفقاتهم الخاصة بشراء السلع والخدمات. وتكون النتيجة في العادة انخفاض مستوى الأَسعار. وهذا ما حدث بالضبط خلال القرن الخامس عشر. فالتقديرات الموثوقة تشير إِلى أن أَسعار السلع في كل أنحاء غرب أوروبا قد هبطت بنسب تراوحت ما بين عشرين بالمائة إِلى خمسين بالمائة وذلك خلال الفترة ما بين العامين 1400 ـ 1500. ففي أراغون مثلاً، هبط مؤشر الأَسعار بنسبة 20 بالمائة تقريباً[48]. كما هبط سعر القمح الإِنكليزي إِلى النصف بين العامين 1360 ـ 1500، بينما هبط سعر الجاودار في فرانكفورت بمعدل أسرع[49]. وتشير النزعات المماثلة في مناطق الأراضي المنخفضة (هولندا وبلجيكا ولوكسومبورغ الحالية) وفي إِيطاليا، إِلى أن ما حدث كان ظاهرة شاملة في أوروبا القرن الخامس عشر.

وفي الوقت نفسه، كان الطلب على الذَّهب كبيراً بحيث أن سعره أخذ يتحرَّك في الاتجاه المعاكس. ففي بريطانيا، حيث كانت التطورات أنموذجاً للاتجاهات السائدة في كل أنحاء أوروبا، ارتفع سعر الذَّهب ببطء ولكن بدون انقطاع من 23 شلناً للأونصة سنة 1345 إِلى 40 شلناً بحلول سنة 1492[50]. كانت الزيادة الناتجة في القدرة الشرائية للذهب تعني أن حجم السلع التي يمكن لأونصة الذَّهب أن تشتريها قد تضاعف، على أقل تقدير، بين بداية القرن الخامس عشر ونهايته. وكانت النتيجة، أن تلك الفترة كانت إِحدى الفترات القليلة في التاريخ التي أُنفق فيها الذَّهب عوضاً عن أن يُخَزَّن.

لقد كان الذَّهب دائماً يعني مكسباً ثميناً، لكن ذلك الترابط المُغري بين الأَسعار المتدنية للسلع والأَسعار المتزايدة للذهب كان يَعِدُ هؤلاء الذين يستطيعون العثور على مصادر جديدة، بمكافآت مغرية. وعلى خلفية كهذه،

تبدو الاكتشافات الكبيرة في القرن الخامس عشر وكأنَّها كانت الاستجابة الحتمية.

هل كانت حتمية؟.. قد يقول قائل أن قوى الاقتصاد الصرف لم تكن سوى سبب عَرَضي لذلك الولع بالاكتشافات البحرية في العقد الأَول من القرن الخامس عشر. فقد تكون تلك الرحلات الجريئة للوصول إلى أركان الأَرض مجرد تجلٍ آخر لروح عصر النهضة، وهو العصر الجديد الذي اصطدم بالقوالب الفكرية الجامدة التي فرضها الدين في عصور الظلام والعصور الوسطى، كان زمناً شجَّع التجارب الجريئة في مجالات الفن والثقافة والعلم. وإنَّ التقدّم في الملاحة والتوسع في المعارف الجغرافية كانا مجرد نتاج ثانوي لتلك التجديدات المهمّة التي أُدخلت على الرياضيات والقياسات والمنظور في عصر النهضة. لقد كان اكتشاف العالم هو ما يعنيه عصر النهضة. فخلال الفترة ما بين 142 ـ 1500، اتسع العالم الذي يعرفه الأوروبيون ليصبح أَكثر من الضعف، وبعد خمس وعشرين سنة، اتسع لأَكثر من ثلاثة أضعاف[51].

قد يبدو هذا التفسير، للوهلة الأولى، منطقياً، لكن الرأي بأن تلك الاكتشافات الكبيرة لم يكن لها أن تحدث في وقت أبكر يقودنا إلى استنتاجين غريبين مناقضيْن للبداهة. الاستنتاج الأَول، لو أن هذه الزيادة الكبيرة في القوة الشرائية للذهب حدثت في زمن لا يتَّسم بهذا القدر من التجديد، لما ظهر على المسرح أَشخاص مثل هنري الملاح أَو كولومبوس أَو ماجلان ـ مستكشفين لم يستطيعوا مقاومة إغراء المكافآت المجزية غير العادية المتأتية عن البحث عن الذَّهب فيما وراء البحار. ولكن البحارة قد استمروا في السفر عبر المسارات التقليدية كما لو أن شيئاً لم يحدث للذهب في الأسواق. والاستنتاج الثاني هو أنَّه في حال كانت تلك الاكتشافات العظيمة ناتجة فقط عن روح المغامرة التي سادت عصر النهضة، لكانت تلك الرحلات قد حدثت حتى ولو كان سعر

الذَّهب يتدنى وسعر السلع يرتفع، ولا يمكن اعتبار أي من هذين الاحتمالين منطقياً.

لكن الجدل لا ينبغي أن يتوقف عند هذا الحد. فالبحث عن الذَّهب لم يكن هو الدافع الوحيد وراء تلك المغامرات المدهشة. لقد كانت أحلام المجد، أَو ربما ما هو أهم، كان الحماس لتحويل الوثنيين إِلى الدين المسيحي، يشكِّلان جزءاً من ذلك الإِلهام. وعلى أية حال، فمن المؤكد أن أحلام المجد وشعور الحماس لتحويل الوثنيين إِلى مسيحيين، لم يقتصرا على عصر النهضة. فطالما حلم الرجال بالإِنجازات العظيمة، كما أن المسيحيين كانوا دائماً يسعون لإِدخال الآخرين في دينهم.

إِذاً، يبقى الشوق الملتهب للذهب هو المحرِّض الحاسم. والنهم للذهب يظل «ملتهباً» على الدوام، لكنه كان يلتهب بنار ساطعة بشكل خاص في القرن الخامس عشر. لقد استطاع الإِسبانيون والبرتغاليون، وفيما بعد الإِنكليز والهولنديون والفرنسيون تدبّر أمر إِخفاء الفرق بين الرغبة في القيام بصالح الأعمال باسم الله، وبين الرغبة في ملء جيوبهم، وقاموا بذلك بشكل ملائم تماماً. إِنَّ الجهود الهادفة للإِثراء ولاكتساب القوة ولمنح بركات المسيحية إِلى جماهير الرعاع، تُعرض على نحو مميَّز بأسلوب عقلاني متآلف، ولا بدّ وأنَّه كان يشكِّل مصدراً لشعور رائع بالرضى عن النفس.

وقد لخَّص كولومبوس الأمر بشكل جيد، وذلك عندما كتب إِلى فرديناند وإِيزابيلا يخبرهما عن مواجهاته الأولى مع أهل البلاد الأصليين في الأراضي التي اكتشفها:

> وهكذا فإِنَّ جلالتيكما يجب أن تقرّرا جعلهم مسيحيين، لأنني أعتقد أنكما... ستحوِّلان إِلى دينكما عدداً كبيراً من الأَشخاص وستحصلان على السيادة والثروة وكل السكَّان لصالح إِسبانيا. لأَنَّه ما من شك بأن هناك كميات ضخمة من الذَّهب في هذه البلاد[52].

9

الظمــأ المقدس

قبل إنشاء خطوط السكك الحديدية عبر الولايات المتحدة، كان بإمكان الإنسان الوصول إلى سان فرانسيسكو من الصين بحراً بأسرع وأرخص مما كان يمكنه الوصول إليها براً من سانت لويس[1]. وهذه الحقيقة البسيطة تفسِّر السبب في أن أعظم تحد واجه الأوروبيين الغربيين الساعين للبحث عن الذَّهب ولتوسيع تجارتهم خلال القرن الخامس عشر، كان في إيجاد طريق بحري مباشر إلى الهند والشرق الأقصى. فقد كان نجاح تلك المغامرة هو البديل للممرّات الخطرة والشاقَّة التي ظلَّت ولمئات السنين طريقاً لحمل البضائع وللأَشخاص الذين يمتطون الجياد أَو البغال أَو يسيرون على الأقدام.

كان البرتغاليون هم السبَّاقون لقيادة حركة اكتشاف العالم. ولم يأت ذلك مصادفة. فالبرتغال بلد ذو امتداد ضيِّق، بحيث أنَّها تُعتبر، بالنسبة لعدد سكانها، الأولى من بين الدول الأوروبية من حيث طول ساحلها البحري. كما كانت إحدى أفقر دول أوروبا في نهاية العصور الوسطى، مما يعني أن الاكتشافات المربحة، حتى ولو كانت صغيرة، ستغيِّر الأمور إلى حد كبير. وقد أدَّت الاضطرابات السياسية والانخفاض في القوة الشرائية للعملة، خلال الأيام القاتمة للقرن الرابع عشر، إلى تقويض طبقة النبلاء ودفعتهم للبحث عن

ثروات جديدة عن طريق القيام بمشاريع خارج البلاد. كان الجو بجملته يشكِّل خلفية كاملة لحماس الأمير هنري الملاح الصادق لاستخدام البحار من أجل توسيع قوة البرتغال ونفوذها.

شكَّل الذَّهب الهدف الرئيسي للاستكشافات البرتغالية، ولكن ذلك لم يكن كل شيء. فقد ادَّعى كل المستكشفين في القرن الخامس عشر أنَّهم كانوا بصدد حملة صليبية أخرى ترمي إلى إغراء الكفار باعتناق الدين المسيحي. وعندما تبين أن سكَّان تلك الأراضي البعيدة كانوا من ذوي البشرة الداكنة، أقنع البرتغاليون أنفسهم بأن امتلاك تلك الأرواح التعسة لتحويلها إلى عبيد كان أمراً مناسباً إلى حد كبير ويسهل عملية التحول الديني، في نفس الوقت الذي يلبي فيه، بشكل عرضي، تلك الحاجة الماسَّة ليد عاملة رخيصة. وهكذا نرى أن فكرة الاستعباد جاءت متأخرة قليلاً وكانت نتاجاً ثانوياً لعملية البحث عن الكنوز المعدنية، لكنها أخذت تكتسب أَهميَّة متزايدة.

كان الهدف الملحّ أمام الأمير هنري هو استيعاب الخطر الذي يتهدَّد البرتغال والمتمثِّل في القراصنة المور الذين كانوا يغزون السفن في غرب المتوسط. وكان هؤلاء القراصنة، الذين عُرفوا فيما بعد بالقراصنة البربر، لا يزالون يشكِّلون خطراً على التجارة والسفر عندما قام جون بول جونز بملاحقتهم بعد ذلك بأربعمائة سنة تقريباً. بدأ هنري حملته سنة 1415 بالاستيلاء على مدينة المور «سبتة» الواقعة شرقي مضيق جبل طارق تماماً، على الشاطىء الشمالي لإفريقيا. كانت سبتة مدينة ثرية تلعب دور الميناء الرئيسي على البحر الأبيض المتوسط للبضائع التي كان التجار العرب يأتون بها من إفريقيا وآسيا. وكانت سبتة هي الميناء الرئيسي بشكل خاص للقوافل التي كانت تحمل الذَّهب الإفريقي عبر الصحراء لشحنه إلى أوروبا. وعندما كانت الجيوش البرتغالية تقوم بنهب كل زاوية في سبتة وجدوا الكثير من الأدلَّة التي تشير إلى الثروات الذهبية في غرب إفريقيا.

لقد وضع الاستيلاء على سبتة هنري ورجاله أمام استراتيجية لم يكن لهم فيها من خيار: فهم إذا استطاعوا نقل إنتاج المناجم الإفريقية بطريق البحر إلى شواطئهم، فإنَّهم سيتمكنون من الالتفاف حول بقية القارة الأوروبية وذلك بتطويق تلك الرحلة المتعبة والمكلفة التي تقطعها الجمال عبر الصحراء الكبرى في طريقها إلى المراكز التجارية الشمالية على البحر الأبيض المتوسط. وهنا تستحق الحسابات نظرة تفصيلية.

باستطاعة الجمل، أن يحمل ما بين 120 ـ 200 كغ من الحمولة عبر الصحراء لمدة تتراوح بين ثماني واثنتي عشرة ساعة في اليوم بسرعة 2,5 ـ 5 ميل في الساعة، ولكنَّ ذلك يتوقّف على نوعيته. إذا أخذنا جملاً عادياً يستطيع حمل 160 كغ لمدة عشر ساعات والسير بسرعة، لنقل أنها، تصل إلى 3,5 ميلاً في الساعة. جمل كهذا يقطع 35 ميلاً في اليوم. إنَّ المسافة بين شاطىء المتوسط في بلاد المغرب وبلاد الذَّهب تبلغ ألفي ميل تقريباً ـ أي المسافة بين نيويورك ولاس فيغاس إلى حد ما، أو بين طرفي البحر الأبيض المتوسط ـ وهذا يعني أن على الجمل أن يقضي 55 يوماً تقريباً في الرحلة (رغم وجود مجال واسع لهذه القيمة الوسطية أيضاً). وبعد انتهاء الرحلة، علينا أن نذكر هنا أنَّه يتوجَّب إعطاء الجمل مدة طويلة من الراحة يستعيد فيها قواه للعمل. وفي العادة، بإمكان رجل واحد تدبير شؤون أربعة جمال في وقت واحد. وبما أن عدد الجمال في القافلة الواحدة يتراوح ما بين ثلاثمائة جمل و3500 جمل ، فإنَّه يجب أن يكون عدد العاملين ما بين 75 رجلاً وتسعمائة رجل، ولا بد أن منظر القوافل، حتى الصغيرة منها، وهي تضرب الأَرض عبر رمال الصحراء كان منظراً يستحق المشاهدة. والقافلة المؤلَّفة من ألف جمل، يحمل كل منها 160 كغ، تنقل ما مجموعه 160 طناً متريا من الحمولة.

أما السفينة فهي تسير في البحر بسرعة أبطأ، بحدود ستين بالمائة تقريباً

من سرعة الجمل. لكن السفينة تسير 24 ساعة في اليوم، وقوافل الجمال كان عليها السير حسب سرعة أبطأ الجمال كما أنَّها كانت تسير ثلث أَو نصف ساعات اليوم. تكون النتيجة إذاً أن السفينة تستطيع أن تقطع أكثر من ضعف المسافة التي يقطعها الجمل في يوم واحد. وبما أن المسافة بطريق البحر بين مضيق جبل طارق وبين أراضي الذَّهب تبلغ في حدّها الأقصى ضعف المسافة عبر الصحراء، فإن السفينة لا تتمتع من حيث الزمن اللازم للسفر سوى بميزة متواضعة ـ رغم أن السفينة كالجمل، تحتاج للإصلاحات بعد الرحلات الطويلة. أما الميزة الكبرى فهي تتعلّق بالطاقة البشرية. فالحسابات السابقة تظهر لنا أنَّه، في حال وجود أربعة جمال لكل رجل و160 كغ لكل جمل، يكون كل رجل مسؤولاً عن ما يقارب 0,7 طن من الحمولة. أما في السفينة، وحسب حجم المركب وعدد أفراد الطاقم، فإنَّه يمكن للرجل أن يكون مسؤولاً عن أي وزن يتراوح ما بين ثلاثة أطنان وحتى أربعة عشر طناً[2]. إن السفينة تكون بلا شك معرضة لخطر الغرق بسبب العواصف أَو لخطر القراصنة، ولكن الجمال أيضاً يمكن أن تُصاب بالمرض كما يمكن للقافلة بكاملها أن تتعرّض للهجوم من قبل البربر أَو أية جماعة بدوية أخرى.

كانت سفن القرن الخامس عشر مجهزة بشراع مثلّث الشكل، وهو ابتكار تقني خارق كان قد تم تطويره في شرق البحر الأبيض المتوسط منذ القرن الثاني للميلاد، ولكن لم ينتشر استخدامه على نطاق واسع إلاَّ في العصور الوسطى. وخلافاً للأشرعة التقليدية ذات الشكل المربع، التي كانت تنشر بوضع أفقي وتحدُّ من حركة السفينة لتجعلها إلى حد ما تسير وهي تسبق حركة الرياح، كان الشراع المثلّث الشكل يُنشر بوضع عامودي على طول السفينة. وكان بإمكانه التأرجح ما بين الجانبين الأيمن والأيسر للسفينة جيئة وذهاباً، مما سمح، ولأَول مرة، بتغيير اتجاه السفن الكبيرة، بحيث تتلقى الرياح على كلا جانبيها.

وقد وسَّع هذا الابتكار إلى حدّ كبير مجال الإبحار أمام السفن ذات الأشرعة ـ ولولاه، لما استطاع كولومبس اكتشاف أمريكا.

بدأ هنري ورجاله بتنفيذ سياسة عدوانية منهجية ضد مدن المور، تلك التي على شاطىء المتوسط أولاً، ثم المدن الموجودة على الساحل الغربي، على المحيط الأطلسي. وسرعان ما ظهرت النتائج، وذلك بشكل حركة تنامت بسرعة لتجارة العبيد والصباغ الأزرق (النيلة) والسكر بين إفريقيا والبرتغال. بدأ الذَّهب أيضاً يتدفّق، لكن الكميات كانت تبدو للبرتغاليين ضئيلة بالمقارنة مع توقعاتهم الكبيرة. وكانوا على ثقة من أنَّهم سيكتشفون في مكان ما في قلب الساحل الغربي لإفريقيا الريودورو، أي نهر الذَّهب بالمعنيين الحرفي والمجازي. وكل ما كان عليهم فعله هو المضي قُدماً.

لم تكن المسألة تتعلَّق فقط بالإبحار على طوال الساحل حتَّى يجدوا نهر الذَّهب. فرغم أن الفينيقيين وبعض المستكشفين الآخرين فيما بعد، قد قاموا ببعض الرحلات القصيرة في ذلك الاتجاه إلاَّ أن أحداً لم يستطع على الإطلاق أن يكتشف كامل الساحل الغربي لإفريقيا عن طريق البحر. وكانت كل التقارير القليلة المتوفرة، دون استثناء، تثير الروع. وكان البحارة العرب، المعتادون على التردّد على الساحل الشرقي لإفريقيا، يغذّون التراث الشعبي المتوسطي بقصص البحار ذات المياه التي تغلي على الساحل الغربي، والتي تعج بالثعابين المتلهفة لاختطاف اللحم البشري من على سطوح السفن. أما المحظوظون ممن تُكتب لهم النجاة من رحلة كهذه فإنَّهم يعانون مصيراً مرعباً وهو رؤية لون جلدهم يتحوَّل من البياض إلى السواد[3]. وكانت الرياح خطرة، والأهالي عدائيّين والمنبع الفعلي للذهب ظلَّ لغزاً ولم يجد حلاً.

ورغم كل المخاطر، فإنَّ المكافأة المنتظرة كانت مغرية بشكل لم يكن بإمكان الخوف أن يثني البرتغاليين عن السعي للحصول عليها، وبدأ الملاَّحون البرتغاليون شيئاً فشيئاً، وفي رحلات متتابعة، بالزحف بهدوء على طول الساحل، يتحدّون الأسهم المسمومة ويشيدون التحصينات ويأسرون العبيد (كانوا يكتفون بأسر المور إذا لم يصادفوا زنوجاً، أو أن المور كانوا يتعاونون معهم بأن يمدّوهم بالزنوج). ورغم بطء وتيرة التقدّم، لم يفقد البحارة البرتغاليون إيمانهم بأنَّهم سيكتشفون في نهاية الأمر نهر الذَّهب المراوغ. وأخيراً، وفي منتصف القرن، نجحت السفن البرتغالية الشراعية السريعة في الدوران حول القسم الغربي من إفريقيا ذي الأدغال الكثيفة حيث يواجه الساحل جهة الجنوب. كانت تلك منطقة غينيا، التي كان الزنوج، لا المور، يشكِّلون النسبة الأكبر من سكَّانها.

كان المشاركون في تلك المغامرات شخصيات تنبض بالحياة وبالحيوية. ويبرز من بينهم بشكل خاص تاجر من البندقية اسمه ألفيس دا كاداموستو. قَدِم كاداموستو إلى البرتغال سنة 1454 وقابل الأمير هنري طالباً منه منحه إذناً بالمشاركة في التجارة إلى إفريقيا. وسرعان ما وافق هنري على طلب كاداموستو لقناعته بأن أهل البندقية كانوا خير من يعرف شؤون التجارة البحرية، ولم يخيب كاداموستو توقعات هنري: فقد كان خبيراً في تقويم احتمالات وإمكانيات الربح في ميدان التجارة.

لا شك بأننا نشعر بالامتنان لكاداموستو لأنَّه خلّف يوميات دوَّنها عن رحلاته، وهي يوميات لا تقدَّر بثمن نظراً للمعلومات التي تحويها كما أنَّها أخَّاذة ينبعث منها السحر. فقد كان كاداموستو، مثلاً، هو أول من وصف، بعد عودته إلى أوروبا، عملية المقايضة الصامتة للملح مقابل الذَّهب على طول ضفاف نهر النيجر. ورغم ذلك، ومع كل الأسفار التي قام بها في داخل القارة ـ فقد وصل عند إحدى المراحل إلى عمق 250 ميلاً داخل البر ـ إضافة لقدرته

على تدبير أموره مع أهل البلاد الشديدي الحذر، فإنَّه لم يفلح في حل لغز مصدر الذَّهب في غرب إفريقيا.

ومن أطرف ما واجه كاداموستو، لقاؤه الذي لا يُنسى مع الملك بودوميل، وهو طاغية تافه الشأن كان يحكم مجموعة من القرى المؤلّفة من أكواخ مصنوعة من الأعشاب. كان لدى بودوميل عدد لا يحصى من الزوجات، وكان لدى كل زوجة خمس أو ست شابات يقمن بخدمتها. أشار كاداموستو في يومياته إلى «أن من الطبيعي أن يضاجع الملك هؤلاء الشابات تماماً كما لو كنّ زوجاته، اللواتي لا يرين في ذلك أية غضاضة». ولكن ذلك لم يكن بالأمر السهل: «ألح علي بودوميل، الذي كان يعتقد أن المسيحيين يعرفون الكثير، طالباً وسيلة ما، قد يقدّر لي أن أعرفها بمحض الصدفة، تساعده على إرضاء هذا العدد الكبير من النساء، وقد عرض علي مقابل ذلك مكافأة مجزية». ولم يكشف كاداموستو ماذا كان جوابه على هذا الطلب[4].

ولدى نهاية سبعينات القرن الخامس عشر، كان البرتغاليون قد أسَّسوا مركزاً تجارياً رئيسياً على الساحل المواجه للجنوب في غرب إفريقيا، وأطلقوا عليه اسم سان جورج دي مينا. ورغم أنَّهم أنشؤوا عاصمة مهيبة في سان جورج وقاموا بصفقات عمل تميّزت بالنشاط مع الأهالي باتجاه الشمال والغرب، فإنَّ البرتغاليين لم يستطيعوا التوصّل إلى امتلاك أي من مكامن الذَّهب الإفريقية أو حتَّى إلى المشاركة في العمل فيها. وكان يتم الحصول على الذَّهب، الذي يصل إلى البرتغال عن طريق سان جورج دي مينا، عن طريق جملة من ترتيبات المقايضة يقوم فيها البرتغاليون بتقديم الملح والأردية والأثواب والقماش الأحمر والأزرق والقماش المنسوج من القنب والقدور والمقالي النحاسيَّة والمرجان والأصداف الحمراء والعصير الأبيض[5]. كانت الأعمال مزدهرة. وفي العقد الأول من القرن السادس عشر، كان يصل إلى البرتغال من إفريقيا ما وزنه سبعمائة كغ من الذَّهب تقريباً، وهي كمية لا يُستهان بها إذا ما عرفنا أن كامل

الإنتاج السنوي الأوروبي لم يزد على أربعة أطنان تقريباً وأن إنتاج البرتغال لم يكن ليزيد على الصفر[6].

في شهر آب من سنة 1487، أبحر بارثولوميوديا‌ز، وهو مستكشف برتغالي خبير في البحار الإفريقية، أبحر من برشلونة على رأس سفينتين شراعيتين سريعتين وسفينة تموين بعد تلقيه أوامر بالدوران حول إفريقيا باتجاه الهند. وبعد ستة أشهر، كان دياز أول أوروبي يرسو بسفينته على الساحل الجنوبي الشرقي لإفريقيا. وقد استمر بالإبحار حيناً من الوقت وهو ينوي الوصول إلى الهند، لكن رجاله كانوا نافذي الصبر للعودة إلى الوطن وبخاصة أن سفينة التموين كانت قد تخلّفت عنهم كثيراً. لم يكن أمام دياز من خيار سوى العودة، مما يعني أن فاسكو دي غاما كان السبّاق في الوصول إلى الهند سنة 1497 والبدء بعملية نشر المراكز البرتغالية الكبيرة في البحار الآسيوية. استدار دياز عائداً بسفنه، وأبحر مرة أُخرى ماراً بالرأس الموجود في أقصى جنوب إفريقيا، والذي سيطلق عليه ملك دياز فيما بعد اسم رأس الرجاء الصالح، لأنّه يؤدي إلى طريق الهند[7].

وفي كانون الأول سنة 1488، عاد دياز إلى لشبونة، بعد ستة عشر شهراً من مغادرته لها. كان أحد الأشخاص الذين تجمعوا للاستماع إلى تقريره المفصّل عن رحلته بحاراً من جنوى يدعى كريستوفر كولومبوس، وبينما كان كولومبوس يستمع إلى العرض الذي قدّمه دياز قام بتدوين الكثير من الملاحظات.

كان كولومبوس ابناً لحائك، ومثل الكثيرين من أهل جنوى، أصبح بحاراً في سن مبكرة. عمل بحاراً على متن سفينة غرقت في إحدى المعارك، وأبحر في شرق البحر الأبيض المتوسط وقد يكون وصل إلى تركيا، كما أبحر في

رحلة إلى آيسلندا توقف خلالها في أيرلندا، وأبحر في كثير من البحار المعروفة على الشاطىء الإفريقي. ويؤكد صاموئيل اليوت موريسون، أشهر من كتب سيرته، أن كولومبوس كان واحداً من أفضل الملاحين والبحَّارة في عصره. لم يكن الشك يساور كولومبوس بأن الطريق البحري الذي يتخيَّله بالاتجاه مباشرة نحو الأطلسي، لن يؤدي فقط إلى الاستغناء عن الطُّرق البرية المتجهة إلى آسيا، بل إنَّ هذا الاتجاه مباشرة نحو الغرب يبدو أكثر منطقية من المسالك الملتوية المتجهة نحو الشرق التي يحاول البرتغاليون الإبحار فيها. كان كولومبوس واثقاً من أنَّه سيعثر على الذَّهب، لكنه، عن طريق تقصير الزمن اللازم لذلك، سيتمكَّن من خفض تكاليف الرحلة إلى الهند وبقية آسيا إلى حد كبير، كما سيتمكَّن من شحن بضائع أكثر تنوعاً. بالإضافة لكل ذلك، كان كولومبوس عميق التدين وكان يحلم بإنفاق الذَّهب الذي سيكسبه من رحلة اكتشاف المسارات هذه في تمويل حملة تهدف إلى استرجاع قبر المسيح من أيدي المسلمين[8].

عاش كولومبوس في لشبونة مدة طويلة، وتزوج من إحدى فتياتها وكان يعمل من حين لآخر في رسم الخرائط. حاول كولومبوس التقرّب من البلاط سنة 1484 لقناعته بأن البرتغال ستكون بلا شك البلد التي ستدعمه، وعرض على الملك فرصة تعهُّد رحلة تمويلها. لكن الملك جون الثاني، ابن أخ الأمير هنري وحفيد الملك جون الأول، رفض طلبه بكل صراحة ووضوح. فقد كان البرتغاليون، الذين أصابوا الثراء نتيجة ترتيباتهم في إفريقيا والعلاقات التي كانوا أنشؤوها مؤخراً مع جزر الهند الشرقية عبر رأس الرجاء الصالح، كانوا لا يرون ضرورة القيام بمخاطرة جديدة. وعلى أي حال، فإنَّ ما جعل جون يرفض الفكرة هو إصرار كولومبوس على أن يمنحه الملك لقب فارس وأن يعيِّنه أميرالاً للمحيطات وحاكماً باسم الملك على كل الأراضي التي سيكتشفها، إضافة لتلقيه 10 بالمائة من جميع المكاسب التي يتم الحصول عليها في تلك الأراضي

ـ ويتضمن هذا تحديداً الذَّهب. وقد كانت تلك هي نفس الشروط التي استطاع كولومبوس فيما بعد انتزاع الموافقة عليها من فريديناند وإيزابيلا.

وفي سنة 1486 تحول كولومبوس، الذي لم يفقد الأمل، إلى العاهلين الإسبانيين. لم تنته اللجنة المكلَّفة بدراسة عرضه من عملها قبل سنة 1489 لتقرِّر عندها أن فكرته لا تحمل أيَّة ميزة: فالرحلة ستستغرق وقتاً طويلاً كما أن اللجنة كانت تشك بوجود أية أرض لم تُكتشف بعد. وبعد ذلك، رفض الملك هنري السابع ملك إنكلترا فكرة كولومبوس وسخر مستشارو الملك منها ووصفوها بالخيالية. كما رفضها أيضاً ملك فرنسا شارل الثامن.

وهنا لم يعد أمام كولومبوس من خيار سوى التخلي عن الفكرة بكاملها. فقد واجه الرفض من قِبل أربعة ملوك أوروبيين سخروا من محاولته لإقناعهم بأنَّه كان يعرض عليهم أسرع الطرق إلى جزر الهند الشرقية وأكثرها مباشرة واقتصادية، وقرَّر العودة لرسم الخرائط.

لكن الملكة إيزابيلا لم تفقد الاهتمام كلية بخطة كولومبوس البارعة. لا شك بأن المخاطر كانت واضحة، لكن المكافآت قد تكون مجزية: فطريق كولومبوس المختصر سيمكن إسبانيا من الوسيلة التي تساعدها على سلب البرتغاليين السيادة في جزر الهند الشرقية، كما أن الذَّهب الذي وعد به كولومبوس سيقوم بتمويل ودعم الأسرة الملكية التي كانت تحلم بإنشائها. وهكذا، استدعت إيزابيلا كولومبوس مرة أخرى، بل أنَّها أرسلت له المال اللازم لشراء ثياب جديدة وبغل يمتطيه عند القدوم إليها. كانت الأنباء في البداية رائعة، فقد وافقت اللجنة الجديدة التي عيَّنتها إيزابيلا على عرضه. ثم جاءت الأنباء السيئة: لقد رفض مجلس المستشارين الأعلى ما اعتبره طلبات كولومبوس المغالية بشأن الألقاب والمكافآت المالية.

امتطى كولومبوس بغله، يملؤه الشعور بالإحباط والكآبة، وعاد إلى موطنه. كان قد بدأ الرحلة لتوه على الطريق الذي تسلكه البغال عندما أدركه

خيّال وطلب منه العودة لمقابلة الملكة. لقد قام مستشار ذو نفوذ بإقناعها بعد إلحاح بتغيير رأيها. كان ذلك في نيسان من سنة 1492. وبعد أربعة أشهر، وقبل أن تبزغ شمس الثالث من آب، اعترف كولومبوس وطاقمه أمام الكاهن وتناولوا القربان المقدس ثم صعدوا إلى سفنهم. واختتم كولومبوس أمره برفع المراسي بعبارة «باسم المسيح». أما ما حدث بعد ذلك فمعروف تاريخياً[9].

بعد يومين من إبحاره على محاذاة اليابسة في جزيرة سان سلفادور، التي كان كولومبوس واثقاً من أنَّها من جزر اليابان، أو سيبغانغو كما كان يسميها الإسبان، أبحر إلى الأمام بحثاً عن هدفه. كان على يقين من أنَّه سرعان ما سيكون قادراً على إثبات ما ذكره ماركو بولو في ملاحظاته عن رحلته من أن القصور في اليابان كانت مسقوفة بالذَّهب ـ بل إنَّه حمل معه نسخة من كتابات ماركو بولو لاستخدامها كدليل في الأراضي التي كان يتوقع أن يزورها[10]. وقد زادت قطع الذَّهب الصغيرة التي كان أهل البلاد يزيِّنون بها أنوفهم، من شعور الانتظار والتوقع. وبمجرد أن لاحظ كولومبوس أن الهنود لا يقيمون وزناً كبيراً لذهبهم، أسرع بعرض الخرز والقبعات عليهم لقاء ذلك الذَّهب. كانت بحق تجارة رابحة.

قام سكان البلاد الذين قابلهم كولومبوس في سان سلفادور بإخباره بأن هناك جزيرة كبيرة لا تبعد كثيراً تسمى كوبا، وكان لاسمها وقع قريب من كلمة سيبانغو الأمر الذي أقنع كولومبوس وطاقمه بأنَّهم قاربوا إدراك الهدف. وفي 28 تشرين الأَول، رسوا على شاطىء كوبا، لكنهم لم يجدوا أي ذهب. ورغم أنَّهم اكتشفوا التبغ، إلاَّ أَنَّه لم يثر اهتمامهم، إذ ما من شيء سوى كميات ضخمة من الذَّهب كان بإمكانها إرضاءهم. وخلال الفترة بين 12 تشرين الأَول سنة 1492 و17 كانون الثاني سنة 1493، عندما قفل كولومبوس عائداً إلى إسبانيا، ذكر الذَّهب في يومياته أَكثر من 65 مرة[11]. وقد كتب في 13 تشرين الأَول 1492، بعد يوم واحد من نزوله على اليابسة، يقول: «لقد كنت يقظاً وتجشمت

المتاعب لأتحقّق من وجود الذهب»[12]. ومما شجعه على ذلك الاعتقاد هو لون البشرة الداكن لأهل البلاد، فقد كان الأوروبيون منذ زمن طويل يعتقدون بأن البشرة الداكنة هي دليل أكيد على وجود الذَّهب. وأثناء إبحاره على طول الشاطىء الكوبي، كتب في يومياته: «نظراً للحرارة الفظيعة التي أعاني منها، لا بد وأن تكون البلاد غنية بالذَّهب»[13].

لقد استخف كولومبوس الفرح بسبب اكتشافاته، لكنه واجه أيضاً خيبات أمل مريرة، هو والرجال الذين تبعوه في أَول الأمر. فالأَرض التي اكتشفوها لم تكن، في نهاية الأمر، جزر الهند الشرقية، رغم أن كولومبوس كان لا يزال يعتقد بأَنَّه في آسيا حتَّى خلال رحلته الثالثة التي قام بها بعد ست سنوات من الرحلة الأولى. والأسوأ من ذلك، أن تلك المساحات الشاسعة من الأَرض القارية التي وجدوا أنفسهم في مواجهتها، كانت تبدو وكأنها حاجز لا نهاية له، ولا يستطيع أحد التكهن بكيفية الالتفاف حوله للوصول إِلى جزر الهند الشرقية، وهو الهدف الوحيد الذي يجعل من هذه الرحلة الخطرة أمراً يستحق المجازفة. ولكن لو كانت كمية الذَّهب في تلك الأراضي قد حقَّقت توقعاتهم على الأقل، لكان في ذلك تعويضاً ما عن الإِحباط الناجم عن إِخفاقهم في إِدراك هدفهم النهائي. لا شك بأن الذَّهب كان موجوداً، لكنَّه بالتأكيد لم يكن ذلك المنجم الغني.

ومع ذلك فإِنَّ التعليمات التي انطلقوا على أساسها كانت لا تقبل الجدل. فقد كانت أوامر الملك فيرديناند: «احصل على الذهب، إِن أمكن، فبشكل إِنساني، ولكن بأي ثمن ـ احصل على الذَّهب»[14].

في سنة 1510، قرَّر فاسكو نانيز بالبوا وهو مزارع إِسباني من أسترامادرا، بعد أن ملأه السخط وأثقلته الديون، أن يغادر جزيرة هيسبانيولا

(سانتو دومينغو الحالية) وأن يلتحق بحملة متجهة إلى داريين، وهي المنطقة التي يلتقي عندها برزخ بنما بشواطىء كولومبيا الشمالية. كان هناك ذهب في هيسبانيولا الوسطى، حيث كان الإسبان يستغلون كلاً من المناجم والهنود بأسلوب بالغ القسوة لدرجة أنَّه بحلول 1519 لم يكن قد تبقَّى من السكان الأصليين سوى ألفي شخص فقط من أصل مائة ألف شخص، كما كان يجري إحضار العبيد من إفريقيا للعمل في المناجم[15]. ورغم ذلك، انتشرت إشاعات في داريين تتحدَّث عن وجود كميات وفيرة من الذَّهب في مكان ما إلى الجنوب، قد تكون قريبة من بحر يحتمل أن يؤدي وجوده غير المؤكد إلى العثور على الذَّهب. عندما وصل بالبوا إلى داريين، ربطته صداقة حميمة بأحد رجال السيف وكان رجلاً أمياً من استراماندورا أيضاً، وهو فرانشيسكو بيزارو. كان بيزارو، مثل بالبوا، لا يأبه بالمخاطر إذا كانت المغامرة تعد بمكافأة تعوض عن تلك المخاطر.

لم يؤد الانتقال إلى داريين لحل مشاكل بالبوا المالية. وفي أحد أيام شهر أيلول من سنة 1513، كان بالبوا، وهو لا يزال يشعر بالإحباط ويعاني بعض المشاكل القانونية، يزن كمية من الذَّهب عندما ظهر أمامه زعيم قبيلة من البدائيين، ونثر قطع المعدن البرَّاق في أنحاء الغرفة وصاح به: «أنا أستطيع أن أخبرك عن أَرض يأكل أهلها ويشربون في آنية من الذَّهب، حيث قيمة الذَّهب لا تتعدَّى قيمة الحديد لديك»[16]. كان ذلك كل ما يحتاجه بالبوا ليندفع للقيام بمغامرة كبرى يتوقع منها أن تؤدي إلى لفت نظر الملك فرديناند إليه. وبدأ يشكل مجموعة من 190 رجلاً إسبانياً، وفي ذهنه أن يتبع المسار المؤدي إلى مصدر الذَّهب الذي تتحدَّث عنه الإشاعات بشكل نهائي هذه المرة، وأن يحل لغز البحث، الذي لم يكتمل بعد، عن طريق يؤدي إلى آسيا عبر المحيط. مرت ثلاثة أسابيع، تعرّض فيها رجال بالبوا لهجمات الهنود العدائيين والحشرات والأفاعي، واستطاعوا متابعة السير باتجاه الغرب حتَّى وصلوا إلى

جرف شديد الانحدار أخبرهم الهنود بأن المنحدر على الطرف الآخر من القمة كان يؤدي إلى بحر كبير. ولا بد أن جون كيتس، عندما كتب قصيدته كان يقصد شخصاً آخر، لكنه كان يعني نفس المحيط ونفس الشعور في تلك اللحظة العظيمة،

كان شعوري كشعور من ينظر إلى السماء
فيرى كوكباً جديداً ينزلق داخل مدى بصره
أو كشعور كورتيز الجسور عندما أمعن النظر
في المحيط الهادي بعينين كعيني النسر
بينما كان رجاله يتبادلون النظرات بدهشة جامحة
صامتين فوق القمة العالية في داريين.
(عندما قرأ لأول مرة ترجمة تشابمان لشعر هوميروس)

وبعد يومين، خاض بالبوا أمواج المحيط الهادي مشرعاً سيفه منادياً بملكية ملك إسبانيا «للبحر الجنوبي الكبير. . . . بكل ما يحتويه»[17]. ثم قام، مع رجاله دون رحمة، واضعاً بذلك قاعدة للقسوة على الهنود نافسه فيها كثير من الإسبان الآخرين، بنهب الكنز الوفير من القطع الذَّهبية التي وجدوها في القرى الهندية. ومن الواضح أن الأناقة ودرجة الرقي المذهلة لتلك القطع التي تقارب التجريد لم يكونا ليعنيان شيئاً لأولئك الرجال[18]. فآثار خامات الذَّهب التي اكتشفوها على السواحل الرملية لبحرهم الجنوبي ألهبت خيالهم بدرجة أكبر بكثير.

لكن هذا الإنجاز الباهر لم يُفلح في حل مشاكل بالبوا، ويبدو أنّه كان يواجه متاعب مزمنة مع السلطة. فبعد اكتشاف المحيط الهادي، وبينما كان بالبوا يخطط للإبحار نحو الجنوب، في بحره المكتشف حديثاً، باتجاه البيرو بحثاً عن مزيد من الذَّهب، وجّه إليه حاكم داريين تهمة الخيانة وأمر بضرب عنقه. ومن قبيل الصدفة، أن الحاكم، الذي كان قد أرسله ملك إسبانيا مع ألف

وخمسمائة رجل، بعد تلقيه الأخبار المثيرة المتعلقة باكتشافات بالبوا، هذا الحاكم كان والد زوجة بالبوا، أما الرجل الذي عهد إليه الحاكم بمهمة تنفيذ الإعدام فلم يكن سوى فرانشيسكو بيزارو.

كان بيزارو لقيطاً، تخلّت عنه أمه وتركته على درج كنيسة البلدة حيث وُلد، نشأ خشن الطباع، قوي الجَلَد واكتسب كفاءات قيادية قوية. وفي زمن لجأت فيه الغالبية العظمى من الأشخاص إلى تسويغ سوء معاملة الهنود على أن مبعثها إلى حد ما الرغبة في تحسين قَدَر هؤلاء وإسباغ بركات المسيحية عليهم، رفض بيزارو أن يموّه حقيقة أهدافه. فبعد الانتصار في البيرو، وعندما طلب القسيس من بيزارو أن يبذل المزيد من الجهود لتحويل السكّان الأصليين للمسيحية، كان جواب بيزارو: «لم آت إلى هنا لأسباب من هذا القبيل. لقد جئت لأسلبهم ذهبهم فحسب»[19].

كان رجلاً ذا إرادة فولاذية وثقة أكيدة بقدراته، مهما تكن العقبات التي تعترض سبيله. ولنأخذ بالاعتبار هنا هذه الحقيقة المثيرة للدهشة: إنَّ أول اتصال حاسم بين بيزارو وقبائل الأنكا لم يحدث قبل سنة 1532، أي بعد ثماني سنوات من انطلاق الحملة الاستكشافية من بنما، نزولاً على شاطىء المحيط الهادي، تلك الحملة المؤلّفة من سفينة واحدة على متنها مائة رجل. وحتّى أنَّه قام خلال هذه السنوات الثماني برحلتين عاد فيهما إلى إسبانيا لتوطيد الدعم الملكي وتأمين الموارد الكافية للحملة في البيرو.

يُعتبر كتاب ويليام بريسكوت «غزو البيرو» The Conquest of peru، الصادر في أيام سنة 1847، أحد أهم الأعمال الأدبية الأمريكية في القرن التاسع عشر، يتميَّز أسلوب الكتاب بالحيوية وبأناقة نادرة وبثقافة تاريخية لا تشوبها شائبة(*). إنَّ بريسكوت يتخذ موقفاً معادياً بشأن نفاق الإسبان في تبرير فظائعهم

(*) النسخة التي بحوزتي صادرة عن دار هيريتيج بريس، نيويورك، سنة 1957، وهي تضم سيرة بريسكوت بقلم العالِم العظيم في مجال البحار صاموئيل إيليوت موريسون.

باسم المسيح، لكنه لا يملك إلاَّ الإعجاب بشجاعتهم وبراعتهم وجرأتهم في وجه الظروف المربكة التي كانت تناوئهم.

بعد تسلّق الشعاب القفراء في جبال الأنديز، وغالباً عبر ممرّات لا تكاد تتسع إلاَّ لمرور حصان، تحفّها منحدرات مخيفة إلى هاوية بعمق آلاف الأقدام، استطاع مائتا رجل من الإسبان إخضاع إمبراطورية كان عدد سكّانها يصل إلى 3,5 مليون نسمة على الأقل[20]. ويشمل ذلك أجزاء كبيرة من دول الإكوادور وبيرو وبوليفيا وتشيلي والأرجنتين الحالية[21]. وفي نقطة حاسمة خلال هذه الحملة، استطاع جيش بيزارو الصغير القضاء على مقاومة ثلاثين ألفاً من جنود الأنكا المدربين على القتال على ارتفاعات تزيد على عشرة آلاف قدم.

كان الإسبان مقاتلين صعبي المراس شجعان قساة القلوب، لكنهم شعروا بالدهشة، كما حدث مع رجال كورتيز في المكسيك، للمزايا التي اكتسبوها عن طريق الظهور كأشباه آلة أمام الهنود. فقد كانت الوجوه الشاحبة والمدافع والأبواق والجياد والدروع اللامعة والعربات، كانت تلقي الرهبة والخوف في قلوب الهنود. وبالرغم من أن مجتمع هؤلاء الهنود، كان من نواح عدة أكثر تنظيماً وتماسكاً، وأكثر إنتاجية في ميدان الزراعة وأكثر تطوراً من الناحية الفنية، من المجتمع الإسباني، إلاَّ أن هؤلاء الهنود لم يسبق لهم أن ابتكروا العجلة، كما أن حيوانات اللاما، التي كانت تنتشر في كل مكان هناك، لم يكن بإمكانها أن تقف على قدم المساواة مع الجواد من حيث السرعة والصلاحية للامتطاء والذكاء. كانت الميزة التقنية الوحيدة التي يتمتعون بها هي نظام يثير الذهول بفعاليته، من العدّائين المتناوبين الجيدي التدريب الذين كانوا يقومون بنقل الأخبار والمعلومات صعوداً ونزولاً من جبال الأنديز الشاهقة، عبر طُرق لا تقل

جودة عن الطرق الرومانية، وكانوا يؤدون عملهم بكفاءة منقطعة النظير لدرجة أنَّهم كانوا يوصلون السمك حياً من الساحل إلى النبلاء الذين يقطنون عالياً فوق وديان الجبال.

وصلت الأمور إلى ذروتها في هذه القصة الطويلة في تشرين الثاني سنة 1532، عندما وصل بيزارو ورجاله إلى منهل ماء في أعالي الجبال يدعى كاجامالكا، حيث كان الإمبراطور أتاهوالبا، «الأنكا» أو ابن الشمس، يتخذ سكنى مؤقتة(*). كان أتاهوالبا يدري بقدوم الإسبان، بل إنَّه في الواقع بعث برسله للترحيب بهم. أما الإسبان فكان ما أثار اهتمامهم بشكل خاص هو شخص بعينه من هؤلاء الرسل لأنَّه جاء وهو يحتسي شراب تشيتشا ـ عصير الذرة ـ من أقداح ذهبية كان مرافقوه يحملونها له.

وعندما كان الإسبان ينظرون من أعلى الجبل إلى الوادي الأخضر والمدينة الصغيرة كاجامالكا بسكانها العشرة آلاف، لاحظوا موقع ينابيع المياه الحارة حيث كان الإمبراطور والأمراء قد ذهبوا للاستشفاء. كما لاحظوا أيضاً أمراً آخر أقل جاذبية: كتلة من البياض تغطي عدة أميال. كانت تلك خيام جيش ابن الشمس، وهو منظر أثار فزع الإسبان نظراً لكثرة عدد الخيام. لكن وقت التراجع كان قد فات.

عندما دخل الفاتحون، كما يدعوهم بريسكوت، مدينة كاجامالكا لم يجدوا سوى شوارع خالية. وبعد أن ساروا مسافة قصيرة، وصلوا إلى ساحة كبيرة مكشوفة محاطة بأبنية واطئة تضم قاعات رحبة، ويُحتمل أنَّها كانت ثكنة جنود ابن الشمس. كان بيزارو مصمماً على احتلال المنطقة.

(*) إن بريسكوت يتهجأ اسم هذه المدينة ومدن الأنكا الأخرى بحرف (س) بينما يميل الكتَّاب المعاصرون لاستخدام حرف (ج) عوضاً عنه. وقد التزمت أنا بهذه التهجئة.

قام بيزارو على الفور بإرسال قوة صغيرة إلى المعسكر الهندي، يقودها أخوه هيرناندو بيزارو وزميل له أعلى منه رتبة يدعى هيرناندو ديزوتو. اشتهر ديزوتو لاحقاً بسعيه لاكتشاف فلوريدا بحثاً عن ينبوع الشباب، وتوفي سنة 1542 على ضفاف نهر الميسيسيبي دون أن يفلح بالعثور لا على ينبوع الشباب ولا على أي ذهب في أمريكا الشمالية، وكل ما حصل عليه هو قيام شركة كرايسلر في ثلاثينات القرن العشرين بإطلاق اسمه على أحد أنواع سياراتها. كما ضمَّت تلك المجموعة رجلاً هندياً، كان الإسبان قد علموه من اللغة الإسبانية ما يكفي ليقوم بدور المترجم. وقد أطلقوا عليه اسم فيليبيلو.

وجد الإسبان ابن الشمس جالساً في فناء رحب ذي أبنية بديعة تتوسّطه نافورة، وكان محاطاً بالنبلاء وسيدات العائلة المالكة. كان في حدود الثلاثين من عمره، وسيماً ذا بنية أقوى من بنية كثير من مواطنيه، كما كان ضخم الرأس محمر العينين مما جعله يبدو عنيفاً. قدَّم هيرناندو بيزارو التحية لأتاهوالبا وأخبره أن القائد الإسباني ورجاله كانوا «رعايا أمير قوي يعيش عبر البحار. . . . وقد جاؤوا. . . لعرض خدماتهم ولينقلوا إليه تعاليم الدين القويم الذي يعتنقونه». ثم قام ديزوتو بدعوة ابن الشمس لزيارة الإسبان في مواقعهم في اليوم التالي، قبل هو الدعوة دون إبداء أية مشاعر. وكإجراء احتياطي، لم يترجل الإسبان أبداً عن جيادهم، لكن ذلك لم يمنعهم من أن يستجيبوا بلهفة للدعوة لاحتساء شراب التشيتشا اللذيذ من الأواني الكبيرة الذَّهبية الحجم التي كانت تقدمها لهم حسان الحريم الكحيلات.

عاد هيرناندو وفرقته إلى رفاقهم في حال من القلق الشديد مبعثه القوة والانضباط اللذان لاحظوهما بوضوح لدى جيش ابن الشمس. كما أن مستوى المدنية الأرقى كان واضحاً، لا سبيل لتجاهله بالمقارنة مع كل ما صادفوه في المناطق الأدنى من البلاد. لم يكترث بيزارو. وألقى خطاباً مثيراً في رجاله

مذكِّراً إيَّاهم بأنَّه «إذا كانت كثرة العدد، مهما عظمت، تقف في صف العدو، فلن يكون لها كبير شأن إذا كانت القوة الإلهية تقف في صفهم»[22].

كان بيزارو قد أعد خطة لا تخلو من التهور، خطة سيكون من شأنها ـ لو نجحت ـ أن تمنحه تفوقاً ساحقاً رغم الفرق الكبير في القوة العسكرية: سيقوم بأسر ابن الشمس ليضعه في مواجهة جيشه الخاص. كانت استراتيجية تحمل الكثير من المخاطر، لكنه لم يشك لحظة في أن ذلك الخلل الكبير في عدد الجنود قد وضعه في مأزق أضحى فيه أي مسعى أكثر اعتدالاً محكوماً عليه بالفشل.

وفي الصباح التالي، أخفى بيزارو قواته في الأبنية المحيطة بالساحة، ووضع مدفعيته المؤلفة من مدفعين صغيرين في الحصن ثم تأكّد من أن جميع الأسلحة كانت بوضع جيد، وبأن الدروع كانت تلمع وبأن الجياد كانت مزدانة بالأجراس وذلك لإطلاق أكبر ضجة ممكنة عند لحظة الهجوم الحاسمة. تُليت الصلاة. ويقول بريسكوت: «كان المرء ليعتقد أنَّهم مجموعة من الشهداء الموشكين على التضحية بحياتهم في سبيل معتقدهم، لا مجموعة من المغامرين الفاسقين الذين كانوا بصدد ارتكاب أكثر أعمال الغدر وحشية في التاريخ»[23].

بعد بضع ساعات ظهر الموكب الملكي لابن الشمس، لكنه توقف على مسافة نصف ميل من كاجامالكا وبدأ الرجال ينصبون الخيام. بعث بيزارو برسول يطلب من أتاهوالبا أن يأتي إلى موقع الإسبان بأسرع وقت ممكن لأنهم انوا سيقدمون له العشاء وضروب التسلية.

ابتلع أتاهوالبا الطعم ـ بكامله. وصل مع عدد قليل فقط من المحاربين الذين كانوا مجرَّدين من السلاح. هل كان أتاهوالبا واثقاً من إمبراطوريته لدرجة

أنَّه لم يكن يخش الوقوع في الشرك؟ . . أم أنَّه كان يعتقد ببساطة أن حفنة لا تزيد عن المائتي رجل لن تفكّر بعمل وقح كهذا؟ . . . مهما يكن الأمر، فقد حسم هذا القرار المتسرع قدره المشؤوم.

صحيح أن أتاهوالبا لم يحضر جيشه معه، لكنه احتفظ ببقية أفراد الحاشية، فقد امتلأت ساحة كاجامالكا بخمسة أو ستة آلاف شخص. كان هناك مئات من الخدم الذين كانوا يغنون وهم يفسحون الطريق أمام مرور ابن الشمس. جاء النبلاء في ثياب من قماش مطبّع برسوم مربعات بيضاء وحمراء، بينما ارتدى الحراس ومرافقو ابن الشمس بزات زرقاء باذخة تكسوها زخارف برَّاقة. أما ابن الشمس نفسه فكان محمولاً على محفة من الذَّهب وهو يتربع على عرش ضخم، من الذَّهب أيضاً. كما كان يضع قلادة من أحجار الزمرد الكبيرة المتألقة وقد ازدان شعره بزخارف ذهبية.

وعندما تجمع أتاهوالبا وكل من جاء معه في الساحة دون أن يروا إسبانياً واحداً، تساءل بصوت عال أين ذهب الجميع؟ وفي تلك اللحظة ظهر القسيس وهو يحمل الكتاب المقدّس بإحدى يديه ويحمل الصليب باليد الأخرى. وكان يرافقه فيليبيلو، المترجم الهندي. أعلن القسيس أنه قد جاء ليبين لابن الشمس مبادىء الدين القويم، ثم شرع يقوم بذلك بتفصيل دقيق. وأنهى كلامه بأن شرح دور البابا، الذي كلف الإمبراطور الإسباني، «أقوى الملوك في العالم، بغزو أهل البلاد الأصليين في نصف الكرة الغربي لتحويلهم إلى الدين المسيحي. . . وقد حضر الجنرال فرانشيسكو بيزارو [جنرال الملك]، لتنفيذ هذه المهمة الخطيرة»[24].

انفجر أتاهوالبا قائلاً: «لن أصبح تابعاً لأحد، أنا أعظم من أي أمير آخر على سطح الأَرض. . . أما ديني، فلن أغيّره. إن إلهكم كما تقولون، قد قُتل بيد الرجال الذين خلقهم هو». ثم صمت ليشير إلى الشمس، التي كانت توشك على المغيب خلف الجبال، وأضاف «لكن إلهي لا يزال حياً في السماء

يرقب أبناءه». سحب أتاهوالبا الكتاب المقدَّس من بين يدي الراهب الذي صعقته الدهشة، ونظر إليه برهة ثم رماه على الأَرض قائلاً: «لن أتحرّك من هنا قبل أن يقوم رفاقك بالتعويض عن كل ما اقترفوه بحقي من إساءات»[25].

هرع القسيس إِلى بيزارو وأصدر إليه أمره: «اهجم على الفور، أنا أحلُّكَ من الخطيئة»[26]. لوح بيزارو بوشاح أبيض فانطلق مدفع من الحصن، ثم اندفع رجاله إِلى الساحة، بعضهم على الجياد والبعض الآخر راجلاً، وهم يصرخون صرخة الحرب: «أيها القديس إياغو فلنهاجمهم»[27] أُصيب الهنود بالذعر، ولم يبدوا أية مقاومة، وقد صعقهم دوي المدافع والبنادق وغشى أبصارهم الدخان الجهنمي، عندما أخذ الإسبان يطؤونهم بسنابك الجياد وهم يمزِّقون أجسادهم العاجزة عن الدفاع. وكان ابن الشمس، في هذه الأثناء لا يزال فوق محفته العالية ورأى نبلاءه المخلصين يتساقطون حوله في محاولة يائسة لحمايته. بل إن بيزارو نفسه هرع لحماية ابن الشمس من الإسبان الملتهبين حماساً وتلقى طعنة في يده أثناء قيامه بذلك ـ وقد كان هذا هو الجرح الوحيد الذي اصيب به أحد الإسبان في ذلك اليوم. استمرت مذبحة الهنود مدة طويلة سقط خلالها الآلاف منهم قتلى. إن العدد الدقيق للقتلى لا يزال موضع جدل، أما عدد الأسرى فكان أكبر من أن يُحصى.

أراد بعض جنود بيزارو قتل الأسرى، أَو تشويههم على الأقل بقطع أيديهم. لكن بيزارو رفض وحرَّرهم جميعاً واستبقى عدداً كافياً لخدمة الإسبان. ويعلق بريسكوت: «فيما يتعلَّق بهذه النقطة، كان للجندي العادي حاشية من الخدم للعناية به مناسبة أكثر للعمل لدى أحد النبلاء»[28]. ويبعث هذا في الذاكرة ما قاله المؤرخ الفلورنسي، المذكور في الفصل السابق، الذي شعر بالسخط «لرؤية أفراد الطبقة الوضيعة الذين... يرتدون ملابس لا تليق بمستواهم ويصرّون على تناول أنفس اللذائذ على موائدهم»[29].

وعندما هدأ نشاط الإسبان قليلاً في انتظار التعزيزات القادمة من القاعدة

الإسبانية على الساحل، استغل بيزارو الوقت ليزداد معرفة بأسيره. أما أتاهوالبا، فكان من ناحيته يرقب الإسبان عن كثب. وسرعان ما اكتشف أن لديهم شهوة أخرى تفوق في شدتها محاولاتهم المتكررة لتحويله إلى المسيحية: وهي حبهم للذهب.

وفي أحد الأيام قدم أتاهوالبا عرضاً. إذا أطلق بيزارو سراحه، فسيقوم ابن الشمس باتخاذ الإجراءات اللازمة لملء الغرفة التي كان محتجزاً فيها بالذَّهب حتى الارتفاع الذي يمكنه الوصول إليه، وذلك خلال شهرين، وسيتم إحضار الذهب من القصور الملكية والمعابد والأبنية العامة. كانت مساحة الغرفة تبلغ 17 قدما × 22 قدماً. وارتفاعها يصل إلى تسعة أقدام. وافق بيزارو على العرض بلهفة. وقف أتاهوالبا على أطراف أصابعه وتم رسم خط أحمر عند مستوى الارتفاع الذي حدَّده، ثم قام كاتب العدل بتسجيل تفاصيل الاتفاق، وبعد ذلك بعث أتاهوالبا برسل ليقوموا بتنفيذ المهمة.

لم يكتف بيزارو بذلك بل أرسل من جهته مبعوثين إلى العاصمة كيوجو، وكان الوصول إلى هناك عبارة عن رحلة شاقة تزيد على ستمائة ميل عبر الجبال، حيث وجدوا معبد الشمس الكبير المغطى بصفائح الذهب والموميات الملكية داخل المعبد، وقد أُجلست كل منها على عرش من الذهب. انتزع الإسبان سبعمائة صفيحة من الذهب عن جدران المعبد، كانت الصفيحة منها بحجم غطاء الصندوق وتزن حوالى 2/ 4، 1 باونداً. و قبل أن يفرغوا من مهمتهم، كانوا قد حزموا مائتي حمل من الذهب نقلت إلى كاجامالكا على ظهور الهنود المقهورين. كانت تلك مجرد غزوة تمهيدية: فقد شنّ الإسبان على كيوجو غارة نهب أكثر ضراوة في وقت لاحق.

وفي هذه الأثناء، كان الذهب قد بدأ يرد من كل أنحاء البيرو، من معابد ابن الشمس وقصوره ومن الصّروح العامة، وذلك لتنفيذ عقده مع بيزارو. جاء الذهب بعدة أشكال ـ كؤوس وأباريق وصوان وآنية متنوعة، وأشكال زخرفية

وأوعية وسبائك وصفائح وقطع غريبة بشكل نباتات وحيونات متنوعة، ونافورة كان ينبعث منها دفق متألق من الذهب. اختار بيزارو بعض القطع لإرسالها كعينة صغيرة إلى الإمبراطور، شارل الخامس حفيد إيزابيلا، الذي كان يُعرف أيضاً باسم شارل الخماسي. وكان قد ورث العرش عن طريق والدته، جوانا المجنونة، كما تم اختياره امبراطوراً للإمبراطورية الرومانية المقدسة وهو منصب كان قد شغله جده لوالده. ولم يقدر لحاكم أن يسيطر على مساحة في أوروبا تفوق المساحة التي كانت تحت سلطانه إلاّ نابليون وهتلر في ذروة قوتهما. وسنعود إلى شارل في فصل لاحق.

لم تبق قطعة واحدة، من كومة الذهب التي كانت تملأ غرفة أتاهوالبا، على شكلها الأصلي ما عدا تلك الكمية الصغيرة التي بعث بها بيزارو إلى إسبانيا، لكن القطع القليلة من المشغولات الذهبيَّة من البيرو، التي نجت من قبضة الإسبانيين ووصلت إلينا، تأخذ بالأنفاس(*). لقد كان من السهل الحصول على الذهب بدرجة عالية من النقاء من الرسوبات النهرية في البيرو، بحيث أن المشغولات الذهبيَّة هناك بدأت في مرحلة مبكرة. وفي سنة 500 قبل الميلاد، كانت قد صُنعت التيجان والأقراط والأساور ودبابيس الزينة. وهناك قطع أقدم عهداً من هذا التاريخ تحمل تأثيرات صينية وفيتنامية، مما يوحي بأن البحارة الآسيويين كانوا قد نجحوا في الإبحار عبر المحيط الهادي عندما كان الأوروبيون لا يزالون يحاولون تعلُّم التجديف في البحر الأبيض المتوسط(30). لكن يجب أن نعترف بأننا لا ندري ما إذا كان هؤلاء البحارة الآسيويون قد استطاعوا إيجاد طريق العودة.

وعندما حصل الغزو، كان أهل البيرو يقومون بطرق رقائق الذهب لصنع

(*) إن زيارة لمجموعة جان ميرتشيل في متحف ميترو بوليتان للفنون في نيويورك هي تجربة لا تُنسى.

أوان وأقنعة تتميز بالتنوع والتعقيد والوفرة. وأحد إنجازاتهم المذهلة كان كؤوساً ضخمة بشكل تمثال بشري، وهو عمل صعب تقنياً يترك تأثيراً «مروعاً» على المُشاهِد. وتُظهر بعض تلك الكؤوس الرأس في وضع مقلوب، بحيث أن المرء يشرب من عنق هذا الرأس، مما يوحي بأن تلك الكؤوس قد تمثل رأس عدو مدحور، أي أن الذي يستخدم الكأس يشرب، بشكل رمزي، من جمجمة هذا العدو ـ كما كان يفعل اللومبارديُون. وقد تم العثور على إزار صوفي يحوي ثلاثين ألف صفيحة دقيقة من رقائق الذهب. ومن ناحية أخرى، كان الصياغ يصنعون صفائح من الذهب ذات تصاميم بارزة لإكساء الجدران، كتلك الألواح التي انتزعها الأسبان عن جدران المعابد في كيوجو[31].

وفيما عدا تلك القطع الصغيرة التي استُبقيت لتُعْرض على الملك شارل الخامس، تحوّل كل ذلك الكنز المتراكم من قطع تزينيَّة إلى نقد، وبدأت قطعة بعد أُخرى تختفي داخل بواتق الصهر ليُعاد صبها بشكل سبائك ذهبيَّة. عهد بيزارو بتلك المهمة إلى صياغ من الهنود، أي نفس الأشخاص الذين كانوا قد أبدعوا تلك القطع الجميلة. استغرق العمل شهراً كاملاً، لكن النتيجة كانت سك 1,326,539 بيزو ذهبي، حسَبَها بريسكوت على أنها تعادل 15 مليون دولار وذلك عندما كان يؤلف كتابه في أربعينات القرن التاسع عشر[32]. ويعني هذا بالقيم المعاصرة مبلغ 270 مليون دولار، وهو مردود لا بأس به لجهود يقوم بها المرء تحت أية ظروف كانت، ولكن هذا المبلغ لا يستطيع أن يعبّر عن مدى أَهميَّة ذلك الكنز في الاقتصاديَّات الصغيرة للقرن السادس عشر. فهذا الحساب لا يتضمن العرش الذي كان ابن الشمس يعتليه عندما دخل المدينة بتلك الطريقة الصاخبة ـ 190 باونداً من الذهب من عيار 16 قيراطاً، أو ما يعادل إنتاج سنة كاملة من مناجم الذهب في البيرو[33]. لقد احتفظ بيزارو بتلك المكافأة لنفسه. وإذا نحن حوَّلنا قطع البيزو الذهبيَّة إلى وزن بالأطنان، فلا بد أن الهنود ملؤوا غرفة أتاهوالبا بخمسة أطنان من الذهب تقريباً، أي أكثر من مجمل الإنتاج

الأوروبي السنوي من الذهب في ذلك الوقت، أو لكي تكون الصورة أَكثر وقعاً في النفس، ما يعادل إِنتاج مناجم الذهب في البيرو لمدة عشرين سنة[34]. ومن ناحية أخرى، لا بأس من أن نذكر هنا أن جستنيان وضع ضعف تلك الكمية من الذهب في كنيسة القديسة صوفيا وأن فدية جان الثاني، البالغة ثلاثة ملايين كروان، كانت أَكثر من ضعف كتلة الذهب في غرفة أتاهوالبا. لا عجب إِذاً أن يعتقد جستنيان أَنَّه قد تفوق على سليمان وأن يهبّ الشعب الفرنسي بثورة ضد الأعباء الثقيلة التي فرضت عليه.

انتهت حكاية ابن الشمس نهاية بشعة. فالجنود الإِسبان الذين وصلوا بعد ذلك لم يجدوا أي معنى في استمرار إِيواء أتاهوالبا كما أنهم كانوا يعارضون تحريره من الأسر. قاوم بيزارو الضغوط أَول الأمر لكنه استسلم في النهاية. قُدِّم ابن الشمس إِلى المحاكمة متهماً بعدة جرائم وهي اغتصاب العرش، وتبديد الأموال العامة وارتكاب الزِّنا وعبادة الأوثان ومحاولة التحريض على العصيان ضد الإِسبان. لم تضيع المحكمة ـ المهزلة وقتاً طويلاً قبل التوصّل إِلى قرار بأن أتاهوالبا مذنب. وبعد إِصدار الحكم، استدار أتاهوالبا إِلى بيزارو والدموع تملأ عينيه وسأله «ما الذي ارتكبتُه، أو اَرتكبه أَطفالي، حتى أُلاقي مصيراً كهذا؟.. ومنك أنت بالذات أيضاً، أنت الذي قُوبل من شعبي بكل اللّطف والمودة، أنت الذي شاركتك كنزي، ولم تلق مني غير كل خير»[35]. أدار بيزارو ظهره ومضى دون أن يجيب.

وفي 29 آب سنة 1533، بعد ساعتين من مغيب الشمس، أوقد الإِسبان المشاعل في الساحة وربطوا أتاهوالبا، وهو مكبل بالسلاسل تماماً، إِلى عمود الإِعدام تحيط به حزم الحطب المُعدَّة لحرق جثته. ثم ظهر القسيس الذي كان أَول من ألقى عليه محاضرة حول فضائل المسيحية، وأمسك الصليب ووضعه

أمامه وحذَّره من اللعنة الأبدية التي ستصيبه إذا لم ينبذ دينه الوثني ويقبل دين المسيح. رفض أتاهوالبا الإذعان. وفي النهاية، وعد القسيس أتاهوالبا أَنَّه إذا تحول إلى الدين المسيحي فإنَّهم سيوفرون له موتاً سريعاً بالخنق بالطوق الحديدي، بدل معاناة آلام الخازوق التي لا نهاية لها. استسلم أتاهوالبا وقد هدَّه اليأس، وتقبل المعمودية باسم جوان دي أتاهوالبا وذلك تكريماً للقديس يوحنا المعمدان، الذي صادف وقوع هذا الحدث الحزين في يوم عيده. ثم قام الجلاد بتنفيذ مهمته الشنيعة بينما وقف الإسبان يتمتمون بصلواتهم من أجل خلاص روح ابن الشمس.

إنَّ نهاية قصة الغزاة تبدو وكأنها أمثولة أخلاقية. لقد انتقد آدم سميث بقسوة «ذلك الظمأ المقدس للذهب» الذي دفع المستكشفين والغزاة للذهاب إلى العالم الجديد، وكان مصيباً في ذلك[36]. فإرواء ذلك الظمأ أودى بمعظم هؤلاء الرجال إلى عاقبة وخيمة، بدءاً ببالبوا نفسه.

انقسمت مجموعة بيزارو الأصلية إلى زمر قامت بإغراق روح المغامرة الكبيرة في بحر من النزاعات الداخلية المميتة على الزعامة والغنائم. وبعد الجهود الجبارة التي بذلها الكثيرون في غزو البيرو، والمخاطر المخيفة التي واجهوها، لم يستطيعوا تحقيق أحلامهم في العودة إلى إسبانيا بثروتهم الذهبيَّة ليعيشوا حياة رخيَّة، فقدَ بعضهم حياته في معارك ضد الهنود أو في حروب أهلية ضد بعضهم البعض. وهناك آخرون فقدوا ذهبهم لأَنَّه كان ثقيلاً بشكل لا يمكن حمله أثناء المعارك المستمرة ـ تماماً كبطل قصة راسكين في السفينة الغارقة. كما أن هناك كثيرين فقدوا ذهبهم في المقامرة على مبالغ كبيرة مع الأصدقاء.

انتهى تاريخ رجال بيزارو بمأساة هي الأكثر غرابة. فقد عاد هيرناندو

بيزارو إلى إسبانيا مع كنزه سنة 1540، حيث سُجن بأَمر من أعدائه لمدة عشرين سنة، خرج بعدها من السجن شبحاً مسناً وضعيفاً لذلك الجندي الجبار الذي كانه. اغتيل فرانشيسكو بيزارو سنة 1541، بينما كان يتناول العشاء في منزله في ليما، على يد متآمرين من إحدى مجموعات المنشقين. وبينما كانت السيوف تُغرز في جسده، صرخ قائلاً: «أيها المسيح»، ثم قبّل الصليب الذي كان قد رسمه بإصبعه على الأرضية المغطاة بالدماء.

وبمرور الوقت، وبعد أن استولى الإسبان على كل قطعة ذهب سائبة، وعلى كل قطعة مصنوعة من الذهب تمكنوا من العثور عليها، فقدت متعة السلب زخمها. وجاء وقت التعدين، الذي كان يعتبر عملاً جدياً. كانت المناجم في البيرو بشكل مداخل كبيرة في النهر كالكهوف، تصل غالباً إلى عمق ستين قدماً في باطن الأرض. كان الظلام الدامس يلف تلك الممرات ولم تكن تتسع إلا لرجل واحد يدخل محني الظهر ليكشط عن الصخور القدر الذي يستطيعه من الذهب ثم يقفل راجعاً وهو محني الظهر أيضاً ويخرج ليتبعه آخر ويقوم بالعمل نفسه[37].

عندما كان ابن الشمس، هو الحاكم، كانت تجري مراقبة هذا العمل الشاق وضبطه بدقة لتجنب إرهاق عمَّال المناجم وللمحافظة على حياتهم. أما تحت سيطرة الإسبان، فقد كان العمل القاسي في المناجم يدمر السكان الأصليين تدميراً، مثلما كان الأمر في كل مغامرات الأوروبيين للحصول على الذهب في العالم الجديد. ويا للمفارقة!.. يقول غيبون في كتابه «تاريخ انحدار وسقوط الإمبراطورية الرومانية» مؤكداً أَهميَّة الذهب الإسباني للإمبراطورية الرومانية قبل ذلك بألف وخمسمائة سنة، «كانت إسبانيا، في لعبة فريدة من أَلاعيب القدر، تُعتبر بيرو أَو مكسيك العالم القديم... وإنَّ اضطهاد السكان البسطاء (الإسبان)، الذين كانوا مجبرين على العمل في مناجم بلادهم لصالح الغرباء، يشكِّل النموذج الدقيق لتاريخ أمريكا الاسبانية الحديث»[38].

وفيما بعد وعندما بدأ البرتغاليون باستثمار الموارد الذهبيَّة الضخمة في البرازيل، أصبح معدل الوفيات بين الهنود عالياً بحيث هلك القسم الأعظم من السكان مما اضطر البرتغاليين لإِحضار أعداد كبيرة من العبيد الأفارقة للحلول محلهم. ويشكل المنحدرون من سلالة هؤلاء العبيد الزنوج نسبة كبيرة من سكان البرازيل الحاليين. كما شاعت أيضاً تلك القصة المعتادة عن انتقال أمراض الرجل الأبيض، لكن ظروف العبودية الفعلية في المناجم كانت تطيح بالحياة الإِنسانية وكأنها لم تكن تساوي شيئاً.

إِنَّ أكثر ما يثير السخرية، أن طوفان الذهب من العالم الجديد، لم يجلب لإِسبانيا الثروة والقوة اللتين وعد بهما الغزاة وتوقعهما الملك في بداية الأمر. وهذا هو موضوع الفصل التالي.